عبد الباري عطوان

الدولة الإسلامية

الجذور، التوحّش، المستقبل



دار الساقي

عبد الباري عطوان

الدولة الإسلامية

الجذور، التوحّش، المستقبل



دار الساقي

الدولة الإسلامية

الجذور ... التوحّش ... المستقبل

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

بالعربية:

- القاعدة: التنظيم السرّي
- وطن من كلمات
- ما بعد بن لادن: القاعدة، الجيل التالي

بالإنكليزية:

- *The Secret History of al-Qa'ida*
- *A Country of Words*
- *After Bin Laden: Al-Qa'ida, the Next Generation*

عبد الباري عطوان

الدولة الإسلامية

الجذور... التوحّش... المستقبل

دار الساقي

الطبعة الأولى 2015

ISBN 978-6-14425-817-0

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114—2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

المحتويات

مقدمة لا بدّ منها

السيدة هيلاري كلينتون، وزيرة الخارجية الأميركية السابقة، أصرّت في أحد تصريحاتها الصحافية بأن "الدولة الإسلامية" ليست دولة وليست إسلامية، ولكن الواقع على الأرض مغاير لذلك تماماً، فهذه المقولة ربما تلقى صدىً إيجابياً في الكثير من الأوساط الغربية والعربية، بل والإسلامية التي تقف في الخندق المقابل للدولة الإسلامية وتعتبرها منظمة "إرهابية" مثل غيرها من المنظمات، وتنظيم "القاعدة" على وجه الخصوص. ولكن إذا تأملنا جذور هذه الظاهرة وتطورها السريع نكتشف أنها أقرب إلى "الدولة" من كونها تنظيماً عابراً للحدود.

فهذه هي المرة الأولى، ومنذ مئات السنين تقريباً، يستطيع تنظيم السيطرة بالكامل على مساحة جغرافية في حجم دولة بريطانيا التي أقامت أكبر الإمبراطوريات في التاريخ الحديث. فالدولة الإسلامية تقوم، وحتى كتابة هذه السطور، على نصف العراق ونصف سورية، وتنحت حدوداً جديدة لأول مرة منذ معاهدة سايكس بيكو، وتسيطر عليها سيطرة تامة، وهي حدود قابلة للتمرد، تماماً مثلما فعلت كل الدول التي توسعت وأقامت إمبراطوريات في حقبات عديدة من التاريخ. ونحن هنا لا نتحدث عن النجاح والفشل، بقدر ما نتحدث عن النشأة والتطور والطموحات.

تنظيم الدولة الإسلامية لم يكن نسخة جديدة من تنظيم "القاعدة"، وإنما يشكل نموذجاً مختلفاً من حيث الإيديولوجية والنشأة والأولويات. فتنظيم "القاعدة" حصر أولوياته في محاربة الغرب، والولايات المتحدة الأميركية بالذات، وإخراج قواتها من الجزيرة العربية، وقتل اليهود والصليبيين، وتجنّب خوض أي معارك أو حروب ضد تنظيمات إسلامية أخرى إلا بعد عشرين عاماً من نشأته في اليمن، وهي صدامات وحروب من منطلق الحفاظ على البقاء والاستمرارية. بينما أراد تنظيم الدولة استغلال حالة الانهيار الذي تعيشه المنطقة، وضعف الحكومات المركزية، وتعاظم التدخلات

العسكرية الغربية، وغياب السيادة الوطنية، وتعاظم الاستقطاب الطائفي، واستفحال الغضب الشعبي نتيجةً لسياسات التهميش والإقصاء، لإقامة دولة وفق مقاساته الإيديولوجية.

ربما تكون الحاضنة الإيديولوجية لـ"الدولة الإسلامية"، أي التيار السلفي الجهادي العالمي، القاسم المشترك مع "القاعدة"، فهناك أصول مشتركة جامعة، مثل مبدأ "الحاكمية" (أي تحكيم الشريعة الإسلامية وتطبيقها تطبيقاً محكماً مثلما كان عليه الحال في دولة المدينة)، والكفر بالطاغوت (تكفير كل الأنظمة التي لا تطبّق الشريعة)، والولاء والبراء (الالتزام المطلق بالجماعة المسلمة الموحّدة والبراء من الكفار والمشركين والمرتدين)، والانطلاق من الدعوة النظرية للإسلام والعقيدة إلى الجهاد المسلح كأداة للتغيير وتحقيق الأهداف وأبرزها فرض الشريعة والقضاء على الطواغيت.

ولكن هناك فروقات كثيرة، وأبرزها إعطاء الدولة الإسلامية الأولوية للتغيير المجتمعي تغييراً جذرياً، واستخدام "التوحش" بل والإفراط فيه لتحقيق هذا التغيير وفق الإيديولوجية الجهادية، وعدم التفريق بين الطواغيت والاستعمار الغربي (الكافر).

تنظيم "القاعدة" لم يقم دولة، وإنما هو فصيل جهادي، ولم يحرّر أرضاً تكون بمثابة "القاعدة" للانطلاق يتمتع فيها بمقومات السيادة، وإنما كان "ضيفاً" في بعض الأماكن مثل أفغانستان واليمن والعراق، بينما الدولة الإسلامية قامت على أراضي شاسعة في العراق وسورية، تملك السيادة المطلقة عليها، تحتوي على النفط والماء (نهرين: دجلة والفرات)، وتفرض قوانينها، وتجمع الضرائب (المكوس)، وتقيم الحدود على من يخالف الشرع والعقيدة.

التمكّن والتوسّع

إنها ربما المرة الأولى في تاريخ التنظيمات الجهادية التي تتحقق السيادة الكاملة لتنظيم على الأرض. فقد تميزت "الدولة الإسلامية" عن ما عداها من التنظيمات، بل ومعظم الدول الأخرى، بأنها حققت الاكتفاء الذاتي في أمرين أساسيين: الأول هو الاكتفاء الذاتي مالياً من خلال السيطرة على آبار النفط ومصافيه في شرق سورية (الرقة ودير الزور)، الأمر الذي أمّن لها دخلاً مالياً يومياً في حدود مليوني دولار، وكذلك من الاستيلاء على أكثر من نصف مليار دولار من النقد من خلال السيطرة على البنك المركزي العراقي ومخزونه من الذهب والنقد (دولارات ويورو وعملات أخرى)، ولا ننسى عوائد الضرائب (المكوس)، وعوائد الفديات (جمع فدية) التي حصلت عليها جراء الإفراج عن رهائن لديها. بمعنى آخر، إن الدولة الإسلامية حققت الاستقلال الكامل مادياً على عكس تنظيم "القاعدة" أو التنظيمات

الجهادية الأخرى التي كانت، ومازال بعضها، تعتمد على المساعدات الخارجية، ودول الخليج أو أفراد فيها على وجه الخصوص. أما الاكتفاء الذاتي الآخر فتمثل في ميدان السلاح، فقد استولت الدولة على مخازن أسلحة الجيش العراقي عندما اجتاحت الموصل، وباتت تملك دبابات وطائرات ومدافع أميركية الصنع، والشيء نفسه حصل عندما استولت على مخازن أسلحة الجيش الحر في مينة أعزاز شمال غرب سورية، وتضم أسلحة أميركية أيضاً، كما استولت على العديد من مخازن الجيش السوري وثكناته العسكرية ومطاراته في الرقة ودير الزور وحلب.

أميركا لم تؤسس تنظيم الدولة الإسلامية، في اعتقادنا، مثلما يروج الكثيرون في المنطقة على وسائل التواصل الاجتماعي، ولكنها خلقت الحاضنة لقيام التنظيم بسبب سياساتها التدميرية والعدائية للعرب والمسلمين، من خلال احتلالها العراق أولاً ومن خلال حلفائها في بغداد ودول خليجية وعربية عديدة. فسياسات القهر والإقصاء والتهميش والإذلال التي مورست على أبناء الطائفة السنية في العراق أثناء فترة الاحتلال التي امتدت أكثر من ١١ عاماً هيّأت البيئة الملائمة لنمو "بذرة" الدولة الإسلامية وترعرعها وامتدادها، وتكوين "النموذج" الذي يجذب عشرات الآلاف من الشباب الإسلامي المحبط في مختلف أنحاء العالم.

"الدولة الإسلامية" هي النتاج الطبيعي لاحتلال أميركا للعراق وبذر بذور الطائفية فيه والانحياز إلى طائفة وإهمال وإذلال أخرى، انطلاقاً من نزعة الانتقام والثأرية. وزادت هذه النزعة بعد تبنّي بعض أبناء الطائفة السنّية نهج المقاومة للاحتلال والعملية السياسية المنبثقة من رحمه، وهذا لا يعني أن بعض أبناء الطائفة الشيعية لم يشاركوا في هذه المقاومة، فالبعض منهم قاوم الاحتلال بشراسة، ولكنهم كانوا الاستثناء وليس القاعدة.

كان لافتاً أن أميركا حاولت دائماً احتضان "الإسلام المعتدل" وتوظيفه في خدمة طموحاتها، وقاومت بشراسة الإسلام الجهادي، والاستثناء الوحيد كان في أفغانستان، فالإسلام المعتدل كان حليف الإدارات الأميركية المتعاقبة في حربها ضد الشيوعية أو "امبراطورية الشر"، ولكنها دعمت أيضاً في الوقت نفسه الأنظمة الديكتاتورية بحجة الحفاظ على استقرار المنطقة.

الربيع العربي وبديله

إن ثورات "الربيع العربي" التي تحولت إلى صراع على السلطة بعد عامها الأول خلقت دولاً فاشلة تعمّها الفوضى الدموية، وساهمت التدخلات الخليجية فيها من جهة والإيرانية من جهة أخرى في تحويل معظم الدول التي انطلقت فيها هذه الثورات إلى دول فاشلة وحروب

أهلية وصراعات طائفية ومناطقية وقبلية، الأمر الذي صبّ في نهاية المطاف في مصلحة الجماعات الجهادية المتشددة وعلى رأسها "الدولة الإسلامية" وتهيئة الظروف الملائمة لنشوئها وازدياد قوتها.

توني بيلر فيلسوف الهيمنة الغربية على المنطقة العربية وأحد أبرز مهندسي الحرب على العراق قال في بداية انطلاق ثورات الربيع العربي إنه يرحب بعملية التغيير التي تريد هذه الثورات تحقيقها، ولكن يجب أن يكون هذا التغيير "متحكماً به" ويخدم المصالح الغربية، الأمر الذي يفسر الأسباب التي تكمن وراء التدخلات الغربية لإجهاض هذا الربيع وحرفه عن مساراته الحقيقية والدفع به باتجاه العسكرة والعنف المسلح.

الثورات العربية كانت خطوة حتمية في ظل تغوّل أنظمة عربية فاسدة وقمعية تخدم المخططات الأميركية في الهيمنة وتسهر على أمن إسرائيل، ولكن كانت هناك أصابع أميركية وأوروبية تحرك بعضها من خلف ستار. فالثورة الليبية جرى طبخها وإدارتها من الطابق العاشر في فندق شيراتون في الدوحة، حيث كانت غرفة العمليات الحقيقية، وكذلك بعض فنادق باريس بالتوازي، والمجلس الوطني السوري أول جسم للمعارضة تشكّل في الفندق نفسه، ومن كان يزور هذا الفندق يجد أنه كان محجاً لكل "الثوار" السوريين ومقراً لمعظم الذين انشقوا عنه.

سيلفيو برلسكوني رئيس وزراء إيطاليا الأسبق قال في تصريحات لوكالة الأنباء الإيطالية (اينا) إن الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي هو الذي "فبرك" الثورة الليبية، واعترف الفيلسوف الفرنسي هنري ليفي أنه كان عاملاً محركاً لهذه الثورة وأنه فعل ذلك خدمةً لمصالح إسرائيل وانسجاماً مع يهوديته.

لم يكن من قبيل الصدفة أيضاً أن تتحول لندن إلى مقر موازٍ للمعارضة السورية وأنشطتها السياسية والإعلامية، فقبل عامين من انطلاق شرارة الثورة موّلت وكالة المخابرات المركزية الأميركية "سي آي إيه" محطة تلفزيونية سورية معارضة برأسمال قدره سبعة مليارات دولار حسب ما جاء في وثائق ويكيليكس إلى جانب العديد من المواقع الالكترونية.

وكشف رونالد دوما، وزير الخارجية الفرنسي الأسبق، في تصريحات لقناة تلفزيونية فرنسية أنه زار لندن قبل الحرب بعامين وفاتحه نظراؤه الإنكليز بأن بريطانيا "تعدّ لتحرك ما في سورية" لزعزعة استقرار النظام، وأنهم يريدونه أن يشارك في هذه الخطة بحكم خبرته في المنطقة، وقال إنه رفض هذا العرض.

وإذا كان الاحتلال الأميركي للعراق ورجالاته شكّل الأرضية الخصبة التي نمت فيها بذور الدولة الإسلامية الذي أدى إلى مقتل مئات الآلاف من العراقيين، فإن التدخل المالي والعسكري الأميركي والأوروبي والعربي في سورية، تحت عنوان دعم الثورة السورية

لإسقاط نظام ديكتاتوري ظالم يحكمها، كان الرافعة الحقيقية لتأسيس هذه "الدولة" وتصليب عودها واتساع رقعة سيطرتها الجغرافية في زمن قياسي لا يزيد عن ثلاث سنوات. فالمملكة العربية السعودية وقطر ضخّتا مليارات الدولارات لدعم منظمات سورية معارضة معتدلة، ونقلت محطة تلفزيون "بي بي سي" عن رئيس جهاز الاستخبارات القطري اعترافه بتمويل تنظيمات سورية مسلحة لكن "معتدلة" بالتنسيق مع الإدارة الأميركية وجهاز المخابرات المركزية (سي آي إيه) وذلك في ردّه على اتهامات بتمويل بلاده الإرهاب.

ومثلما كان احتلال أميركا للعراق عام ٢٠٠٣ هو المنقذ لتنظيم "القاعدة" وإعادة بعث لها، بعد أن دمّر الاحتلال الأميركي لأفغانستان بعد هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠١ أكثر من تسعين في المئة من بناها التحتية، وشرّد وقتل النسبة الأكبر من مقاتليها، حيث شكّل العراق والمقاومة المسلحة على أرضه الملاذ والملجأ، ولعب أبو مصعب الزرقاوي دوراً كبيراً في هذا الإطار (نشرحه بشكل مطول في أحد فصول هذا الكتاب)، فإن تحول الثورة السورية من ثورة سلمية إلى ثورة مسلحة كان بمثابة نقطة انطلاق جديدة لتنظيم الدولة في العراق بعد أن ضعفت قوة هذا التنظيم بفعل الضربات الأميركية المتلاحقة وتشكيل الجنرال ديفيد بترايوس، قائد القوات الأميركية، نظام "الصحوات" من أجل قتال تنظيم "القاعدة" الذي تحول بعد ذلك إلى تنظيم الدولة الإسلامية في العراق.

ومثلما هاجر الرسول (صلعم) وأصحابه من مكة هرباً من ظلم قريش ومؤامراتها، اتّبع معظم أنصار تنظيم الدولة الإسلامية في العراق النهج نفسه وهاجر إلى سورية، وكان أولهم أبو محمد الجولاني الذي أرسل لفتح فرع جهادي للدولة في سورية تحت اسم "جبهة النصرة". ونشرح في أحد فصول الكتاب بشكل موثق عملية التأسيس هذه والخلاف الذي تلاها بين أبو بكر البغدادي زعيم الدولة الإسلامية وأبو محمد الجولاني.

صدام بذر البذور الاولى

ربما لا نبالغ إذا قلنا إن الرئيس العراقي الراحل صدام حسين هو الذي بدأ في التمهيد العملي والعقائدي واللوجستي للدولة الإسلامية، سواء جاء ذلك بمحض الصدفة أو نتيجة خطة محكمة. فعندما أدرك الرئيس صدام أن أميركا تريد الإطاحة به ونظامه، من خلال إقامتها منطقتي حظر جوي في شمال العراق وجنوبه، ودعم المعارضة العراقية وتبنيها وتأطيرها في أطر سياسية وتنظيمية مرفوقة بأذرع وحملات إعلامية مكثفة، وفرض حصار اقتصادي تجويعي إذلالي خانق على الشعب العراقي، قرّر التحول إلى الله وتبنّي الهوية الإسلامية والجهاد الإسلامي خصوصاً كعقيدة لمواجهة الاحتلال المتوقع.

الرئيس صدام حسين عبّر عن هذا التوجه الإسلامي الجديد من خلال إغلاق الخمارات والبارات، وإلغاء المظاهر العلمانية للدولة، وإطلاق ما سمّي في حينه بـ"الحملة الإيمانية"، وكتب كلمة "الله أكبر" على العلم العراقي بدمه، وأسّس ميليشيا فدائيي صدام من المتطوعين الشباب.

بعد استيلاء قوات "الدولة الإسلامية" على الموصل واندحار ثلاثين ألف جندي كانوا يحمونها، وهربهم بملابسهم المدنية، كتبتُ عدة مقالات حول هذه السابقة الخطيرة في العراق الحديث، ورددتُ كل هذا النجاح إلى "الجهاديين" في "الدولة" وعقيدتهم "الملهمة" في تصليب إرادة القتال و"الشهادة" لديهم، اتّصل بيّ شخص قال إنه أحد ضباط العراق في عهد الرئيس صدام حسين، وقال إن هذه البطولات التي حدثت في الموصل هي من فعل زملائه الذين تحولوا إلى العقيدة الجهادية وانخرطوا مقاتلين في صفوف "الدولة الإسلامية" عن قناعة.

"الإسلاميون الجدد"، أو "حديثيو الإسلام" مثلما يطلق عليهم الشيخ أبو محمد المقدسي، أحد المنظرين الأبرز للسلفية الجهادية الذي التقيته وآخرين في عمان أثناء إجرائي أبحاثاً حول ظاهرة الدولة الإسلامية وخلافاتها العقائدية مع شقيقتها "جبهة النصرة"، كانوا في معظمهم من رجال الحرس الجمهوري العراقي و"فدائيي صدام"، وتحولوا إلى "العقيدة الجهادية" عن إيمان وقناعة، ولم يكن من قبيل الصدفة أن أبرز مساعدين للخليفة أبو بكر البغدادي هما من ألوية الجيش العراقي الذي حلّه الحاكم الأميركي للعراق بول بريمر، ورشّد جنوده وضباطه وحولهم إلى فريسة لسلسلة من الاغتيالات ذات الطابع الطائفي.

فالجهاديون الذين جاؤوا من مختلف أنحاء العالم وانضمّوا إلى تنظيم الدولة الإسلامية لا يملكون الخبرة في تصويب الصواريخ وقيادة الطائرات والدبابات وإطلاق القذائف المدفعية ووضع الخطط العسكرية ذات الطابع الاستراتيجي وإدارة المناطق والمرافق والمدن التي سيطرت عليها الدولة، فهذا في معظمه من فعل الضباط العراقيين السابقين الذين يديرون معظم مفاصل الدولة.

جيل مختلف

صحيح أن نسبة كبيرة من مقاتلي الدولة الإسلامية هم من الشباب الإسلامي المتحمس المتطلع للشهادة وإقامة الدولة الإسلامية النموذج في تطبيق الشريعة، ولكن الصحيح أيضاً أن عقولاً إسلامية جبارة انضمت إلى صفوفها أيضاً تعلمت في جامعات غربية في مختلف المجالات العلمية والشرعية والاقتصادية والإعلامية والأدبية. فمن يتابع وسائل الإعلام التابعة

للدولة و"أشرطتها" على "اليوتيوب" ومجلة **دابق** التي تصدرها بعدة لغات، ومشاركات وأنشطة نشطائها على وسائل التواصل الاجتماعي على "الانترنت" و"التويتر"، يدرك هذه الحقيقة جيداً، وأبرز مثال هو الطبيب الفلسطيني عدنان أبو القيعان الذي ترك الأرض المحتلة وانخرط في القتال في صفوف التنظيم حتى قُتل على الحدود التركية في عملية عسكرية.

عندما التقيت الشيخ أسامة بن لادن زعيم تنظيم "القاعدة" في تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٩٦ في تورا بورا بأفغانستان كان عدد المقاتلين في صفوف التنظيم لا يزيد على ألفي مقاتل من مختلف الدول الإسلامية، ولكن الغالبية كانت من اليمن ومصر وسورية والمملكة العربية السعودية وليبيا، وبعض المخضرمين من المجاهدين العرب الذين قاتلوا في صفوف المجاهدين الأفغان في فترة الثمانينيات من القرن الماضي. وأبرز ما قاله لي في ذلك اللقاء إنه لا يستطيع قتال الولايات المتحدة وهزيمتها من خلال إرسال قوات إلى عمقها، ولكنه يستطيع تحقيق هذا الهدف إذا نجح في جرها للقتال على الأراضي العربية والإسلامية، وهكذا كان.

"الدولة الإسلامية" اتبعت النهج نفسه، ونجحت في إيقاع الدول الغربية بزعامة أميركا في المصيدة العراقية نفسها، عندما تعمّدت استفزاز الإدارة الأميركية وحلفائها العرب باستعادة الموصل، والتقدم نحو أربيل، والسيطرة على المعابر بين سورية والعراق، وبين العراق والأردن، والزحف إلى الحدود السعودية ومعابرها في عرعر ورفحة. فالولايات المتحدة التي تخشى سقوط "دولة" الأكراد في أربيل وآبار النفط واحتياطاته ومصافيه في كركوك وبيجي العراقيتين، والدولة السعودية حليفها الأساسي في المنطقة العربية، شكلت تحالفاً من خمسين دولة وأرسلت طائراتها الحربية لتدمير تجمعات الدولة الإسلامية في الرقة ودير الزور و"عين العرب" شمال سورية، وبدأت تغرق تدريجياً في المستنقع الدموي السوري العراقي.

الولايات المتحدة ومؤسساتها الأمنية أخطأت في تقدير قوة "الدولة الإسلامية"، واعتقدت أنه يمكن دحرها بسهولة، واعترفت وكالة المخابرات المركزية (سي آي إيه) بهذا الخطأ عندما قالت إن تعداد مقاتلي هذه "الدولة" لم يكن حوالي عشرة آلاف، مثلما قالت في تقاريرها قبل عام، وإنما ثلاثون ألفاً. ولكن العدد الحقيقي يفوق المئة وعشرين ألف مقاتل حتى كتابة هذه السطور وهو في ازدياد مضطرد.

إن اندفاع الشباب المسلم للانضمام إلى صفوف "الدولة الإسلامية" يمكن رده إلى عوامل كثيرة مثل انتشار الفساد والديكتاتورية واستفحال الصراع الطائفي والأوضاع الاقتصادية المتدهورة وارتفاع معدلات البطالة، ولكن الأهم من كل ذلك هو فشل الإيديولوجيات العلمانية والليبرالية الأخرى في تحقيق طموحات هؤلاء في مواجهة التغوّل

الغربي، والأميركي على وجه الخصوص وهيمنته على المنطقة، وفشل ما يسمّى ثورات "الربيع العربي" في إحداث التغيير المأمول.

الانتصارات العسكرية الكبرى التي حققتها الدولة الإسلامية في سورية والعراق، وتدخل الطائرات الحربية الأميركية لوقف تقدمها، حولتها إلى "ضحية" مستهدفة من الغرب والأنظمة العربية المتهمة بالفساد، الأمر الذي بدد النظريات التي كانت تقول إن هذه الدولة صنيعة أميركية وإسرائيلية في أذهان العديد من الشباب المسلم.

ليس غريباً أن تكشف استطلاعات للرأي أجريت على وسائط التواصل الاجتماعي أن ٩٢% من الشباب السعودي يؤيد "الدولة الإسلامية" ويراها نموذجاً للإسلام الحق، وليس مفاجئاً أيضاً أن يرفض "علماء الصحوة" في المملكة العربية السعودية التجاوب مع نداء العاهل السعودي الملك عبد الله بن عبد العزيز بالتصدي لظاهرة "الدولة الإسلامية" فكرياً، لإضعاف تأثيرها في أوساط الشباب السعودي، لأنه لا يمكن هزيمتها بالوسائل العسكرية فقط. فهؤلاء العلماء الذين حرض بعضهم الشباب السعودي على "الجهاد" في سورية، ونظموا حملات لجمع الأموال لدعم الجماعات الجهادية السورية التي تقاتل لإسقاط النظام، التزموا الصمت المطبق لتأييدهم المبطن للدولة الإسلامية أولاً، وخوفاً من عقاب الدولة الإسلامية وهجماتها على كل من يتطاول عليها أو يعارضها على شبكات التواصل الاجتماعي ثانياً. فالدولة شكّلت جيشاً إلكترونياً جباراً يملك خبرات تقنية عالية ويتصدى بشراسة لكل من يعارض فكر الدولة وممارساتها. وفوق كل هذا وذاك، يرى الكثيرون داخل المملكة العربية السعودية أن الدولة الإسلامية هي "حركة إصلاحية" وتشكّل عودة للفكر الوهابي في صورته الأصلية التي وضعها الإمام محمد بن عبد الوهاب. ونتناول هذا الجانب في الفصل المخصص للجذور الفكرية للدولة الإسلامية وعلاقتها بالحركة الوهابية، كما نخصص فصلاً كاملاً عن "الجهاد الإلكتروني" للدولة الإسلامية.

جذور التوحّش

ومن الغريب أن الكثيرين يستغربون جرعة التوحّش الزائدة لدى القائمين على الدولة الإسلامية، وينسى هؤلاء أن العراق وسورية كانا الأكثر دموية بين جميع الدول العربية على مرّ عصور التاريخ. فالعراق، الحاضنة الأولى للدولة الإسلامية، معروف بشخصيته القاسية الحادة والدموية حسب المؤرخ السوسيولوجي العراقي المشهور الدكتور علي الوردي، الذي ردّ الشخصية الدموية العراقية إلى فجر الإسلام عندما جرى إرسال "القراء" أو حفظة القرآن ومدرّسيه من منطقة نجد إلى العراق لنشر الدعوة، وهم من أكثر الفئات بداوةً وشراسة،

بينما جرى إرسال بعثات الهداية والدعوة للدين الإسلامي إلى بلاد الشام من أهل الحجاز الذين يمثّلون مجتمعاً مدنياً متحضراً يعمل بالتجارة. والممارسات الوحشية التي مارسها قادة حزب البعث الذي حكم العراق منذ عام ١٩٦٣ وحتى عام ٢٠٠٣ ضد خصومهم معروفة لا تحتاج إلى شرح، والإعدامات التي مارسها حكم الرئيس العراقي صدام حسين في أوساط قيادة الحزب عام ١٩٧٩ بعد توليه السلطة مباشرةً معروفة أيضاً.

في عام ١٩٧٩ كنتُ أعمل رئيساً لقسم الشؤون العربية في صحيفة **الشرق الأوسط** في العام الأول من صدورها، وفوجئت بالسيدة الموظفة للرد على الهاتف في الصحيفة تبلغني أن السيد سعد البزاز رئيس المركز الإعلامي العراقي في لندن قد اتصل يسأل عني عدة مرات، وكانت ملامح الغضب واضحة في صوته.

"تعذبلت" من الشيطان الرجيم وأعددتُ نفسي لأزمة وربما مواجهة، لأن النظام العراقي كان لا يتهاون مع أي شخص يخطئ في حقه، وكان لتوه قد أرسل إلى لندن فريقاً لاغتيال السيد عبد الرزاق النايف رئيس وزراء العراق الأسبق وأحد خصوم الرئيس العراقي صدام حسين، أمام فندق الإنتركونتنال وسط لندن، وفعلاً نفذ الفريق مهمته بنجاح.

السيد البزاز (انضمّ إلى المعارضة العراقية لاحقاً ويدير حالياً مؤسسة إعلامية ناجحة من بينها محطة تلفزيون "الشرقية"، واحدة من أنجح المحطات العراقية ويصدر صحيفة يومية) اتصل بيّ غاضباً مزمجراً وقال لي إن الخبر الذي نشرته على صدر الصفحة الأولى من الصحيفة حول إعدام ١٣ شخصاً معظمهم من أعضاء مجلس قيادة الثورة (بينهم عبد الخالق السامرائي وعدنان حسين) لأنهم تآمروا لقلب نظام الحكم ليس صحيحاً ونطالب بالتصحيح والاعتذار.

قلتُ للسيد البزاز: هل أفهم من كلامك أنهم لم يُعدموا وأنهم لم يخططوا لعمل انقلاب؟...
قال: نعم أُعدموا ولكن ليس لأنهم تآمروا لقلب نظام الحكم، وإنما لأنهم "فكروا بالتآمر، فنحن لا نسمح لأحد أن يصل إلى مرحلة التآمر".

لم يكن الرئيس صدام حسين إسلامياً في حينه، بل كان بعثياً قومياً علمانياً، أي أن "التوحش" ليس محصوراً بالإسلاميين المتشددين في العراق وسورية. ولا ننسى أن مجزرة حماة، التي وقعت عام ١٩٨٢ ويتراوح عدد ضحاياها بين عشرين ألفاً وثلاثين ألفاً من القتلى، لم ينفذها إسلاميون أيضاً، بل كانوا أبرز ضحاياها.

يقول أبو بكر ناجي (اسم حركي) مؤلف كتاب **إدارة التوحّش** الذي بات يعتبر في نظر الكثيرين أحد أبرز الكتب التي تعكس فكر الدولة الإسلامية والجهاديين الإسلاميين: "إن أفحش درجات التوحش أخف من الاستقرار تحت نظام الكفر"، ويضيف: "إذا نجحنا فيها فهي المعبر نحو الدولة الإسلامية المنتظرة منذ سقوط الخلافة، ولهذا ليس على المجاهدين انتظار نشوء التوحش تلقائياً بل التسريع به من خلال ضربات النكاية والإنهاك".

شخصية غريبة

في العاصمة الأردنية عمّان التقيت بشاب جاور في سجن "بوكا" العراقي السيد أبو بكر البغدادي الحسني القرشي حوالي أربعة سنوات، وأقام معه في زنزانة واحدة، وطلب مني عدم ذكر اسمه إلا بعد انتقاله إلى جبهات القتال أو استشهاده. قال لي هذا الشاب إن المجاهرة بالتوحّش سيكون المنهج الذي تتبعه الدولة الإسلامية لنشر الرعب والخوف والهلع لإرهاب الخصوم وغير الخصوم، ولإرسال رسالة مفادها أن كل من يتعاون مع أعدائها سيواجه القتل بأبشع الطرق وعليه الاستسلام، واستشهد بالآية الإسلامية التي تقول: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ وبالحديث النبوي الذي يقول: "نُصرت بالرعب على مسافة شهر". وأضاف: لولا هذا التوحّش "لما سقطت دير الزور والرقة والموصل والرمادي وهيت وحديثة وغيرها في أيدينا دون قتال".

السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو حول مدى نجاح التحالف الخمسيني الذي أقامته الولايات المتحدة لمحاربة "الدولة الإسلامية" لإضعافها كمقدمة للقضاء عليها، وهل تكفي "الضربات الجوية" وحدها لإنجاز هذه المهمة أم لا مناص من إرسال قوات برية، ومن أين ستأتي هذه القوات؟

الإجابة على هذا السؤال ستكون في الفصل الأخير من الكتاب الذي يحاول استقراء بعض ملامح المستقبل على ضوء المقدمات المتوفرة حالياً، ولكن ما يمكن قوله، وباختصار شديد، في هذه المقدمة، أن التدخل العسكري الأميركي أفاد الدولة الإسلامية وصحّح صورتها في نظر الكثير من الشباب المسلم، وزاد من شعبيتها ودفع بالآلاف من الشباب للانضمام إلى صفوفها وتبنّي إيديولوجيتها الدموية والتدميرية تجاه أعدائها، وقلّص الخلافات العقائدية بينها وبين مخالفيها من بعض علماء الجهادية السلفية. فالشيخ أبو محمد المقدسي، على سبيل المثال لا الحصر، أوقف انتقاداته لها، وطالب بتوحيد صفوف "الجهاديين" في مواجهة الحلف "الصهيوأميركي"، ووصف الدول الغربية التي "تقاتل" الدولة الإسلامية تحت لواء هذا الحلف بأنها "مرتدة". وسمعنا عن مبادرات لدمج الدولة الإسلامية وجبهة النصرة في تنظيم واحد ولكن هذه المبادرات لم يكتب لها النجاح، ومثل هذه المواقف القوية هي التي أعادت الشيخ المقدسي إلى السجن مجدداً.

ويشكل المقاتلون "الأجانب" جانباً مهماً في تركيبة "الدولة الإسلامية" وهيئاتها الإدارية والقتالية، وينقسم هؤلاء إلى قسمين، الأول عماده المقاتلون العرب والمسلمون، والقسم الثاني يتعلق بالمقاتلين القادمين من دول أوروبية وغربية. ويحتل السعوديون النسبة الأكبر بين العرب والمسلمين حيث يزيد عددهم عن سبعة آلاف مقاتل، يليهم التونسيون وعددهم

خمسة آلاف مقاتل، وأقلهم الفلسطينيون من الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ حيث لا يزيد عددهم عن عشرين مقاتلاً.

أما بالنسبة إلى المقاتلين القادمين من دول غربية فهناك تقديرات تقول إن عددهم حوالي خمسة آلاف، حوالي ألف منهم من بريطانيا وحدها، واتخذت الدول الغربية إجراءات مشددة لمنع تدفق مواطنيها إلى جبهات القتال في سورية والعراق والانضمام إلى الجماعات الإسلامية المتشددة، من بينها إسقاط الجنسيات عنهم.

وتنحصر مخاوف الدول الغربية من أمرين، الأول عودتهم إلى بلدانهم والإقدام على أعمال "إرهابية" داخلها على غرار هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠١ أو تفجيرات محطة قطارات مدريد عام ٢٠٠٤ أو مترو أنفاق لندن في تموز/ يوليو عام ٢٠٠٥. مثلما تخشى هذه الدول أن تتطرف جالياتها الإسلامية وتقدم بعض جماعاتها على أعمال عنف وإرهاب كردّ انتقامي على تدخل الدول الغربية في الحرب ضد الدولة الإسلامية. وقد خصصنا فصلاً كاملاً لهذا الموضوع.

هل كان إخوانياً؟

السؤال الأخير، ونؤكد أنه الأخير، الذي لا يمكن تجاهله هو حول كيفية صعود نجم هذا الرجل الغامض الهادئ المبتعد عن الأضواء وقليل الكلام الذي يتزعم "الدولة الإسلامية" وأعلن نفسه خليفة على المسلمين، وتقاطر الكثيرون من قادة التنظيمات والجماعات الجهادية لتقديم البيعة له؟

الإجابة ليست على هذه الدرجة من البساطة، وللوصول إليها التقينا بالعديدين من الذين رافقوا الرجل (أبو بكر البغدادي) في رحلته في "عالم الجهاد" حسب توصيفهم، ابتداءً من جيرانه وأقرانه وزملائه في جامعة صدام للعلوم الإسلامية التي درس فيها العلوم الشرعية وحصل على درجة الدكتوراه منها، وفي مقر إقامته في حي الطوبجي في بغداد، وأجمع هؤلاء (رفضوا جميعاً ذكر أسمائهم) أنه لم ينضم مطلقاً إلى جماعة "الإخوان المسلمين" وكان يكفّرهم ويعتبرهم خارجين عن الملة، وازدادت كراهيته للحزب الإسلامي الذي يشكّل المظلة للإخوان المسلمين في العراق بعد دخوله في شخص رئيسه طارق الهاشمي العملية السياسية التي انبثقت من رحم الاحتلال العراقي وتوليه منصب نائب رئيس الجمهورية في العراق.

السيد البغدادي كان يميل دائماً إلى السلفية الجهادية ويتحدث عنها بصفة دائمة في محاضراته التي كان يلقيها على زملائه المعتقلين في سجني "بوكا" و"أبو غريب".

وكان الشيخ يوسف القرضاوي، رئيس هيئة كبار العلماء المسلمين، قد ذكر في أحد تصريحاته أن السيد البغدادي كان عضواً في حركة "الإخوان المسلمين"، ولكنه عاد ونفى هذه المعلومة نفياً قاطعاً. ولا بد أن هناك من لفت نظره إلى هذه المسألة وحثّه على التراجع.

وفي هذا الكتاب خصصنا فصلاً كاملاً للحديث عن شخصية السيد البغدادي ورحلته مع الفكر الجهادي وكيفية انضمامه إلى مجلس شورى المجاهدين، وصعوده إلى قمة زعامة الدولة الإسلامية في العراق، وبعدها في العراق والشام. كما تناولنا في فصل آخر آلية عمل الدولة الإسلامية وهيكلها الإداري والتنظيمي والعسكري، وأسباب تمددها في جميع الاتجاهات في زمن قصير.

ربما يلاحظ البعض أنني استخدمت اسم "الدولة الإسلامية" سواء على غلاف الكتاب أو في جميع فصوله، ولم أستخدم مطلقاً مصطلح "داعش" الرائج حالياً في بعض الصحف والمجلات والمواقع ومحطات التلفزة العربية هذه الأيام، والسبب في ذلك أن الطرف المعني، أي "الدولة الإسلامية" هو الذي اختار هذه التسمية وألغى كل ما قبلها، واحترمت رغبته جميع وكالات الأنباء والصحف العالمية مثل وكالتي "رويترز" و"الصحافة الفرنسية" وصحف كبرى مثل التايمز والغارديان والنيويورك تايمز والايكونومست.

فالمهنية والموضوعية تفرضان هذا النهج، وقد اعترض عليّ أحدهم في أحد البرامج التلفزيونية واتهمني بـ"تمجيد" "الدولة الإسلامية" باستخدام هذا الاسم، وليس "داعش"، فقلت له: أنت اسمك "سلمان"، فهل تقبل مني أن أخاطبك بـ"عمر" مثلاً؟ فالتزم الصمت المطلق ولم يرد.

لقد حرصت أثناء تأليفي هذا الكتاب أن أعتمد الحياد والحقائق والموضوعية العلمية، وأن أبتعد عن النغمة السائدة حالياً، أي الهجوم أو الدفاع تجاه هذا الموضوع الشائك، واخترت "خط الوسط"، الذي لا أحبّذه في حياتي العامة، حتى أقدّم للقارئ صورة أقرب إلى الحقيقة.

في الختام نقول إن تأليف هذا الكتاب كان من أكثر المهام صعوبةً في حياتي المهنية ليس بسبب حساسية الموضوع وتضارب الآراء حوله بسبب جدليته وإشكاليته، وإنما أيضاً بسبب المتغيرات المتسارعة في المشهدين السياسي والعسكري وتلاحق الأحداث بشكل يجعل عملية الرصد والتحليل وقراءة السطور وما بينها شاقة للغاية.

أتمنى أن أكون قد وفقت، ولو في الحد الأدنى، في هذه المهمة، وأن ينال هذا الجهد إعجابكم، أو الحد الأدنى منه، وإن لم يكن هذا هو الحال فإنني أكتفي بأجر المجتهدين.

عبد الباري عطوان

الفصل الاول

هيكلية الدولة ورجالها

شكّل الظهور المفاجئ لـ"الدولة الإسلامية" على الساحة الجيوسياسية أكبر ثورة يشهدها الشرق الأوسط منذ اتفاقات سايكس - بيكو المشؤومة عام ١٩١٦ التي قسّمت سوريا الكبرى إلى دول عدة. بل يمكن القول إن ظهور هذه "الدولة" يتجاوز في أهميته "الربيع العربي" لأنه، كالبركان الذي يثور تحت البحر، أنتج جزيرة جديدة في وسط بحر هائج هو الشرق الأوسط الحالي.

واللافت أن السياسيين ووسائل الإعلام العالمية، ومعهم حكومتا العراق وسوريا أيضاً، لم يعطوا بعد ظاهرة إنشاء "الدولة الإسلامية" العناية والمصداقية التي تستحقها، وكأنها ما زالت مجموعة مسلحة لم تسيطر على مساحات شاسعة من الأرض وليست لديها طموحات توسعية، وما زالوا يُطلقون عليها مسمّى "ما يُعرف بالدولة الإسلامية".

سنناقش في هذا الفصل المعايير التي تقوم على أساسها الدول، وسننظر في ما إذا كانت "الدولة الإسلامية" لديها هذه المقومات. سننظر أيضاً إلى منشأ الخلافة، وكيفية إدارة "الدولة الإسلامية" حالياً. سنحدد أيضاً الأحداث الأساسية في عملية انتقالها السريع من قوة مقاتلة إلى كيان سياسي.

ما هي "الدولة"؟

يقدّم القانون الدولي معياراً بسيطاً نسبياً لقيام "دولة" ما. فمعاهدة مونتيفيديو للعام ١٩٣٣ الخاصة بحقوق الدول وواجباتها تنصّ على أن هناك نوعين من الدول: نوع يتم "الإعلان"

عن نشوئه، ونوع يتم "تأسيسه". النوع الأول يشترط أنه من أجل إعلان كيان ما أنه صار دولة فإنه يجب أن تكون لديه حدود محددة بوضوح، ومواطنون يعيشون في شكل ثابت على أرضه، وحكومة قادرة على ممارسة سلطاتها على شعبها وأراضيها ومواردها. وإضافةً إلى ذلك، وهذا أمر بالغ الصلة بنقاشنا هذا، تحدد معاهدة مونتيفيديو أيضاً أن الدولة التي يتم "الإعلان" عنها تكون موجودة بغضّ النظر عن اعتراف الدول الأخرى بها. في المقابل، فإن الدولة التي يتم "تأسيسها" تتطلب اعترافاً من الدول القائمة، وهذا أمر تبيّن أنه متعذّر تطبيقة، إذ ليس هناك جسم رسمي عالمي لديه السلطة للاعتراف بالدول نيابةً عن العالم كله (الأمم المتحدة لا يمكنها ذلك) كما يمكن الوصول إلى وضع شاذ وغريب بحيث يتم الاعتراف بكيان بوصفه دولة من قبل بعض الدول ولكن ليس من بعضها الآخر (كوضع دولة إسرائيل على سبيل المثال). والمتعارف عليه عالمياً أن السلطة التي تمارسها حكومات الدول التي يتم إعلان قيامها تتضمن إنشاء نظام قضائي وأن تكون لها القدرة على إقامة علاقات دولية مع دول خارجية. لكن ليس هناك تحديد لنوع الدستور في الدولة التي يتم إعلانها أو تأسيسها، وإن كانت دول عالمنا هذا تحفل بأنظمة حكم مختلفة: ديموقراطية أو دينية، ديكتاتوريات وملكيات.

وفي حالة "الدولة الإسلامية" فإنها قد أعلنت عن نشوئها على مساحة توازي مساحة المملكة المتحدة، وتمتد عبر أراض شاسعة على جانبي الحدود في كلٍّ من العراق وسوريا. ولدى هذه "الدولة" أكثر من ستة ملايين من المواطنين الثابتين في أرضهم (القانون الدولي لا يتحدث عمّا إذا كان المواطنون الثابتون في أرض الدولة يقيمون بحريتهم أو رغماً عنهم) - أي أن سكان "الدولة الإسلامية" يتجاوز عددهم عدد سكان بعض الدول الأوروبية مثل الدنمارك وفنلندا. ولدى "الدولة الإسلامية" حكومة تحكم وفق تفسيرها لتعاليم الشريعة والتقاليد الإسلامية ويقودها "خليفة".

ومن غير المرجّح أن تكون "الدولة الإسلامية" مهتمة كثيراً بما يتطلبه القانون الدولي وبمبادئه، لكنها مهتمة، بلا شك، بمبادئها هي وبالتحديد بمفهوم الخلافة السنية.

وينظر السلفيون إلى التاريخ بوصفه ينقسم إلى فترة جاهلية تتلوها مرحلة الإسلام. وهم يؤمنون بأن العالم يعيش في حالة جاهلية لا يمكنه الخروج منها سوى عبر ثلاث خطوات: الإيمان (أي الإسلام بالمفهوم السلفي)، الهجرة (أي هجرة المسلمين من الدول الكافرة إلى "مجتمع المؤمنين")، والجهاد (من أجل إقامة "الدولة الإسلامية" لـ"الأمة"). وغالباً ما تركّز المواقف الدعائية لـ"الدولة الإسلامية" على هذه المراحل الثلاث، وهذا ربما يفسّر لماذا تهاجر هذه الأعداد الكبيرة من المقاتلين الأجانب إلى سوريا والعراق حيث تقوم الماكينة الإعلامية لتنظيم "الدولة" بتصويرهم أحياناً وهم يحرقون أو يمزقون جوازات سفرهم فور

وصولهم إلى دولة "الخلافة". وكما دللت في كتابي الأخير، **ما بعد بن لادن: القاعدة، الجيل التالي**، فإن الجهاديين العالميين كانوا يركزون في شكل لافت على أهمية "الهجرة" على مدى أكثر من عقد من الزمن. وواضح اليوم أن البغدادي وأتباعه يؤمنون أن المراحل الثلاث لإعادة إنشاء الخلافة بلغت الآن مراحل متقدمة جداً إلى الدرجة التي تسمح لهم وبثقة بإعلان قيام "الدولة الإسلامية" (على رغم أن منظمات منافسة مثل "القاعدة" تعتقد، كما رأينا، أن هذا الإعلان سابق لأوانه).

منشأ الخلافة

يعني "الخليفة" حرفياً خليفة الرسول، وهو رأس الدولة الذي لا منازع له. بعد وفاة النبي محمد قامت الخلافة الراشدة على أيدي أتباعه وأفراد من عائلته من أجل مواصلة العمل بالنظم الدينية والقضائية والاجتماعية التي أقامها. كان الخليفة الأول أبو بكر الصديق، وهو من رشح خليفته (عمر بن الخطاب) وهو على فراش الموت. بعد عمر تولى الخلافة عثمان بن عفان الذي انتخبه مجلس، لكنه اغتيل على أيدي جماعة متمردة على حكمه، فأعلن علي بن أبي طالب نفسه خليفة. وقد وقعت آنذاك حرب أهلية بين المسلمين تُعرف بـ"الفتنة" نتيجة الخلاف على من يتولى الخلافة، ومنذ ذلك التاريخ بدأ الانشقاق السني – الشيعي حيث بات الذين "شايعوا علياً" يُعرفون بـ"الشيعة" منذ ذلك الوقت.

الخليفة الجديد، معاوية بن أبي سفيان، الحاكم آنذاك على سوريا وأحد أنسباء الخليفة السابق عثمان، كان من أسس لمبدأ توارث الخلافة التي حكمها بنو أمية من العام ٦٦١ إلى العام ٧٥٠. وتميّز حكم الأمويين بتوسع سريع عبر ثلاث قارات (أفريقيا وآسيا وأوروبا) إلى أن أصبحت الخلافة الأموية واحدة من أكبر الدول الموحّدة في التاريخ. وتطمح "الدولة الإسلامية" الحالية إلى إعادة أمجاد المسلمين من خلال استعادة سيطرتهم على كل أراضي الخلافة الأموية.

بدورها، تُعتبر الخلافة العباسية التي أطاحت الخلافة الأموية عام ٧٥٠ "العصر الذهبي" للإسلام، كونها كانت غنية بالإنجازات والابتكارات الثقافية والفكرية والعلمية. ويشير زعيم "الدولة الإسلامية" أبو بكر البغدادي تكراراً إلى هذه الحقبة من التاريخ الإسلامي بوصفها مثالاً يُحتذى. وكانت أسرة العباسيين تتحدر من مكة وقد أنتجت سلالة من الخلفاء بلا انقطاع طوال ٣٠٠ سنة قبل أن يبدأ حكام الأقاليم في أنحاء متفرقة من الإمبراطورية العباسية الضخمة في الثورة على الحكومة المركزية من أجل الحصول على مزيد من الاستقلالية، فبدأت الخلافة الموحدة تتفكك وتنشأ ضمنها حكومات إقليمية يقودها ملوك أو سلاطين.

ويرمز "أبو بكر البغدادي الحسيني القرشي"، الخليفة المعلن من قبل "الدولة الإسلامية" الحالية، إلى تاريخ أنظمة الخلافة السابقة من خلال اختياره لتركيبة اسمه الرسمي. فكما رأينا، اسمه في الولادة إبراهيم بن عواد بن إبراهيم البدري القرشي. وفي حين أن كنية أبو بكر هي للخليفة الأول ضمن الخلفاء الراشدين، فإن الحسيني قد تشير إلى الإمام الحسين، حفيد الرسول. أما قريش فهي القبيلة التي ينحدر منها النبي محمد، علماً أن الرأي الشائع لدى شرائح من المسلمين تقول إن "الخلفاء الحقيقيين" يأتون بدورهم من هذه القبيلة وينتسبون بصلة نسب للرسول.

إدارة "الدولة الإسلامية"

تقوم هيكلية الإدارة ومركز صنع القرار التي اعتمدها البغدادي (أو "الخليفة إبراهيم" بحسب ما يعرفه أتباعه) على تكرار سابقة تاريخية إلى حدٍّ كبير. فهذه البنية الإدارية مألوفة لدارسي تاريخ حركة "طالبان" وتنظيم "القاعدة" وجماعات شبيهة بهما مثل "حركة الشباب" الصومالية.

والخليفة، بوصفه ممثلاً للرسول، يُعتبر السلطة العليا في "الدولة الإسلامية"، كما أن لكل ولاية والٍ يعينه البغدادي. وللخليفة نائب هو أبو مسلم التركماني (يُعرف أيضاً باسم فضل أحمد عبدَ الله الهيالي) الذي كان عقيداً في الاستخبارات العسكرية في جيش صدام حسين، ويُعتقد أنه المشرف على الولايات العراقية في "الدولة الإسلامية".

وتحت البغدادي مجالس متعددة تشرف على أوجه مختلفة من أوجه إدارة "الدولة"، علماً أن المهمات الإدارية توكل إلى إدارات محددة تتولاها لجان.

يتولى المجلس العسكري، الذي يعيّنه الخليفة، ويقوده أبو أحمد العلواني، مسؤولية الإشراف على الاستراتيجية العامة لـ"الدولة"، وتوزيع جنودها، وتعيين قادتها العسكريين.

أما مجلس الشورى فيتولى تقديم النصح للخليفة ويشرف على شؤون الدولة، ويتألف من قرابة ١٢ عضواً يختارهم البغدادي، ويقودهم أبو أركان العامري.

والمجلس الشرعي يتعامل، في المقابل، مع الشؤون القضائية لـ"الدولة"، ويقيم نظام المحاكم، ويعيّن القضاة، ويتولى توضيح الرأي الشرعي (الفتوى) في مسألة تطبيق العقوبات المنصوص عليها في القرآن. وليس من المستغرب أن الإعلام الغربي يركّز على التطبيق البالغ القسوة لعقوبة الحدّ (مثل قطع الأطراف والإعدام وغيرها من العقوبات)، لكن القضاة الشرعيين في "الدولة الإسلامية" يمكنهم أيضاً تطبيق عقوبة التعزير التي تسمح بفضح شخص مرتكب لجرم على أمل إصلاحه وإعادة تأهيله ليكون إنساناً صالحاً. وهذا لا يعني، بناءً

على الأدلة المتوافرة، أن تفسير "الدولة الإسلامية" لنظام العقوبات الإسلامي لم يكن بالغ القسوة، لكن أسباب هذه القسوة عالجناها في فصل "إدارة التوحش". كما أن المجلس الشرعي في "الدولة الإسلامية" يضمن "نقاء" الدين في داخل أراضي الدولة من خلال سيطرته على المساجد، مثلاً، وقيامه بحملات نشر الملصقات في الشوارع والتي تقدم المواعيد الدقيقة لأداء الصلوات الخمس يومياً، ونشر آيات قرآنية تحض النساء على ارتداء الزي الشرعي. وتخضع الشرطة الدينية للمجلس الشرعي، وتعمل على ضمان ارتداء الزي الإسلامي "الصحيح" وحسن التصرف في شوارع "الدولة". وبحسب معلومات متوافرة فإن في الرقة، على سبيل المثال، جهاز شرطة نسائية من "كتيبة الخنساء" يتولى فرض هذه المهمة والتفتيش عن أعداء متخفين ربما تحت النقاب.

ويشرف مجلس الشورى أيضاً على توفير الخدمات الأساسية الصحية والاجتماعية بما في ذلك "مكتب اليتامى"، ومطاعم توفير الغذاء للمعوزين، وبرامج التلقيح. كما أن هناك صناديق لتلقي "الاقتراحات والشكاوى" - علماً أن هذه الفكرة من اختراع حركة "طالبان" التي بدأت تطبيقها قبل سنوات بهدف التقرب أكثر من الأفغان وحلّ مشاكلهم. وتؤدي الشكاوى أحياناً إلى إغلاق محلات وأكشاك في الأسواق ومتاجر لبيع الأطعمة إذا ما تبيّن أنها تبيع مواد منتهية الصلاحية أو رديئة.

ويلعب مجلس الدفاع والأمن والاستخبارات دوراً مهماً في المحافظة على سلامة أراضي دولة "الخلافة". ويشرف هذا المجلس على قوات الشرطة (التي تسيّر دوريات مدنية ودينية ولها هيئات لتنفيذ القانون)، كما يشرف على عمليات جمع معلومات الاستخبارات، وعلى أمن الخليفة، وعلى الحواجز ونقاط التفتيش الحدودية. والقادة الأربعة الأساسيون في هذا المجلس كانوا ضباطاً رفيعي المستوى في الجيش العراقي خلال حكم صدام حسين.

أما المجلس الاقتصادي فيعنى بالمدخول الضخم الذي تجنيه خزينة "الدولة الإسلامية" من عائدات النفط، والضرائب التي يتم جنيها على الحواجز، ومن الإتاوات (التي غالباً ما يتم جنيها نتيجة توفير "الحماية" للمؤسسات التجارية)، وأيضاً من غنائم الحرب. كما يشرف المجلس على إدارات مسؤولة عن المحافظة على البنى التحتية وتشغيلها بما في ذلك إصلاح الطرق وتأمين التغذية بالطاقة وجمع القمامة وخدمات البريد وغيرها.

أما المجلس التعليمي فيشرف على التعليم في أراضي "الدولة الإسلامية" والمناهج المطبقة اعتماداً، بالطبع، على التفسير السلفي الصارم للقرآن الكريم. ويتم بموجب هذا المنهاج حذف بعض المواد بما فيها نظرية التطور والنشوء في علم الأحياء والفلسفة. وبحسب اتصالاتنا مع سكان يعيشون في أراضي "الدولة" فإنها، بعكس ما أوردته وسائل إعلام غربية، لم تمنع تعليم البنات بل اعتبرت أن التعليم المختلط حرام.

أما مؤسسة الإعلام العمومي في "الدولة الإسلامية" فإنها ربما تُقاد من أهم الشخصيات في هذه الدولة بعد الخليفة إبراهيم ونائبه. وكان القائد السابق لـ"الدولة الإسلامية في العراق والشام" داخل الأراضي السورية أبو محمد العدناني الشامي، البالغ ٣٧ سنة والمتحدر من إدلب، هو الناطق الإعلامي الأساسي باسم الخليفة. والعدناني مسؤول عن بعض أهم الإنتاجات الدعائية التحريضية الصادرة عن "الدولة الإسلامية"، بما فيها خطاب بتاريخ ٢٢ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٤ الذي حضّ فيه الجهاديين الفرادى (أو ما يُعرف بـ"الذئب الوحيد") في الغرب على أن يقتلوا "بأي طريقة تختارونها" مواطني الدولة التي يعيشون فيها إذا ما دخلت في إطار التحالف الذي تشكل لقتال "الدولة الإسلامية". وذهب العدناني إلى حدّ اقتراح استخدام السيارات لدهس الأعداء.. وبعد أسابيع قليلة فقط وقع هجومان في كندا (تم أحدهما باستخدام سيارة دهست جنديين مات أحدهما) وهجمات أخرى في الولايات المتحدة. كما تم إحباط مؤامرات أخرى لخلايا وأشخاص في أستراليا والمملكة المتحدة ودول أوروبية.

تشرف على إدارة عجلة الحياة اليومية في "الدولة الإسلامية" سلسلة دوائر تديرها لجان. وهذا ليس بالشيء الغريب كون جماعات جهادية على نسق القاعدة لديها هيكلية إدارية مماثلة. وقد تلقت صحيفة **ديلي تلغراف** لائحة بوظائف يشغلها أشخاص بارزون في "الدولة الإسلامية"، وقد أطلقت عليهم اسم "وزارة" بحسب مصدر في الاستخبارات الأميركية:

- **الوزارة (أو الحكومة)**

(الكنية، الاسم الحقيقي، الوظيفة)

١- أبو بكر قادر، شوكت حازم الفرحات، مسؤول الإدارة العامة.

٢- أبو محمد، بشر إسماعيل الحمداني، مسؤول السجناء والمعتقلين.

٣- أبو لؤي المعروف بـ أبو علي، عبد الواحد ختماير أحمد، الأمن العام.

٤- أبو صلاح، موفق مصطفى محمد الكرموش، المحاسب العام.

٥- أبو هاجر العسافي، محمد حامد الدليمي، المنسق العام بين الولايات.

٦- أبو قاسم، عبد الله أحمد المشهداني، ملف العرب والجهاديين الأجانب الواصلين إلى "الدولة" ومسؤول "نقل المفجرين الانتحاريين".

٧- أبو عبد الرحمن البيلاوي، عدنان إسماعيل نجم البيلاوي، المسؤول السابق عن المجلس العسكري (قُتل).

- المكتب الحربي

١- أبو شيماء، فارس رفاعة النعيمة، حرس المخازن.
٢- أبو سُجى، عبد الرحمن العفري، منسق الشهداء والنساء.
٣- أبو كفاح، خيري عبد محمود الطائي، العمليات التي تُستخدم فيها العبوات الناسفة والألغام.

- الولاة

(جميعهم تحت سلطة الأنباري والتركماني)
١- وسام أبو زيد الزبيدي (أبو نبيل)، ولاية صلاح الدين.
٢- نمر عبد اللطيف الجبوري (أبو فاطمة)، كركوك.
٣- أحمد محسن خلال الجحيشي (أبو فاطمة)، الفرات الجنوبي والأوسط.
٤- رضوان طالب حسين الحمدوني (أبو جمعة)، حدود "الدولة الإسلامية".
٥- عدنان لطيف حميد السويداوي (أبو عبد السلام أو أبو محمد السويداوي)، ولاية الأنبار، عضو في المجلس العسكري، عقيد سابق في الجيش العراقي.
٦- أحمد عبد القادر الجازا (أبو ميسرة)، ولاية بغداد.

التداعيات السياسية لـ"الدولة الإسلامية"

في آب/ أغسسطس ٢٠١٤ أيقن المجتمع الدولي، متأخراً، أن رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي - الذي دعمته الولايات المتحدة بحماسة - كان في الواقع جزءاً من المشكلة بدل أن يكون حليفاً يساعد في الحل. فسياسته المذهبية المثيرة للانقسام وتهميشه للسنّة العراقيين أوجدتا نزاعاً مدنياً في البلد سمح لـ"الدولة الإسلامية في العراق والشام" ليس فقط بأن تنتعش بل أن تكون موضع ترحيب واسع في العديد من المدن والقرى السنية.

فعلى مدى ولايتين متتاليتين كان المالكي رجل إيران في العراق، إذ دعمته طهران وضمنت بقاءه السياسي. في المقابل وضعت السعودية، عدوة إيران الإقليمية، "فيتو" على المالكي، رافضةً أن تتعامل معه ومع حكومته بأي شكل من الأشكال.

انتهى دور المالكي ما أن دخل جيش "الدولة الإسلامية" إلى قلب الموصل وألحق هزيمة مذلة بـ٣٠ ألف جندي في الحكومة العراقية. فسارع الرئيس العراقي الجديد فؤاد معصوم،

وبتنسيق مع الولايات المتحدة وايران والتحالف الشيعي، إلى استبدال المالكي وعيّن في مكانه شخصية أخرى من حزبه (حزب الدعوة) هو حيدر العبادي. بعد طول تردد، استقال المالكي، في ١٤ آب/ أغسطس ٢٠١٤، فاتحاً المجال أمام انتقال السلطة إلى العبادي الذي عاش، مثل المالكي، قرابة ربع قرن في المنفى خارج العراق – أقام تحديداً في بريطانيا التي كانت الوجهة المفضلة للعديد من المعارضين العراقيين خلال حكم صدام حسين، وكان ينتمي الى "حزب الدعوة" نفسه الذي ينتمي اليه المالكي.

اتّخذت السياسات الإقليمية، لأكثر من عقد من الزمن، بناءً على الهوة التي تزداد اتساعاً بين السنّة والشيعة. وفي السنوات القليلة الماضية اختارت القوى الإقليمية والقوى العظمى الدولية أن تقف إما في صف الكتلة السنّية – وعلى رأسها القوة الإقليمية، المملكة العربية السعودية، مدعومة من الولايات المتحدة وأوروبا ودول الخليج ومصر ولبنان والأردن وتركيا – أو في صف الكتلة الشيعية – وعلى رأسها القوتان الإقليميتان إيران وسوريا، مدعومتين من "حزب الله" اللبناني وروسيا والصين. بلغت هذه التحالفات مرحلة استقطاب بالغة الخطورة وكانت من الممكن أن تقود إلى حرب عالمية ثالثة: أولاً بسبب أزمة الطموحات النووية الإيرانية، وثانياً بسبب الأزمة السورية. لكن ظهور "الدولة الإسلامية" على المسرح أحدث تصدعاً في هذه النماذج من التحالفات وقلب السياسات الإقليمية رأساً على عقب. وكنتيجة لذلك، لم يتمكن القادة الإقليميون والدوليون من تحديد السياسة التي يتعين عليهم اتباعها.

فإيران – القلقة من تقدم "الدولة الإسلامية" صوب حدودها – أيقنت أن تنظيم أي دفاع فعال في مواجهة مقاتلي "الخليفة" أبو بكر البغدادي سيحتاج إلى تعاون من كل القوى الإقليمية، بالإضافة إلى تدخل من المجتمع الدولي. لكن مثل هذا الأمر سيعني رؤية الولايات المتحدة والسعودية في خندق واحد مع عدوتهما اللدود إيران. وعلى رغم أن مثل هذا السيناريو لم يتحقق حتى تاريخ إعداد هذه الكتاب، إلا أنه يبدو من المحتم أن الرئيس السوري بشار الأسد – الذي عارضته الكتلة السنّية مجتمعةً وأرادت قلبه – سيكون من المطلوب إشراكه في القتال ضد "الدولة الإسلامية".

وإضافةً إلى الخطر على سلامة أراضي الدول المحاذية للعراق وسوريا (الأردن والكويت والمملكة العربية السعودية)، فإن الأنظمة السنّية الإقليمية تخشى بالتأكيد من تمدد أيديولوجية "الدولة الإسلامية" وسياساتها إلى داخل أراضيها، وما يشكله هذا من تهديد لتحكمها بالسلطة.

والواقع أن "الدولة الإسلامية" ليست كلياً بلا شعبية. ففي بعض المدن والقرى في العراق وسوريا تم الترحيب بمقاتليها (على الأقل حالياً) بوصفهم أبطالاً، بعدما تمكنوا من هزيمة جيوش نظامية أكثر منهم عدداً، وحرروا السنّة من الهيمنة الشيعية (بحسب رؤيتهم) ووفروا

الخدمات الاجتماعية والمواد الغذائية بأسعار مخفضة للمواطنين.

ومثل الدولة الغربية، كانت حكومات الكتلة السنّية تأمل بأن المعارضة السورية "المعتدلة" ستتمكن، بدعم محدود، من تجاوز عقبة "الدولة الإسلامية"، غير أن هذا لا يبدو أنه ممكن الحدوث. وإذا ما وُضعت بالفعل على الرف خطط إطاحة الأسد - الذي يُحمّل مسؤولية مقتل ٢٠٠ ألف سوري حتى الآن في النزاع الدائر في بلده منذ العام ٢٠١١ - فإن هذه الدول يمكن أن تواجه خطر احتجاجات داخلية وستكون دول الخليج تحديداً قد أنفقت، بلا طائل، ملايين الدولارات التي ضختها في تمويل "المعتدلين" وتسليحهم.

وتواجه تركيا ورطة مماثلة. فمشاركتها في قتال "الدولة الإسلامية" سيخدم الأسد الذي تعارضه أنقرة بضراوة، لأسباب عديدة بينها ما هو مذهبي.

بل إن موقف السعودية يبدو الأكثر تعقيداً. فهي تطمح إلى زوال تنظيم "الدولة الإسلامية" لأنها تخشى أنها موضوعة على قائمة "أهدافه"، لكنها، في الوقت ذاته، إذا ساهمت في الحرب ضد أعدائها من المتشددين السنّة فإنها تكون تخدم عدوتها الإقليمية إيران.

التدخل العسكري للتحالف

انتظرت الولايات المتحدة حتى أصبحت أربيل مهددة بالسقوط بأيدي "الدولة الإسلامية" لتأخذ قرار التدخل العسكري في آب/ أغسطس، وبدأت متأخرةً وهي تدقّ طبول الحرب داعيةً إلى تكوين تحالف دولي جديد من أجل "تقليص وتدمير" الدولة الإسلامية. ولكن قبل سبعة شهور فقط من ذلك كان الرئيس أوباما لا يزال يصف تنظيم "الدولة الإسلامية في العراق والشام" بأنه كناية عن مجموعة من اللاعبين الجامعيين "المبتدئين" في كرة السلة، متصوراً أنهم مجرد فرع متمرد من فروع "القاعدة". وحتى عندما قطع تنظيم "الدولة" رأسي صحافيين أميركيين وواصل تمدده مثل بقعة الحبر في شمال سوريا مسيطراً على قرية تلو القرية بدون مقاومة تُذكر، بدا أوباما هادئاً وغير مستعجل، علماً أنه كان قد أقرّ قبل أسبوعين فقط بأن ليس لدى الولايات المتحدة بعد "استراتيجية جاهزة" ضد "الدولة الإسلامية".

تحيّن الرئيس الفرنسي فرنسوا هولاند الفرصة وأخذ زمام المبادرة الديبلوماسية وطار إلى بغداد، ثم رأس، بالاشتراك مع الرئيس العراقي فؤاد معصوم، مؤتمراً استضافته باريس وحضره وزراء من ٢٠ دولة. قال هولاند إن "التهديد عالمي... والرد يجب أن يكون عالمياً أيضاً". ووافقت ١٠ دول عربية فوراً على الالتحاق بالمبادرة الدولية، ثم تشكل "تحالف الراغبين" ليضم ٤٠ دولة واستعادت من خلاله الولايات المتحدة زمام القيادة.

أدى التدخل الأميركي إلى نتائج فورية، إذ تراجعت "الدولة الإسلامية" عن أراضٍ تسيطر

عليها حول أربيل. والأهم أن سدّ الموصل ذا الأهمية الاستراتيجية تم انتزاعه من أيدي "الدولة" بعد معركة عنيفة. وكان مقاتلو "الدولة" قد هددوا بتفجير السد، الأمر الذي كان سيؤدي، لو حصل، إلى نتائج كارثية، بما في ذلك إبادة قرابة ٢٥٠ ألف شخص من سكان المناطق المهددة إذا انهار السد. لكن على رغم هذا التراجع لـ"الدولة الإسلامية" فإن على الولايات المتحدة وحلفائها أن يتذكروا أن في المعارك السابقة ضد "القاعدة" كان الجهاديون يتميزون بانسحابهم السريع من المعارك التي لا يمكن الفوز بها، ما يسمح لهم بإعادة توزيع طاقاتهم على جبهات أخرى. وهذا تحديداً ما حصل مع "الدولة الإسلامية" التي انتقلت لتدعيم مكاسبها في أماكن أخرى من أراضي "الخلافة"، فسيطرت على مطار الطبقة في سوريا، آخر معاقل نظام الأسد في ولاية الرقة، بعد أيام من سيطرتها على قاعدة عسكرية في الولاية ذاتها حيث استولت، كما ذُكر، على صواريخ أرض - جو قادرة على إسقاط ليس فقط الطائرات بلا طيار والمروحيات بل أيضاً الطائرات المقاتلة. ومن هناك واصلت "الدولة الإسلامية" زحفها في ولاية حلب.

لم يجد الخبراء العسكريون، الإقليميون والغربيون، صعوبةً في الاتفاق على أن التصدي لـ"الدولة الإسلامية" يجب أن يتم في العراق وسوريا في الوقت ذاته، كما أنهم اتفقوا على أن الغارات الجوية لن تكفي وحدها لتحقيق هدف هزيمة "الدولة". ففي حملات مماثلة في أفغانستان واليمن وباكستان وجّه عناصر على الأرض الضربات بطائرات "الدرون" والغارات بالطائرات المقاتلة. لكن هنا لم تبادر أي دولة غربية إلى التبرع بإرسال جنود للقتال على الأرض، في حين امتنعت مصر وتركيا عن تعريض قواتهما لاحتمال إلحاق خسائر بشرية بها على أيدي "برابرة الدولة الإسلامية" إذا لم تساهم الدول الغربية أيضاً بأعداد مماثلة من الجنود. كما أن "الدولة الإسلامية" تبدو متمرسة ومتأقلمة على حروب العصابات التي تُخاض من شارع إلى شارع في مدن مكتظة بالأبنية وحيث تخاطر الغارات الجوية بأن تؤلب السكان نتيجة "الأضرار الجانبية" التي من الممكن أن تسقط جراء قصف المناطق المأهولة بالسكان.

وقد اقترحت الولايات المتحدة تحسين قدرات الجيش العراقي على القتال، ولكن ما هو الشيء الذي يمكن فعله ولم يتم القيام به خلال السنوات العشر الماضية التي درّبت فيها الولايات المتحدة ٨٠٠ ألف جندي عراقي وأنفقت من أجل ذلك ٢٥ بليون دولار؟

أما في سوريا فيسعى الغرب إلى تكرار تجربة "الصحوات" التي نجحت موقتاً في العراق في هزيمة "القاعدة" في العام ٢٠٠٦ عندما انقلب رجال عشائر وقرويون ضد الجهاديين. وقد خصصت إدارة أوباما ٥٠٠ مليون دولار من أجل تدريب وتسليح جماعات المعارضة السورية غير المتطرفة من أجل نشرها ضد "الدولة الإسلامية"، لكن المشكلة المستمرة هنا

أن أعداداً كبيرة من المقاتلين "المعتدلين" كانوا قد انشقوا والتحقوا بـ"الدولة الإسلامية" التي يرونها أكثر نجاحاً منهم، في حين أن البقية تبدو منهكة بعد ثلاث سنوات من القتال. وإضافةً إلى ذلك، فإن "الجيش السوري الحر" - أكبر مظلة لتجمع ميليشيات المعارضة "المعتدلة" - يواجه خلافات داخلية ومزاعم بالفساد تؤثر سلباً على أدائه.

واللافت أن الأسد، الذي يدري أن إعادة تأهيله في المجتمع الدولي تكمن في تعاونه من أجل هزيمة "الدولة الإسلامية"، سمح للولايات المتحدة بارسال طائرات تجسس واستطلاع فوق الأجواء السورية، ثم لطائرات "الدرون" المسلحة والمقاتلات الحربية التي قامت بعمليات قصف لمساعدة المقاتلين الأكراد المدافعين عن مدينة عين العرب (كوباني). وعلى رغم أن الولايات المتحدة نفت أن تكون قد سعت إلى الحصول على موافقة من الأسد، إلا أن حقيقة أن هذه الغارات لم تلقَ احتجاجاً من النظام توحي بأن هناك اتفاقاً خفياً. وبالتأكيد فإن البنتاغون لن يخاطر بإرسال طائرات يقودها طيارون فوق الأجواء السورية إذا لم يكن متأكداً من أن هناك تصريحاً لهم بالطيران.

لكن تدخل التحالف يخاطر بجعل "الدولة الإسلامية" أكثر شعبية وأكثر قوة. فهناك منظرون جهاديون بارزون مثل أبو محمد المقدسي وأبو قتادة، اللذين كانا معارضين علناً لـ"الدولة الإسلامية"، غيّرا رأيهما لأنهما لا يريدان أن يكونا في الخندق نفسه مع الغرب. وهذان الرجلان لديهما بالتأكيد نفوذ واسع، كما أن لهما أتباعاً كثراً.

وقد أظهر الغرب أن مؤسساته الاستخباراتية فشلت في رصد ما تقوم به "الدولة الإسلامية". فقد نُفّذت محاولة لإنقاذ رهائن تم خلالها إرسال قوة من الوحدات الخاصة إلى سوريا لكنها دهمت المكان الخطأ. كما أن وكالة الاستخبارات المركزية (سي آي إيه) فشلت بدورها في معرفة حجم كميات الأسلحة التي تملكها "الدولة الإسلامية" ولا حتى عدد جنودها. وقد عدّلت وكالة الاستخبارات أخيراً من تقديرها لعديد مقاتلي "الدولة الإسلامية" من ١٠ آلاف إلى ٣١,٥٠٠. لكن مصادر ثقة تقول إن الرقم الحقيقي هو بحدود ١٠٠ ألف وفي تزايد متواصل.

وحتى الآن يفتقد التحالف ليس فقط إلى خطة واستراتيجية واضحتين، بل يفتقد أيضاً إلى التزام حقيقي بعمل عسكري يمكن أن يشكل خطراً على حياة جنوده.

أغنى جماعة "إرهابية" في التاريخ

بعكس "القاعدة"، تنتج "الدولة الإسلامية" أموالها بنفسها، في حين أن أموال التبرعات لا تشكل سوى جزء صغير من مصادر دخل خزينة الحرب، وهذا يجعلها بالتالي مستقلة

في قرارها وقوية. في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٤، أشارت وزارة الخزانة الأميركية إلى أن "الدولة الإسلامية" تمكنت من "جمع ثروة بسرعة غير مسبوقة". والظاهر أنها تمكنت من تحقيق ثروتها هذه بالخصوص من خلال عائدات حقول النفط والمصافي التي سيطرت عليها، إضافةً إلى الغنائم، وتجارة السلاح التي تقوم بها، ونهب البنوك، وأموال الفدية التي تحصل عليها لقاء الإفراج عن رهائن تحتجزهم.

ومع كتابة هذا الكتاب، كانت "الدولة الإسلامية" تسيطر على ١١ حقلاً نفطياً في سوريا والعراق، وهي تبيع النفط الخام لتجار أو وسطاء يبيعونه بدورهم لجهات أخرى، عبر شبكات التهريب القديمة. كما يبدو أن ليس هناك أي شيء يمكن أن تقوم به حكومة إقليم كردستان العراق لمنع حصول "الدولة الإسلامية" على عائدات من حقول نفط تسيطر عليها في شمال العراق. وفي سوريا، يُعتبر نظام الأسد من بين زبائن "الدولة الإسلامية" منذ أن فرضت الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي حظراً على صادرات النفط السوري عام ٢٠١١، ما أدى إلى توقف إنتاج النفط.

تسيطر "الدولة الإسلامية" على كل حقول النفط الأساسية في سوريا، بما في ذلك حقل العمر، أكبر حقول النفط في البلد، الذي يُنتج ٧٥ ألف برميل في اليوم. أما في العراق فتسيطر "الدولة الإسلامية" على حقول نفط صغيرة في صلاح الدين وفي ولاية ديالى الشرقية، بما في ذلك حقول العجيل وحرمين.

وتنتج "الدولة الإسلامية" ما يُقدّر بـ ٥٠ ألف برميل يومياً في سوريا و٣٠ ألف برميل في العراق، وتبيع إنتاجها بأسعار مخفّضة – ما بين ٢٥ دولاراً و٦٠ دولاراً للبرميل الذي يمكن أن يصل سعره في السوق العالمية إلى قرابة ١٠٠ دولار. وعلى رغم هذه التخفيضات فإن مبيعات "الدولة" تعطيها مدخولاً يتراوح بين ثلاثة ملايين دولار وخمسة ملايين دولار في اليوم.

قاتلت "الدولة الإسلامية" بشراسة من أجل السيطرة على مصافي النفط في كل من سوريا والعراق. وهي تسيطر حالياً على مصفاة بيجي الضخمة في العراق ومصفاة القيارة الصغيرة قرب الموصل. وفي حين من الصعب التأكد بالتفصيل ما هي المصافي التي تسيطر أو لا تسيطر عليها "الدولة الإسلامية"، نتيجة التعتيم الذي يُفرض على هذا الموضوع، إلا أن طائرات التحالف لم تستهدف سوى المصافي الكبرى التي تسيطر عليها "الدولة". وإذا ما أُخذت هذه الغارات كمعيار، فإن "الدولة الإسلامية" تسيطر كما يبدو على ما لا يقل عن ١٢ مصفاة في سورية. وبهدف التصدي لغارات التحالف أشعلت "الدولة الإسلامية" النار في منشآت تخزين ضخمة في بيجي كانت تحوي ما يقدّر بمئة ألف برميل، ما أدى إلى اشتعال النار فيها لأيام.

المصدر الثاني الأكثر أهمية بعد النفط من مصادر دخل "الدولة الإسلامية" هو حالياً

النهب والاتجار بالمقتنيات الأثرية، وأحياناً وفق نظام تلبية "الطلبية" التي يريد الشاري الحصول عليها. وفي العراق وسوريا مواقع أثرية قديمة يعود بعضها إلى ستة آلاف سنة وكانت تحظى بعناية دقيقة من قبل حكومتيهما بهدف المحافظة على سلامة حضارة وتراث البلدين ومن أجل جذب السياح أيضاً. لكن للأسف يبدو كل ذلك في مهب الريح حالياً. فنهب الآثار يدخل ضمن اعتقاد جماعة "الدولة" بأنها "تطهّر" البلاد من الآثار الوثنية، مثلما تفعل بالأضرحة والقبور التي تدمّرها ولكن بعد أن تأخذ منها أولاً كل ما هو ذو قيمة، وهذه تُعتبر إذذاك غنائم حرب وبالتالي مقتنيات مشروعة. والمنطقة السورية التي يعتقد علماء الآثار أنها الأكثر تضرراً من سرقة مقتنياتها هي أفاميا (بمحافظة حماة) ودورا أوروبوس (في بادية الشام قرب دير الزور) والرقة. أما في العراق فقد تم نهب مواقع أثرية خلال التمرد العراقي الذي تلا الغزو الأميركي، لكنه لم يكن على النطاق التجاري الذي يمكن رصده حالياً بالأقمار الصناعية فوق العراق حيث تقوم الجرافات بتدمير مواقع بأسرها من أجل نهب كنوزها.

ويتم عرض كثير من المقتنيات المنهوبة للبيع في مناطق الحدود التركية – السورية بما في ذلك التماثيل والنقود الذهبية والفضية والفسيفساء والأختام والألواح. وقال خبراء لمجلة نيويوركر إن مقتنيات أثرية ذات قيمة عالية يتم بيعها وشراؤها بأسعار خيالية – مثلاً تمثال أسد من حضارة بلاد ما بين النهرين يبلغ طوله ثلاث بوصات (إنشات) فقط ومصنوع من الحجر الكلسي تم عرضه في مزاد في نيويورك بقيمة ٥٧ مليون دولار عام ٢٠٠٧. وفي حين أن من غير الممكن القول كم هو مصدر الدخل من هذه التجارة بالآثار، إلا أن اعتقال مرسول في حزيران/ يونيو ٢٠١٤ قاد إلى اكتشاف سجّلات مالية تُظهر أن مبيعات الآثار في ولاية واحدة فقط في سورية أضافت ٣٦ مليون دولار إلى خزائن "الدولة الإسلامية".

وقد حفلت الصحف الغربية بقصص رهيبة عن نساء أسيرات يتم بيعهن من أجل "المتاجرة بهن جنسياً". وأفادت روايات نساء أيزيديات فررن من محتجزيهن أن هناك شيئاً ما شبيهاً بسوق النخاسة حصل لمدة ١٠ أيام في الموصل في أيلول/ سبتمبر. وفي إحدى الروايات قالت امرأة أيزدية تدعى الياص متحدثةً عن تجربتها: "سعى رجال وراء النساء الأسيرات وقدموا عروضهم من أجلهن واشتروا نساء بسعر يصل إلى ١٥ دولاراً. وبين الذي قاموا بالشراء أجانب ورجال محليون"، وهي تقول إنها تعرفت على عدد منهم من منطقة سنجار. والظاهر أن رجالاً من "المتسوقين" لم يريدوا أخذ الأطفال الذين تم فصلهم عن أمهاتهم، فتركوهم في الموصل حيث تتولى "الدولة الإسلامية" تعليمهم في مدارس تديرها هناك، بحسب ما سمعت نساء من النقاشات التي دارت بين الرجال. ومع مرور الأيام حاولت نسوة الانتحار بعد أن صنعن حبال مشنقة من أغطية رؤوسهن، وقد نجحت أربع نساء على الأقل في الانتحار.

ربما كان من السهل نفي هذه التقارير الصحافية بوصفها مزاعم دعائية تبحث عن الإثارة لولا أن "الدولة الإسلامية" نفسها تعتبر الاتجار بالبشر والرق ممارسات مشروعة. ففي العدد الرابع من نشرتها دابق على شبكة الانترنت، نشرت "الدولة الإسلامية" مقالة بعنوان "إحياء الرق قبل حلول الساعة". ووصفت المقالة كيف أن مجموعة من "العلماء" درسوا مسألة ما إذا كان يجب اعتبار الإيزديين المحتجزين طائفة خرجت من الإسلام، أو "من أهل الكتاب" (يهود ومسيحيين)، أو وثنيين. وقرر العلماء، بحسب المقالة، اعتبارهم وثنيين، فتمت معاملتهم بحسب الرأي الغالب بين الفقهاء في شأن طريقة معاملة المشركين (القتل). أما النساء الايزيديات فتمت إباحة اعتبارهن سبايا يمكن بيعهن، في موقف يختلف عن رأي غالبية الفقهاء في النساء المشركات اللواتي لا يجوز استرقاقهن بل يجب أن يتم تخييرهن بين السيف أو التوبة خلال فترة محددة. وبعد الأسر تمّ فصل النساء الايزيديات عن الأطفال وتم تقسيمهم - بحسب ما تنص الشريعة - على المقاتلين في "الدولة الإسلامية" الذين شاركوا في عملية سنجار، بعد نقل خُمس الرقيقات الأسيرات إلى سلطة الدولة الإسلامية. وساعتئذ تم بيع العائلات الايزيدية التي تم استعبادها من قبل جنود "الدولة الإسلامية" مثلما باع الصِحابة المشركين من قبل. وأشار كاتب المقالة إلى أن مقاتلي "الدولة" لم يخرقوا الفتوى التي تحرم فصل الأم عن طفلها. ويربط كاتب المقالة بين هذا التصرف وبين علامات "حلول الساعة" (نهاية العالم) على اعتبار أن عودة الاتجار بالسبايا من هذه العلامات. ويعالج الكاتب أخيراً الجانب الجنسي في الاسترقاق المقترح، فيقول: "ذكر عدد من العلماء المعاصرين أن التخلي عن الرق قاد إلى زيادة الفاحشة، لأنه البديل في الشريعة للزواج غير متوافر، ولذلك فإن الرجل الذي لا يستطيع الزواج من إمرأة حرة يجد نفسه محاطاً بالإغراءات لارتكاب الخطيئة. بالإضافة إلى ذلك، كثير من العائلات المسلمة التي استأجرت عاملة للعمل في منزلها تواجه فتنة الخلوة غير الشرعية وما ينتج عن ذلك من زنا بين الرجل والخادمة، بينما لو كانت هي خليلته لكانت العلاقة شرعية. وهذا مجدداً يأتي كنتيجة لترك الجهاد واللهث وراء الحياة الدنيا".

وفي حين لا يُعتقد أن هذه التجارة بالسبايا تمثل مصدر دخل كبير لـ"الدولة الإسلامية"، إلا أنها تبقى بالتأكيد من الأكثر غرابةً ووحشية.

وجلبت أموال الفدية لـ"الدولة" ما يقارب من ٢٠ مليون دولار في العام ٢٠١٤ وحده، وقامت دول بينها فرنسا بالموافقة على دفع الفديات، وهو أمر ترفضه واشنطن قائلةً إنه يشجّع فقط على القيام بحالات خطف جديدة. وقد ذكرت وكالة أسوشيتد برس أن "الدولة الإسلامية" طالبت بـ١٣٢,٥ مليون دولار في مقابل الإفراج عن الصحافي الأميركي جيمس فولي.

أخيراً، اتبعت "الدولة الإسلامية" قاعدة أساسية في أي تجارة ناجحة: التنويع. ولديها مصادر دخل عديدة بطريقة غير شرعية تتطلب شركاء ومعاملات على الصعيدين المحلي والدولي.

الجدول الزمني لميلاد "الدولة الإسلامية"

في نيسان/ أبريل ٢٠١٣ وسّعت "الدولة الإسلامية في العراق" نشاطها إلى سوريا وغيّرت اسمها إلى "الدولة الإسلامية في العراق والشام". في البدء قاتلت إلى جانب فصائل المعارضة السورية، لكنها سرعان ما صارت القوة العسكرية الأقوى من بين فصائل المعارضة للنظام السوري.

في تموز/ يوليو ٢٠١٣، بدأت "الدولة الإسلامية في العراق والشام" مواجهة علنية مع العناصر العلمانية ضمن صفوف المعارضة، وقتلت القائد في الجيش السوري الحر كمال همامي (أبو بشير الجبلاوي) في اللاذقية.

في تموز/ يوليو ٢٠١٣، نفّذت "الدولة الإسلامية في العراق والشام" عملية جريئة ضد سجن الفلوجة السيئ السمعة وحررت قرابة ٥٠٠ سجين جهادي بينهم عدد من أبرز قادة "القاعدة". وقد قيل إنه تم التخطيط لهذه العملية طوال سنة قبل وضعها موضع التنفيذ.

في آب/ أغسطس ٢٠١٣، سيطرت "الدولة الإسلامية في العراق والشام" على مطار منّغ شمال غربي حلب.

في أيلول/ سبتمبر ٢٠١٣، قتلت "الدولة الإسلامية" زعيم أحرار الشام أبو عبيدة وسيطرت على مدينة أعزاز من أيدي الجيش الحر. وأعزاز مدينة استراتيجية قريبة من الحدود التركية وتعمل بوصفها نقطة عبور للمقاتلين الأجانب إضافةً إلى عمليات نقل المساعدات المالية والأسلحة القادمة من دول الخليج.

في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٣، سيطرت "الدولة" على مدن في محافظة الأنبار العراقية، وبحلول نهاية السنة كانت قد سيطرت على الفلوجة.

في كانون الثاني/ يناير ٢٠١٤، وصف الرئيس أوباما مقاتلي "الدولة الإسلامية" بأنهم عبارة عن "لاعبين مبتدئين". كذلك بدأت "الجبهة الإسلامية" التي ترعاها السعودية، بالاشتراك مع الجيش الحر، معركةً للسيطرة على مواقع "الدولة الإسلامية" في حلب وإدلب. فاغتال الجيش الحر اليد اليمنى لأبو بكر البغدادي، حاجي بكر (ضابط سابق في الحرس الجمهوري في جيش صدام حسين).

في شباط/ فبراير ٢٠١٤، تُرجم الخلاف بين "الدولة الإسلامية" و"جبهة النصرة" إلى

قتال وقفت فيه "النصرة" إلى جانب "الجيش الحر" في محاولة لطرد "الدولة الإسلامية" من محافظة دير الزور. قتل مفجّرون انتحاريون من "الدولة الإسلامية" قائداً وستة عناصر من أحرار الشام في حلب وشيخ عشيرة من "الصحوات" وعدداً من أتباعه في مدينة الحديثة العراقية بالأنبار (تضم الحديثة أكبر سد لتوليد الطاقة الكهربائية في العراق). وظهر أن استراتيجية "الدولة الإسلامية" تقوم عل السيطرة على سدود أساسية على نهري دجلة والفرات.

في آذار/ مارس ٢٠١٤، أظهرت "الدولة الإسلامية" مهارتها - التي برع فيها من قبل تنظيم "القاعدة" وجماعات مرتبطة به - بالتراجع في المعركة التي لا يمكن ربحها فوراً وتحويل التركيز على ساحات أخرى ليس هناك ضغط عليها. وهكذا انسحبت من محافظة إدلب حيث كان يقاتلها هناك ثوار سوريون، كما انسحبت من أعزاز قرب الحدود التركية. بدل ذلك، عوّضت "الدولة الإسلامية" بتعزيز سيطرتها على محافظة الرقة التي ستصبح عاصمة "الدولة" في سوريا.

في أيار/ مايو ٢٠١٤، بدأت "الدولة الإسلامية" تبثّ صوراً وأشرطة فيديو مرعبة لعمليات إعدام بما في ذلك الصلب في مدينة الرقة. وبدا أنها تريد التأكد من إنهاء أي تحرك ضدها من خلال شنّ حرب نفسية وإرهاب السكان أو أي قوة تفكّر في محاربتها، سواء كانت من الجماعات الإسلامية أو الجيوش النظامية.

في حزيران/ يونيو ٢٠١٤، حققت "الدولة الإسلامية" انتصارات متتالية وانتهى بإعلان قيام "الخلافة". فبعد خمسة شهور فقط من حملة منسقة استولت "الدولة الإسلامية" على مساحات شاسعة من الأرض في كل من العراق وسوريا. تمثلت الصدمة الأولى بسقوط الموصل، ثاني أكبر مدينة عراقية، في أيديها، ومعها معظم محافظة نينوى إضافةً إلى الفلوجة وتكريت. ألقى لواءان من القوات النظامية العراقية يقدر عددهما بـ ٣٠ ألف جندي السلاح فوراً وفروا. وخلال ذلك الشهر حقق مقاتلو "الدولة" أيضاً انتصارات استراتيجية مفاجئة بما في ذلك السيطرة على بلدات عدة في كركوك حيث كانوا يريدون السيطرة على حقول النفط وسدّ مهم آخر، إضافةً إلى ١٠ بلدات في محافظة صلاح الدين.

في الموصل، سيطرت "الدولة الإسلامية" على مكاتب حكومية، المطار، مراكز الشرطة، والمصرف المركزي حيث نهبت نصف بليون دولار، كما قيل. والموصل أيضاً قريبة من حقول نفطية ومن سدّ الموصل الضخم. فرّ قرابة نصف مليون من السكان بما في ذلك عائلات الأقلية المسيحية المؤلفة من ٤٠٠ عائلة، في ظروف مأسوية ركزت عليها وسائل الإعلام الغربية ممهدةً الطريق أمام التأييد الشعبي للتدخل العسكري الذي لم يبدأ التفكير به سوى عندما هددت "الدولة الإسلامية" حقول النفط العراقية - واعذروني إذا ما كنت

شكاكاً في نيات الغربيين! وتم تحقيق الغاية نفسها هنا (حشد التأييد الشعبي في الدول الغربية) من خلال التركيز على معاناة الأيزيديين الذين فروا من آمرلي عندما حاصرتها "الدولة الإسلامية" وانتقلوا إلى جبال سنجار حيث لوّح الرئيس الأميركي أوباما بتدخل "إنساني" لإنقاذ المحاصرين.

وبدأ دقّ طبول الحرب بشكل أقوى عندما استولت "الدولة الإسلامية" على مصفاة بيجي، الأضخم في العراق، ووافق ٤٠٠ جندي عراقي على الفرار من الجيش. كما سقطت حقول نفط العجيل في أيدي "الدولة". بعد ذلك بشهر بدأت "الدولة الإسلامية" تبيع النفط الخام. وفي حزيران/ يونيو أيضاً سيطرت "الدولة" على منصورية الجبل التي تحوي حقولاً كبيرة للغاز تديرها عادةً شركات أجنبية.

وسيطرت "الدولة الإسلامية" أيضاً في الموصل على القنصلية التركية واحتجزت رئيس البعثة و٤٨ من موظفيها رهائن. وفي ظل مخاوف من أن بغداد ستكون الهدف المقبل، أجلت الأمم المتحدة ٦٠ من موظفيها من العاصمة العراقية. لكن عوض التوجه إلى بغداد سارت "الدولة الإسلامية" بالعكس في اتجاه الحدود السورية وسيطرت على كل المدن والبلدات في طريقها بما في ذلك معبر طرابيل الحدودي مع الأردن.

في ١٩ حزيران/ يونيو سيطرت "الدولة الإسلامية" على منشأة الأسلحة الكيماوية خلال حكم صدام حسين في المثنّى. وفي تشرين الأول/ أكتوبر أفادت تقارير أن "الدولة الإسلامية" استخدمت غاز الكلور في هجوم على بلدة بلد شمال بغداد. كما سيطرت "الدولة" أيضاً على مدينة تلعفر الاستراتيجية ومطارها.

وخلال المعارك التي جرت في بعض أرجاء العراق، وحّدت فصائل إسلامية معارضة للحكومة التي يهيمن عليها الشيعة في بغداد مقاتليها مع مقاتلي "الدولة الإسلامية" التي واصلت في الوقت نفسه سياسة الإرهاب النفسي من خلال بثّ صور لقطع رؤوس جنود عراقيين تمّ أسرهم قرب كركوك إضافةً إلى تنفيذ عمليات إعدام جماعي لـ٦٧٠ سجيناً شيعياً في سجن بادوش في الموصل. آلاف الجنود العراقيين الذين حاولوا الفرار من معسكر سبايكر في تكريت تم أسرهم أيضاً وإعدام ما يصل إلى ١٥٠٠ منهم على مدى ثلاثة أيام. وفي الموصل أعدمت "الدولة" ١٣ إماماً بينهم إمام المسجد الكبير بعدما رفضوا أداء البيعة لأبو بكر البغدادي.

وفي توقيت ممتاز، كان العالم لا يزال خلاله يهضم نجاحات "الدولة الإسلامية"، تمّ الإعلان عن ولادة الخلافة الجديدة بقيادة الخليفة أبو بكر البغدادي في ٢٩ حزيران/ يونيو ٢٠١٤، الذي صادف أول أيام شهر رمضان.

في تموز/ يوليو ٢٠١٤ واصلت جيوش "الدولة الإسلامية" تحقيق إنجازات عسكرية

باهرة. من هذه الإنجازات انتزاع السيطرة على حقل العمر النفطي من أيدي "جبهة النصرة" في سوريا دون أي مقاومة، والسيطرة على حقل الشاعر للغاز في محافظة حمص.

وتواصلت في الوقت ذاته سياسة التنكيل وقتل الأعداء بلا رحمة والقتل بهدف تقديم "عبرة لمن يعتبر". فتم خطف مخبرين من قرية بالقرب من تكريت، وخطف ٦٠ ضابطاً وجندياً عراقياً قرب الموصل، وقتل ٧٠٠ قروي تركماني في البشير، كما تمّ إعدام ٤٢ أسيراً من الجنود العراقيين. وسيطرت "الدولة الإسلامية" أيضاً على فرقة كاملة في الجيش السوري في الرقة وقطعت رؤوس الجنود وعرضتها في ساحة عامة بمدينة الرقة. ولقي ١٨ شرطياً عراقياً المصير ذاته قرب تكريت. وقُتل الإمام السنّي عبد الرحمن الجبوري في بعقوبة لأنه تجرّأ على إدانة "الدولة الإسلامية". واحتفالاً بنهاية شهر رمضان وحلول عيد الفطر، في ٢٨ تموز/ يوليو، وزّع مركز الحياة، الذراع الإعلامية لـ"الدولة الإسلامية"، شريط فيديو يتضمن إعدامات جماعية. ووزّعت الأمم المتحدة، من جهتها، أرقاماً تشير إلى مقتل ١٧٣٧ شخصاً بينهم ١١٨٦ مدنياً في العراق خلال شهر تموز/ يوليو فقط.

دمّر جنود "الدولة الإسلامية" مراكز دينية لها قيمة رمزية لطوائف ومذاهب أخرى مثل مسجد وقبر النبي يونس في الموصل (مركز شيعي تقدّسه العادات اليهودية أيضاً) وضريح النبي شيت.

في آب/ أغسطس ٢٠١٤، بدا أن "النصرة" تعمل بالتنسيق مع "الدولة الإسلامية"، ربما انطلاقاً من مبدأ أنه "إذا لم يكن في الإمكان هزيمتهم فالأفضل اللحاق بهم". وقد سيطرت الجماعتان على مدينة زمار الكردية العراقية وحقل نفطي قريب منها. وعندما سيطر مقاتلو "الدولة الإسلامية" على القرى التي يسكنها الأيزيدون في إقليم سنجار قاموا بقتل مئات الرجال وخطف ما يصل إلى ٥٠٠ إمرأة وفتاة تم بيعن في سوق النخاسة.

تسمّرت أعين العالم أمام الشاشات وهم يشاهدون ما يقارب من ٥٠ ألفاً من النساء والأطفال بشعر أشقر وعيون خضر أو زرق وهم يفرون إلى الجبال هرباً من "الدولة الإسلامية". وعلى مدى أيام مات أطفال إيزيدون جراء العطش والجوع وهم محاصرون فوق جبال سنجار. وقال ناجون إن "الدولة" خيّرتهم بين اعتناق الإسلام أو الموت.

ولم ينجُ المسيحيون العراقيون من مصير شبيه إذ أرهبهم جنود "الدولة الإسلامية" بعدما سيطروا على عدد من بلداتهم في محافظة نينوى بما في ذلك قراقوش وبارتيلا وتل كيبي وكرملاش ومخمور. ونتيجة ذلك فرّ ما يصل إلى ٢٠ ألف آشوري مسيحي من قراهم التي سكنوها منذ ما قبل مجيء الإسلام إلى العراق.

بالنسبة إلى الغرب كانت تلك المشاهد هي الصور التي في إمكانها التأثير في الرأي العام: ضحايا "الدولة الإسلامية" فاتحو البشرة وغير مسلمين. وهكذا سُجّل تزايد الغضب الشعبي

وشهية اللجوء إلى تدخل عسكري وأعطى الرئيس أوباما الإذن بتوجيه ضربات عسكرية لمواقع "الدولة الإسلامية" داخل الأراضي العراقية. وقامت بريطانيا وفرنسا بطلعات جوية أيضاً لكنها اقتصرت على نقل مساعدات إنسانية للاجئين الفارين من العنف. ولم يكن صدفة أن فتوحات "الدولة الإسلامية" وضعت أربيل، عاصمة الإقليم الكردي والتي تضم ثاني أكبر حقول النفط العراقية، على شفا السقوط في أيدي الجهاديين. فالهدف كان انتزاع السيطرة الكردية على حقول النفط التي كان الأكراد سعداء بأن يتشاركوا فيها مع الغرب وإسرائيل.

والآن بدأت "الدولة الإسلامية" تخوض مساومات مع الولايات المتحدة وبريطانيا على مصير رهائن تحتجزهم من مواطني هاتين الدولتين. في ١٢ آب/ أغسطس تلقى ذوو الصحافي الأميركي جيمس فولي رسالة بريد الكتروني من خاطفيه تربط بوضوح بين الغزو والعنف:

> إلى متى سيبقى الخروف يتبع الراعي الضرير؟
>
> رسالة إلى الحكومة الأميركية ومواطنيها الذي هم مثل الأغنام:
>
> لقد تركناكم لوحدكم منذ هزيمتكم المخزية في العراق. لم نتدخل في بلدكم ولم نهاجم مواطنيكم ما داموا آمنين في بيوتهم على رغم قدرتنا على القيام بذلك.
>
> أما بالنسبة إلى الحثالة من أبناء مجتمعكم الذين نحتجزهم سجناء عندنا. لقد تجرأوا أن يدخلوا عرين الأسد فالتهمهم!
>
> لقد مُنحتم فرصاً كثيرة للتفاوض على إطلاق مواطنيكم من خلال تحويلات نقدية كما قبلت دول أخرى أن تفعل.
>
> كما أننا اقترحنا تبادل سجناء من أجل تحرير مسلمين محتجزين لديكم مثل أختنا الدكتورة عافية صديقي، لكنكم أثبتّم بسرعة لنا أنّ هذا ليس ما يهمكم.
>
> ليس لديكم حافز للتعامل مع المسلمين إلا بلغة القوة التي تمّ تلقينكم إياها عندما حاولتم احتلال أراضي العراق!
>
> والآن تعودون لقصف المسلمين في العراق مجدداً، لاجئين هذه المرة إلى الهجمات الجوية و"الجيوش بالوكالة"، لكنكم لا تجرؤون على المواجهة وجهاً لوجه!
>
> الآن سيوفنا مسلولة تجاهكم، حكومةً ومواطنين سواء. ولن نتوقف حتى نروي عطشنا من دمائكم.
>
> لا ينجو منكم ضعيف، مسنّ، امرأة ولا طفل، ولذلك فلن نرأف بكم!
>
> ستدفعون وسيدفع مواطنوكم ثمن قصفكم!

وسيكون أول من يدفع الثمن دم المواطن الأميركي جيمس فولي.
سيُعدم كنتيجة مباشرة لعدوانكم علينا!

أُعدم جيمس فولي فعلاً، أمام الكاميرا، يوم٢٦ آب/ أغسطس ٢٠١٤، وكان يرتدي ثوباً برتقالياً كالذي يرتديه نزلاء سجن غوانتانامو. كما أُعدم الصحافي الأميركي ستيفن سوتلوف (الذي يحمل أيضاً جوازاً إسرائيلياً) في بداية أيلول/ سبتمبر. وكان لا بدّ من مزيد من الاهتمام بقصة الإعدامات بعدما تبيّن من لكنة منفّذ الذبح أنه بريطاني يُطلق عليه اسم "الجهادي جون"، كما قال المصور الصحافي التركي بنيامين أيغون الذي كان محتجزاً في المنشأة نفسها مع بقية الرهائن قبل أن تتمكن جماعة منافسة تعمل مع الاستخبارات التركية من الإفراج عنه. كما كشف أيغون أن هناك خلية بريطانية "الجهادي جون" عضو فيها يُطلق عليها لقب "البيتلز".

وأعدمت "الدولة الإسلامية" في أيلول/ سبتمبر وتشرين الأول/ أكتوبر عاملي الإغاثة البريطانيين ديفيد هينز وألَن هيننغ.

ومنذ تأسيس الخلافة واصلت قوات "الدولة الإسلامية" سيطرتها على مزيد من الأراضي في كل من العراق وسوريا. وأشرس المعارك التي حصلت حتى اليوم تركزت على المناطق الكردية السورية على الحدود مع تركيا. ومنذ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٤ فرضت كتائب "الدولة الإسلامية" حصاراً على مدينة كوباني، في وقت كانت تحقق مزيداً من التقدم في أراضي العراق. ووسعت الولايات المتحدة نطاق تدخلها وبدأت تشنّ غارات في سوريا كما في العراق.

ولادة الخلافة الجديدة

أعلنت "الدولة الإسلامية" قيام الخلافة مجدداً ونصّبت أبو بكر البغدادي خليفةً يوم ٢٩ حزيران/ يونيو ٢٠١٤، الذي صادف أول أيام شهر رمضان، شهر الصوم عند المسلمين.

وفي ٢ تموز/ يوليو ٢٠١٤ وزّع على مواقع المتشددين على شبكة الانترنت وعلى مواقع التواصل الاجتماعي شريط سمعي مدته ٢٠ دقيقة هو كناية عن خطاب للخليفة الجديد. وقد سارع العديد من المعلّقين إلى إجراء مقارنة بين نبرة الخليفة وفحوى خطابه وأسلوبه في الإلقاء وبين أسلوب أسامة بن لادن. حدد "الخليفة إبراهيم"، في خطابه هذا، موقعه وقدّم رؤيته لـ"الدولة الإسلامية" التي يقودها، وحضّ المسلمين في أنحاء العالم على "الهجرة" والالتحاق بـ"الجيش الإسلامي" في دولته. كما شجّع الأشخاص الذين يمتلكون مهارات

واختصاصات على المجيء للمساعدة في بناء البنية التحتية واقتصاد الدولة الوليدة. وقد اخترت بعض المقتطفات التي تعبّر عن أبرز ما أراد قوله:

أيها المسلمون في كل مكان؛ أبشروا وأمّلوا خيراً وارفعوا رؤوسكم عالياً؛ فإن لكم اليوم بفضل الله دولة وخلافة، تعيد كرامتكم وعزّتكم، وتسترجع حقوقكم وسيادتكم، دولة تآخى فيها الأعجمي والعربي، والأبيض والأسود، والشرقي والغربي، خلافة جمعت القوقازي والهندي والصيني، والشامي والعراقي واليمني والمصري والمغربي، والأميركي والفرنسي والألماني والأسترالي، ألّف الله بين قلوبهم، وأصبحوا بنعمة الله إخواناً متحابّين فيه، واقفين في خندق واحد؛ يدافع بعضهم عن بعض، ويحمي بعضهم بعضاً، ويفدي بعضهم بعضاً، امتزجت دماؤهم تحت راية واحدة، وغاية واحدة، في فسطاط واحد، متنعّمين متلذّذين بهذه النعمة؛ نعمة الأخوّة الإيمانية، التي لو ذاق طعمها الملوك لتركوا ملكهم وقاتلوهم عليها، فالحمد لله والشكر لله.

فيا أيها المسلمون في كل مكان؛ مَن استطاع الهجرة إلى الدولة الإسلامية فليهاجر؛ فإن الهجرة إلى دار الإسلام واجبة.

ونخصّ بندائنا طلبةَ العلم والفقهاء والدعاة، وعلى رأسهم القضاة وأصحاب الكفاءات؛ العسكرية والإدارية والخدَمية، والأطباء والمهندسين في كافة الاختصاصات والمجالات، ونستنفرهم، ونذكّرهم بتقوى الله؛ فإن النفير واجب عليهم وجوباً عينيّاً؛ لحاجة المسلمين الماسّة إليهم؛ فإن الناس يجهلون دينهم ومتعطّشون لمَن يعلّمهم ويفقّههم.

يا جنود الدولة الإسلامية، لا تهولنّكم كثرة أعدائكم؛ فإن الله معكم، وإني لا أخشى عليكم عدوّاً مِن غيركم، ولا أخشى عليكم حاجةً أو فقراً؛ فإن الله تعالى ضمن لنبيكم صلى الله عليه وسلم ألاّ يهلككم بِسَنَة، أو يسلّط عليكم عدوّاً يستبيح بيضتَكم، وجعل رزقكم تحت ظل رماحكم، وإنما أخشى عليكم منكم؛ مِن ذنوبكم، ومِن أنفسكم.

تطاوعوا ولا تنازعوا، وائتلفوا ولا تختلفوا، واتقوا الله في سرّكم وعلنكم، وظاهركم وباطنكم، اجتنبوا المعاصي، وأخرجوا مِن صفوفكم مَن يجاهر بمعصية، وإياكم والعُجْبَ والغرور والكِبْر، ولا تغترّوا ببعض انتصاراتكم، انكسروا لله وتواضعوا، ولا تتكبروا على عباد الله، ولا تستهينوا بعدوكم مهما كثرت قوتكم وازداد عددكم.

اعلموا أنكم اليوم حرّاس الدين وحُماة بيضة الإسلام، وأن أمامكم معامع

وملاحم، وإن أفضل موطن تُراق به دماؤكم، في فكاك أسرى المسلمين، تحت أسوار سجون الطواغيت، فأعدّوا عدّتكم، وتزوّدوا بالتقوى، وواظبوا على قراءة القرآن وتدبّره والعمل به.

كان واضحاً أن الخليفة إبراهيم واع إلى أن السبب الأكثر احتمالاً لانهيار "الدولة الإسلامية" يتمثل في الاقتتال الداخلي بين المتشددين، ولذلك حضّهم قائلاً: "اقبلوا بعضكم بعضاً ولا تتنازعوا. اجلسوا مع بعض ولا تتجادلوا". وهو ذكّر مستمعيه إلى أن فهمهم الضيق للإسلام لا يعني أن عليهم استعداء بقية السنّة في العالم والذين في الإمكان أن يتم كسبهم، في نظره، إذ قال: "أوصيكم بالمسلمين وعشائر أهل السنّة خيراً، فاسهروا على أمنهم وراحتهم، وكونوا لهم معيناً، قابلوا الإساءة منهم بالإحسان، والزموا معهم الرفق، وغلّبوا العفو والصفح، واصبروا وصابروا ورابطوا".

وأخيراً قال الخليفة كاشفاً المطامح التوسعية لـ"الدولة الإسلامية": "هذه وصيتي لكم؛ إن التزمتموها لَتفتحُنّ روما ولَتملكنّ الأرض إن شاء الله".

بعد يومين من هذه الكلمة، في أول جمعة من شهر رمضان (التي صادفت ٤ تموز/يوليو الذي هو يوم عطلة في الولايات المتحدة بمناسبة عيد الاستقلال، وهو أمر لم يغب بالتأكيد عن أذهان راسمي الخطط في "الدولة الإسلامية")، خرج الخليفة أبو بكر من الظل بعدما بقي مبتعداً عن الأضواء على مدى سنوات، وألقى خطاباً أمام المصلين في صلاة الجمعة في المسجد الكبير في الموصل (الذي تمّ قطع رأس إمامه السابق). وكان الخليفة البغدادي يرتدي في ظهوره هذا ثوباً أسود وعمامة يرتديها تقليدياً الخلفاء. (يمكن مراجعة نص خطابه في ملحق هذا الكتاب).

لفت البغدادي في خطابه هذا، الذي بدا كخطابات إعلان الحرب وتخللته استشهادات قرآنية، إلى أن رمضان كان الشهر الذي قاد فيه النبي محمد جيوش المسلمين "للقتال ضد أعداء الله ... فاستغلوا هذا الشهر الفضيل، يا عباد الله، وقاتلوا". وحضّ المؤمنين على "الجهاد" قائلاً: "إن أردتم موعود الله فجاهدوا في سبيل الله، وحرّضوا المؤمنين، واصبروا على تلك المشقّة، ولو علمتم ما في الجهاد من الأجر والكرامة والرفعة والعزة في الدنيا والآخرة لَمَا قعد أو تخلّف منكم أحد عن الجهاد".

وحدّد توقعاته من "الدولة الإسلامية"، حاضّاً المستمعين على أن يكونوا صارمين في تنفيذ تعاليم الشريعة، بما فيها تطبيق الحدود، إذ قال: "أيها الناس؛ إن دين الله تبارك وتعالى لا يُقام ولا تتحقّق هذه الغاية التي من أجلها خلقنا الله، إلا بتحكيم شرع الله والتحاكم إليه وإقامة الحدود، ولا يكون ذلك إلا ببأس وسلطان".

وقال البغدادي أيضاً إن الخلافة تأسست من جديد بفضل "إخوانكم المجاهدين": "منّ

الله تبارك وتعالى عليهم بنصر وفتح، ومكّن لهم بعد سنين طويلة مِن الجهاد والصبر ومجالدة أعداء الله".

وتحدث البغدادي أيضاً عن تعيينه خليفة، واصفاً ذلك بأنه "ابتلاء"، وقال: "لقد ابتُليتُ بهذا الأمر العظيم، لقد ابتُليتُ بهذه الأمانة؛ أمانة ثقيلة، فَوُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم ولا أفضل منكم؛ فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فانصحوني وسدّدوني، وأطيعوني ما أطعتُ الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، وإني لا أعدكم كما يعد الملوك والحكام أتباعهم ورعيّتهم، مِن رفاهية ودعَة وأمْن ورخاء، وإنما أعدكم بما وعد الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين".

المصادر

- http://www.express.co.uk/news/world/515520/Islamic-State-has-MORE-THAN-30-000-fighters-CIA-claims
- http://english.alarabiya.net/en/News/middle-east/2014/06/13/Report-ISIS-steals-429mn-in-Mosul-capture.html
- http://www.washingtonpost.com/world/middle_east/islamic-state-militants-allegedly-used-chlorine-gas-against-iraqi-security-forces/2014/10/23/c865c943-1c93-4ac0-a7ed-033218f15cbb_story.html
- http://www.globalpost.com/dispatch/news/regions/middle-east/syria/140821/text-last-email-islamic-state-sent-foley-family
- http://www.dailymail.co.uk/news/article-2746379/Doctor-called-desperately-ill-British-hostage-held-brutal-Jihadi-John-Aid-worker-tortured-Tasers-digestive-problems.html

الفصل الثاني

أبو بكر البغدادي

نجح أبو بكر البغدادي، في واقع الأمر، في الحفاظ على درجة عالية من السرية حول نفسه، وأبقى هويته طي الكتمان على مدى سنوات - في البدء عندما كان لا يزال زعيماً للدولة الإسلامية في العراق منذ العام ٢٠١٠، ثم لاحقاً بوصفه أميراً على الدولة الإسلامية في العراق والشام التي أعلنت قيام دولة الخلافة في مطلع تموز/ يوليو ٢٠١٤. فهو لم يظهر علناً إلا في مرات نادرة جداً، كما أنه، قبل أن يصير "الخليفة"، لم يخرج على عموم المسلمين سوى ببضعة بيانات مكتوبة، صوتية أو مرئية. ولا شك أن سياسة السرية هذه هي نتيجة نصائح طاقم حراسته الذي يعرف بالتأكيد أن أي ظهور عام له يمكن أن يقدّم لأجهزة استخبارات أجنبية خيوطاً تستدل بها للوصول إليه. فتصرف واحد غير محمود العواقب يمكن أن يؤدي إلى القضاء عليه، كما حصل، مثلاً، مع زعيم فرع القاعدة في العراق أبو مصعب الزرقاوي عام ٢٠٠٦. فالأخير قاد الأميركيين إليه بعدما تتبعوا خيوطاً عدة كان أحدها شريط فيديو دعائي صوّره الزرقاوي في الصحراء العراقية.

ولكن على رغم هذه السرية، فقد سمحت مقابلات، وأبحاث ميدانية، ومصادر متوافرة على شبكة الانترنت، بأن يتم تركيب صورة تقدم ملامح واسعة لحياة شخصية تُوصف بأنها الأكثر خطورةً في العالم حالياً: أمير الدولة الإسلامية والخليفة في دولة الخلافة.

أبو بكر البغدادي، المعروف أيضاً بـ"أبو دعاء"، والدكتور إبراهيم، وعواد إبراهيم، والشبح، و"الشيخ المخفي" (كونه اعتاد أن يضع قناعاً يخفي وجهه عندما يخطب في قادته)، من مواليد عام ١٩٧١ في سامراء، على بعد ٥٠ ميلاً شمال بغداد.

اسمه الحقيقي إبراهيم بن عواد بن إبراهيم البدري القرشي، وينتمي إلى مجموعة عشائر

البوبدري التي تقطن في الغالب المنطقة الواقعة بين سامراء وديالى والتي تضم أيضاً عشائر الراضوية والحسينية والعدنانية والقرشية أيضاً، والأخيرة هي قبيلة الرسول. وكما هو معروف فإن من "المؤهلات" التي سمحت تاريخياً لشخص ما بأن يصبح خليفة أن يكون متحدراً من سلالة الرسول. وقد أشار بعض المعلقين إلى الخطبة الشهيرة التي ألقاها البغدادي بعيد تنصيبه خليفة في مسجد النوري الكبير في الموصل في ٥ تموز/ يوليو ٢٠١٤، ولاحظوا أنه كان يستخدم المسواك لتنظيف أسنانه، تماماً كما يُقال إن الرسول كان يفعل، وليربط نفسه بذلك بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) من خلال التصرفات والأقوال والنسب أيضاً، بالإضافة إلى تأكيده لمرجعيته السلفية التي تنادي بالعودة في نظام الحياة اليومي إلى ما كان عليه المسلمون الأوائل.

وبحسب معلومات شخصية عنه منشورة على مواقع جهادية، ينتمي البغدادي إلى عائلة متدينة تضم عدداً من الأئمة ومحفّظي القرآن الكريم. كما أن أمه تنتمي إلى عائلة مرموقة ضمن عشيرة البوبدري.

درس البغدادي في الجامعة الإسلامية في بغداد، وحصل منها على شهادة الباكالوريوس ثم الإجازة وبعدها الدكتوراة حيث ركّزت أطروحته على الفقه الإسلامي وعلى التاريخ والثقافة الإسلاميين. وتعطيه مؤهلاته الدينية هذه شرعية أكبر في سعيه إلى تثبيت نفسه كمرجعية إسلامية، إضافةً إلى كونه قائداً عسكرياً وزعيماً سياسياً. وهذا شيء حتى أسامة بن لادن لم يتمكن من نيله. فزعيم القاعدة الراحل وخليفته الدكتور أيمن الظواهري كلاهما لديه خلفيات مهنية وليست دينية – الأول كان يعمل في مجال مقاولات البناء، والثاني كان طبيباً.

ويقدّم أشخاص قابلوا البغدادي صورةً له تصفه بأنه متحدث هادئ وجدي في الوقت ذاته. ويقول شخص قابلته من أجل هذا الكتاب، وكان قد قضى في السجن مع البغدادي قرابة سنتين في ٢٠٠٤، وطلب مني أن لا أذكر اسمه لأسباب أمنية، إن الزعيم الحالي للدولة الإسلامية كان دائماً "هادئاً ومتمالكاً لنفسه" وتعلو وجهه ابتسامة توحي بالارتياح. ويضيف هذا الشخص، الذي كان ضمن حاشية أسامة بن لادن في الماضي، أن البغدادي يذكّره بزعيم القاعدة الراحل. ويقول أيضاً إن البغدادي شخصية كاريزماتية جداً "بحيث أنك إذا جلست معه في الغرفة واستمعت إليه يتحدث فإن من الصعب جداً أن لا تتأثر به وبأفكاره ومعتقداته".

لكن السكينة والهدوء اللذين يتميّز بهما البغدادي ليسا سوى جزء من شخصيته، فهو أيضاً قادر على إطلاق التهديد والوعيد وأن يكون عديم الرحمة أحياناً. ويقول المصدر نفسه الذي تحدث لي إن البغدادي عندما أفرج عنه من السجن توجّه إلى الحارس الأميركي على بوابة السجن وقال له إنه سيراه مجدداً. وأضاف أن البغدادي قال مهدداً: "سنجدك في الشارع في مكان ما، في يوم ما... هنا أو في نيويورك".

ولا يبدو أن هذا القائد الهادئ يسامح أو ينسى بسهولة: فقد عارضه شخصان فقط من أعضاء مجلس الشورى الذي اجتمع لاختيار خليفة لأبي عمر البغدادي الذي اغتاله الأميركيون في العام ٢٠١٠. وقد تمّ قتل أحدهما، جمال الحمداني، بعد فترة وجيزة من اختيار أبو بكر خلفاً لأبو عمر.

ويتميز أبو بكر البغدادي كقائد عسكري بالمكر ودقة الحسابات. فعلى رغم أنه لم يقاتل بتاتاً خارج العراق - وهي إحدى صفات القادة الجهاديين العالميين - إلا أنه يتمتع بخبرة وافية في المعارك. كما أنه خصم ذكي، قام بإجراء تقويمٍ وتحليل دقيقين للتجارب "الناجحة" للجماعات الجهادية مثل طالبان والقاعدة. فهو، مثلاً، يعرف فعالية "الهجرة"، ولا يتردد في إعطاء أمر بالانسحاب من معركة إذا كان من غير الممكن أن تُربح بسهولة، في محاكاة لتكتيك ناقشته مطولاً في كتابي السابق، **ما بعد بن لادن: القاعدة، الجيل التالي،** حيث تُعتبر الهجرة مفتاحاً للنجاة للجماعات الجهادية المرتبطة بالقاعدة من الصومال إلى الصين.

كما أن البغدادي يعرف قيمة المنظمات التي تُدار بشكل جيد. فمثل طالبان والقاعدة في أوج عزّهما في أواخر التسعينات في أفغانستان، اعتمدت الدولة الإسلامية في العراق والشام بنيةً هرمية وإدارية وقيادية معقّدة، بما في ذلك إنشاء إدارات ولجان تتولى شؤوناً مختلفة من إدارة ملفات عمليات الخطف إلى تأمين المرتبات إلى الدعاية.

والمقارنات بين البغدادي وأسامة بن لادن تتكرر باستمرار، ولا يمكن تفاديها في حقيقة الأمر. فالمقاتلون الإسلاميون السنّة يضعون البغدادي في نفس المستوى الرفيع الذي يضعون فيه بن لادن نظراً إلى ميزاته العسكرية والدينية، وهو أمر لم يستطع أيمن الظواهري، خليفة بن لادن، أن يكتسبه. والحقيقة أن البغدادي لم ينطلق في مسيرته نحو القيادة من موقع الثروة التي انطلق منها بن لادن، بل نتيجة صيته (أو أدائه) الذي ذاع ومنحه ولاء المتشددين وثناءهم. كما أن البغدادي نفسه يزعم أنه هو - وليس قادة القاعدة الحاليين - الخليفة الحقيقي لإرث بن لادن والشخص الأكثر قدرةً على تحقيق ما كان يطمح إليه. وبحسب مقاتل سوري في الدولة الإسلامية في العراق والشام فإن "الشيخ البغدادي والشيخ أسامة شبيهان. كلاهما ينظر إلى الأمام، وكلاهما يسعى إلى إقامة الدولة الإسلامية"، كما نقلت وكالة رويترز عنه. ونقل تقرير الوكالة أيضاً عن مقاتل غير سوري قوله "إن تنظيم القاعدة لم يعد موجوداً. تأسس ليكون أساساً لقيام الدولة الإسلامية، وها هي قد تحققت، ولذلك فعلى الظواهري أن يعلن بيعته للشيخ البغدادي".

ويقول تشارلز ليستر الخبير بمعهد بروكينغز إن هناك فكرة رئيسية تنتشر في شكل واسع بين الأعضاء الأوروبيين في الدولة الإسلامية في العراق والشام مفادها أن البغدادي يمثّل

استمرارية للأهداف المثلى التي كان يتطلع إليها بن لادن، في حين فشل الظواهري في مواصلة مسيرة سلفه.

وللبغدادي زوجتان على الأقل. تزوج الأولى عندما أنهى شهادة الدكتوراة وأنجب منها ابنه الأول بعد سنة من زواجهما. وفي حين أن اسم زوجته الأولى غير معروف حالياً، فإن زوجته الثانية تدعى سجى حامد الدليمي التي اقترن بها في العام ٢٠١٠ أو ٢٠١١. كانت الدليمي أرملة عندما تزوجت بالبغدادي. فقد قتلت قوات الأمن العراقية زوجها السابق فلاح إسماعيل جاسم الذي ينتمي إلى "جيش الراشدين" في محافظة الأنبار في العام ٢٠١٠، بحسب تقارير إخبارية. وتنتمي الدليمي إلى عائلة معروفة بالتزامها الديني إذ يتبع جميع أفرادها أيديولوجيا السلفية الجهادية. كما أن والدها كان قيادياً في الدولة الإسلامية في العراق والشام وقُتل في معركة مع الجيش السوري في أيلول/ سبتمبر ٢٠١٣. ووفق تقارير إعلامية فإن أختها دعاء نفّذت هجوماً انتحارياً ضد تجمّع كردي في مدينة أربيل. وتُعتبر عشيرة الدليم التي تتحدّر منها سجى واحدة من أكبر العشائر في العالم العربي، إذ تضم قرابة سبعة ملايين شخص، وهو أمر فائق الأهمية نظراً إلى حملة الصحوات التي رعاها الأميركيون بدءاً من العام ٢٠٠٦ والتي قادت إلى تراجع في نفوذ تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين عندما اقتنع قادة عشائر عراقية بالانقلاب على الجهاديين. ولذلك فإن صلة البغدادي بالدليم من خلال زوجته، إضافةً إلى صلات عشيرته هو، ربما تؤمّن له حماية وولاء أكبر.

وكُشفت هوية سجى الدليمي عندما تم تصويرها خلال عملية تبادل للسجناء. فقد تم تبادلها في إطار اتفاق مع النظام السوري أمّن الإفراج عن مجموعة من الراهبات اللواتي خطفتهن جبهة النصرة من دير معلولا قرب دمشق. وكانت واحدة من السجينات اللواتي أفرجت عنهن حكومة الأسد سجى الدليمي، بحسب تقارير إعلامية. وكما قال أبو معن السوري، عضو جبهة النصرة، فإن زوجة البغدادي كانت مسجونة مع اثنين من أولادها وشقيقها الصغير.

المسيرة نحو التشدد

عاش البغدادي في تسعينيات القرن الماضي بمسجد في حي طبشي، أحد الضواحي الفقيرة لبغداد. وما زال سكان الحي يتذكرون وصوله ويقولون إنه كان شاباً هادئاً ومهذباً. وقد نمّى البغدادي مهاراته كخطيب في هذا المسجد الصغير، وكان يتولى الخطابة وإمامة المصلين عند غياب الإمام الأصلي.

ويحب البغدادي الرياضة، مثل بن لادن. في حالة بن لادن كانت كرة السلة هي رياضته

المحببة، في حين أن البغدادي يفضّل كرة القدم. ويقول معارف للبغدادي، بحسب ما نشرت صحيفة ديلي تلغراف البريطانية، إنه كان مهاجماً رائعاً، بحيث يتم إجراء مقارنة بينه وبين ليونيل ميسي، لاعب كرة القدم الأرجنتيني المشهور. لكن البغدادي لم يكن من النوع الذي يفتش عن اللعب والمرح، إذ يتذكر معارفه المحليون كيف كان متمسكاً بقيم الأصوليين، إذ فقد أعصابه لشدة الغضب في إحدى المرات عندما رأى رجالاً يرقصون مع نساء في حفلة عرس، كما اختلف مع المسؤولين عن مسجد حي طبشي عندما صار أصحابه محسوبين على حزب يعمل في الحقل السياسي وهو "الحزب الإسلامي"، علماً أن الأيديولوجية المتشددة للبغدادي تعتبر الأحزاب السياسية خارجة عن الدين. ونظراً إلى الولاءات العشائرية التي يتمتع بها مالك المسجد في حي طبشي، اضطر البغدادي إلى الرحيل عنه حيث بدأ يخطب في مسجد الإمام أحمد بن حنبل في سامراء والذي كان يتردد عليه عدد من المتشددين. والظاهر أنه في تلك الفترة بدأ يُعرف باسم "الشيخ إبراهيم"، وهو الاسم الذي يُعرف به حالياً في الأوساط الجهادية.

بعد الغزو الأميركي للعراق عام ٢٠٠٣ انتقل البغدادي إلى بلدة القائم الصغيرة في محافظة الأنبار. وبسبب استيائه من احتلال جنود غرباء لبلاده اعتمد البغدادي كنية أبو دعاء وانضمّ إلى جماعة متشددة تعمل في مقاومة الاحتلال، وربما تحت مظلة جيش أنصار السنّة. ويبدو من المرجّح جداً أنه في هذه الفترة تحديداً نشأت علاقته بأبو مصعب الزرقاوي ومجموعته الجهادية "التوحيد والجهاد" التي كانت تتمركز أيضاً في محافظة الأنبار. لكن لا يُعتقد أن البغدادي قدّم آنذاك أي مبايعة للزرقاوي.

في أواخر العام ٢٠٠٤ اعتُقل البغدادي للاشتباه في ضلوعه بـ"نشاطات للمسلحين"، وسجنه الأميركيون دون محاكمة في معسكر بوكا في الصحراء العراقية. وفي هذا المعسكر حصل اللقاء الأول بين مصدري والبغدادي، بعدما كان قد تم استجوابه في سجن "أبو غريب" قبل إرساله إلى بوكا، وهي العملية التي اعتاد الأميركيون القيام بها آنذاك.

وإذا لم يكن البغدادي قد تحوّل إلى التشدد قبل دخوله السجن، فإنه بالتأكيد صار كذلك خلال فترة اعتقاله التي قابل خلالها العديد من أفراد تنظيم القاعدة. وبما أنه مدرّس للقرآن الكريم، فقد تولى البغدادي إعطاء دروس ومحاضرات للعديد من المتشددين العراقيين والأجانب الذين كانوا معتقلين معه في معسكر بوكا.

وبحسب العديد من المصادر فقد تمّ الإفراج عنه في العام ٢٠٠٦، على رغم أن هناك معلومات متضاربة في شأن هذا التاريخ بما في ذلك تقارير مسؤولي الاستخبارات الأميركيين التي تفيد أن الإفراج عنه لم يتمّ سوى في العام ٢٠٠٩، لكن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً نظراً إلى التسلسل التاريخي الذي سيرد هنا. فقد شارك في تأسيس مجموعة جديدة متشددة

تدعى جيش أهل السنّة والجماعة، وكانت ناشطة في المناطق المحيطة بديالى وبغداد وسامراء – التي اعتاد الخطابة في مسجدها، كما ورد سابقاً. وتولى البغدادي مسؤولية اللجنة الشرعية في جيش أهل السنّة والجماعة.

وعلى رغم قربه من بعض قادة تنظيم القاعدة ببلاد الرافدين، إلا أنه لم يبايع الزرقاوي ولا خليفته أبو حمزة المهاجر. وقد أبدى البغدادي إعجابه واحترامه الشديد للأخير، ووصفه – على ما يقول مصدري – بأنه "قائد حكيم" لأنه سعى إلى تجنّب الصراع بين المجموعات الجهادية المختلفة التي كانت تشارك في القتال في العراق آنذاك. وكان المهاجر هو من أقنع الزرقاوي بأن يبايع أسامة بن لادن وتولّى شخصياً أخذ البيعة منه نيابةً عن زعيم القاعدة. عندها قدّم أبو حمزة المهاجر بيعة خاصة للزرقاوي – "بيعة عسكرية" حيث بايعه وقدّم الولاء له كقائد عسكري وليس كقائد ديني أو روحي.

وعندما قُتل الزرقاوي عام ٢٠٠٦، وافق البغدادي، بناءً على دعوة من أبو حمزة المهاجر، على أن يضم مجموعته الجهادية إلى مظلة مجموعة أكبر هي مجلس شورى المجاهدين. وقد ضم هذا المجلس ضمن صفوفه تنظيم القاعدة وسرعان ما أعيدت هيكلته ليصبح الدولة الإسلامية في العراق. وكان البغدادي عضواً في اللجنة الشرعية في هذا التنظيم الجديد إضافةً إلى كونه أحد أعضاء مجلس الشورى. وعندما أعلنت الدولة الإسلامية في العراق كان ضرورياً، بحسب ما قرر قادتها، أن يتولى زعامتها عراقي، نظراً إلى أن شرائح من المواطنين العراقيين العاديين إضافةً إلى قادة جماعات من الثوار العراقيين كانوا قد بدأوا ينظرون بارتياب إلى هيمنة أعداد كبيرة من المقاتلين الأجانب على شؤون بلدهم. وقد تمّ بالفعل اختيار عراقي لزعامة الدولة الوليدة: أبو عمر البغدادي. ينتمي الأخير، مثل أبو بكر البغدادي، إلى عشيرة متفرعة من قبيلة قريش، وقد بايعه أبو بكر أميراً للدولة الإسلامية في العراق. وعُيّن أبو حمزة المهاجر، وهو غير عراقي، مسؤولاً عن تمثيل الجهاديين غير العراقيين في عضوية مجلس شورى الدولة الإسلامية. وقد نمت علاقة مبنية على الاحترام المتبادل بين المهاجر وأبو بكر، إلى الدرجة التي اقترح فيها الأول "ترقية" الثاني إلى منصب نائب أمير الدولة الإسلامية، علماً أنه كان آنذاك قد بات المشرف العام على عمل اللجنة الشرعية في هذه الدولة.

وعندما قُتل أبو عمر البغدادي بغارة أميركية عام ٢٠١٠، اختير أبو بكر أميراً للدولة الإسلامية في العراق خلال اجتماع لمجلس الشورى انعقد في نينوى بشمال العراق. وعلى رغم أنه كان هناك جهاديون أكبر منه سناً وأكثر خبرةً يمكن أن يتم اختيارهم لتولي إمارة الدولة، فقد اختار تسعة من أصل ١١ عضواً في مجلس الشورى المنعقد أن يولّوا أبو بكر القيادة خلفاً لأبو عمر.

وفجأةً تحوّل البغدادي من شخص هادئ، ورع، وغير معروف على نطاق واسع، ليصير

قائداً لإحدى أكثر الجماعات إثارةً للرعب في العالم. وعلى رغم ذلك، فإن هناك من بين معارفه من يؤكّد أنه لم يحب أبداً أن تُسلّط الأضواء عليه وما كان ليقدّم نفسه ليتولى زعامة الجماعة.

قيادة صارمة

مثل كل القادة العظماء، سواء كانوا من الإسلاميين المتشددين أو حتى من الأباطرة الفرنسيين، فقد عرف البغدادي "كيف يستغل الفرصة عندما تحين". فقرر أن يستغل الفوضى التي اندلعت في سوريا خلال الثورة ضد حكم بشار الأسد لكي يُنشيء "فرعاً" لجماعته هناك، وسرعان ما أسّس تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام وسيطر على مساحات شاسعة من الأراضي حتى قبل أن تعرف المعارضة السورية أو نظام الأسد ما الذي يحصل بالضبط، وقد أقام معقلاً أساسياً لمقاتليه في الرقة التي كانت قد وقعت كلياً في أيديهم.

ومنذ البداية اعتمد البغدادي أسلوباً عسكرياً صلباً، مفضّلاً تكتيك هجمات "الكر والفر" والإغارات الشاملة. وبسرعة البرق، انطلقت الدولة الإسلامية في العراق والشام تطبّق سياسة نهب الأموال من المصارف، والتحكم بحقول النفط في محافظة دير الزور. وكان البغدادي يعرف أن القاعدة تحت قيادة أسامة بن لادن كانت في أيام عزها ثرية جداً وبالغة التجهيز. ومثل هذه الميزات كان عاملاً مساعداً في تجنيد الأعضاء الجدد (يمكن دفع رواتب لهم) كما أنه يساعد في توسيع نطاق عمل الجماعة (من خلال تجهيزات عسكرية واستخباراتية متطورة). في حالة القاعدة، كان معظم المال الذي أنفق على هذا التنظيم من جيب بن لادن شخصياً ونتيجة العلاقات التي نسجها مع خليجيين. أما البغدادي فقد قرر تمويل جماعاته ببلايين الدولارات التي يتم نهبها أو الحصول عليها من أي مصدر كان.

بعد ذلك لجأ البغدادي إلى الوقوف في وجه قيادة القاعدة. تجاهل أمر زعيم القاعدة الجديد أيمن الظواهري بأن يحصر نشاط مقاتلي تنظيمه في داخل العراق وليس سوريا، ليقوم فعلياً بتحدي الظواهري في قيادة جيش من الجهاديين العالميين كان يحتشد على جانبي الحدود العراقية – السورية. وبدا واضحاً أن البغدادي عازم على انتزاع قيادة الحركة الجهادية العالمية من الظواهري الذي كان قد شارك في إطلاقها عام ١٩٩٨ في جبال الهندوكوش بأفغانستان.

وبعكس صورته كهادىء وورع، كان البغدادي يعرف أن عليه أن يستخدم البطش أو العنف الشديد لنيل ما يسعى إليه. وهكذا انطلقت الآلة الدعائية للدولة الإسلامية في العراق والشام مستخدمةً شبكة الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي لبث حملة مقززة تتضمن نشر

صور مذابح وقطع رؤوس وإعدامات علنية وقطع أطراف معتقلين.

وقد ساعدت خلفية البغدادي كعالم في علوم القرآن والفقه في إعطاء بعض الشرعية الدينية لجماعته في تطبيقها الصارم لمفهوم القضاء. وفي ظل واقع أن السكان في كل من العراق وسوريا كانوا مستائين من غياب سلطة القانون في مناطق واسعة من البلدين وانتشار الخوف بينهم من قطاع الطرق والمجرمين، فقد كان البغدادي يعرف أن لجوء الدولة الإسلامية إلى تطبيق القانون سيكون موضع ترحيب شعبي، حتى ولو كان هناك استياء من الصرامة التي يتم بها ذلك. فقد حصل أمر شبيه في أفغانستان من قبل، عندما فرضت حركة طالبان القانون بطريقة متشددة بحسب فهمها لتعاليم الدين الإسلامي، لكن ذلك لقي ارتياحاً بين الأفغان الذين كانوا يعانون من انعدام الأمن والفوضى بعد سنوات الحرب الأهلية.

وتمّثلت الخطوة الأكثر جرأةً بإعلان جماعة البغدادي تنصيبه خليفة وإعلانها قيام دولة الخلافة في بداية رمضان ٢٠١٤، ومن ثم تقديم البغدادي نفسه لعموم المسلمين من خلال الظهور العلني في المسجد الكبير في الموصل التي كان تنظيم الدولة الإسلامية قد سيطر عليه قبل أيام فقط من ذلك. وبحسب البيانات التي صدرت عن دولة "الخلافة" منذ ذلك الوقت، فإن نظرتها إلى العالم لا تقتصر على سوريا والعراق بل تسعى إلى الهيمنة على الكرة الأرضية كلها، بما في ذلك روما، عاصمة المسيحيين حيث يقع مقر بابا الكاثوليك، ومكة والمدينة، المدينتان المقدستان لدى المسلمين. هل الخليفة فعلاً صاحب رؤية مستقبلية أم أنه مصاب بجنون العظمة؟ وفي حين أن الإعلام الغربي يعرف أين يقف من هذا السؤال، فإن كثيرين في العالم العربي لم يحسموا أمرهم بعد.

الشعبية

في أوج نجاحاتها كان اسم القاعدة لا يكاد ينفصل عن اسم زعيمها أسامة بن لادن. وعلى رغم أن الجماعات الجهادية تحرص حرصاً كبيراً على أن تدرّب شخصاً أو شخصين للنيابة عن كل شخص في موقع قيادي، إلا أن تنظيم القاعدة عانى في شكل لا يمكن نفيه من خسارة زعيمه بن لادن، صاحب الشخصية الكاريزماتية، وحلول الدكتور أيمن الظواهري، صاحب الشخصية الصارمة العنيدة، محله. والواقع أن أكثر الحركات الشعبية نجاحاً كان لديها دائماً زعيم أسطوري، مثل تشي غيفارا، المهاتما غاندي، ونلسون مانديلا - وأنا هنا لا أقارن البغدادي بهؤلاء الرجال الذي ناضلوا من أجل قضايا مختلفة تماماً.

جرأة البغدادي، تحديه لخصومه، صموده، وصيته الذائع بأنه صاحب استراتيجيات ذكية لإدارة المعارك (التي خاض الكثير منها وحقق فيها انتصارات) أكسبته آلاف المعجبين في

أنحاء العالم الإسلامي – على سبيل المثال، أظهرت استطلاعات للرأي أن ٩٢ في المئة من السعوديين راضون عنه. وكما في حال بن لادن، صار في الإمكان رؤية صور البغدادي وعلم "الشهادة" الأسود والأبيض الذي جعله تنظيم الدولة الإسلامية رمزاً مرتبطاً بالدم، مطبوعين على العديد من البضائع المعروضة للبيع، مثل قمصان الـ"تي شيريت" وأكواب الشاي والشارات، والتي كانت كلها معروضة للبيع بحرية على موقع فايسبوك، قبل أن يتم حذف صفحة البائع نتيجة شكاوى ضده في حزيران/ يونيو ٢٠١٤.

ويستفيد البغدادي أيضاً من تأييد شبكة واسعة من التحالفات العشائرية. فكما سبق ذكره، تنتمي زوجته إلى عشيرة الدليم التي تضم سبعة ملايين شخص. أما نفوذ البغدادي داخل عشيرته – وهي نفس عشيرة سلفه أبو عمر البغدادي القرشي – فهو أيضاً نفوذ لا يستهان به، إذ سارع أعيان العشيرة فوراً إلى إعطائه البيعة بعد تنصيبه خليفة وإعلان قيام دولة الخلافة في تموز/ يوليو ٢٠١٤. وهناك من يقول إن عشائر من سامراء وديالى كانت قد أعلنت فوراً دعمها للدولة الإسلامية في العراق تحت زعامه أبو عمر، انطلاقاً من ولائها لأبو بكر، وهو ولاء يُرجّح أنه ما زال مستمراً حتى اليوم.

وكما ذكرنا سابقاً، فإن الظهور العلني لأبو بكر البغدادي وأشرطته المرئية لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة منذ تولى قيادة الدولة الإسلامية في العراق خلفاً لأبو عمر. وكان "الظهور" الأول العلني للبغدادي كناية عن رسالة رثاء لأسامة بن لادن في ٩ أيار/ مايو ٢٠١١. وعلى مدى السنتين والنصف التالية لم يصدر عنه سوى أربعة أشرطة سمعية. وهو لم يظهر في شريط فيديو سوى بعد إعلانه قيام الدولة الإسلامية وتنصيبه خليفة في المسجد الكبير في الموصل في تموز/ يوليو ٢٠١٤. وبغضّ النظر عن الدوافع البراغماتية والأمنية التي ناقشناها سابقاً، فإن غيابه لسنوات عن شاشات التلفزيون العالمية وأجهزة الكمبيوتر الشخصية أدى بلا شك إلى نشوء ألغاز حول شخصيته وجعل منه بمثابة الأسطورة.

ومثل أسامة بن لادن أيضاً، صارت شخصيته الأسطورية محوراً لثناء الشعراء الجهاديين. ولعل من بين أشهر الأناشيد التي كُتبت في مدحه ومدح دولة الخلافة التي يقودها نشيد "رصّوا الصفوف وبايعوا البغدادي" الواسع الانتشار على مواقع الجهاديين على شبكة الانترنت.

الفصل الثالث

الجذور العراقية

"الدولة الإسلامية" التي حملت هذه التسمية رسمياً في حزيران/ يونيو عام ٢٠١٤ بعد استيلاء قواتها على مدينة الموصل، ومبايعة أبو بكر البغدادي في مسجدها الكبير "خليفة"، هذه الدولة لم تنشأ من فراغ، ولا أجنداتها الإسلامية المتشددة التي وجدت في دولتين علمانيتين مثل العراق وسورية الحاضنة الحنون والمناخ الملائم للنمو والتوسع.

إن نجاح الدولة ونشوءها بالسرعة المفاجئة يعود إلى عدة عوامل أساسية معقدة ومتعددة وأحداث وظروف غير مسبوقة، ولذلك سنركّز في هذا الفصل على الجذور التاريخية الحديثة لصعود هذه الدولة في العراق أولاً، وفي سورية ثانياً.

الفوضى، عدم الاستقرار، الطائفية، سوء التقدير، الظلم، الإقصاء، التدخلات الإقليمية والدولية، العداء للإسلام، الرغبة في تفتيت الدول العربية المركزية عناوين الحضارة ومحور الإمبراطوريات، كلها عوامل، متفرقة أو مجتمعة، قدمت الفرصة الذهبية لـ"الدولة الإسلامية" للنشوء والتوسّع وبذر بذور نواتها الأولى في منطقة شاسعة من الأراضي تمثّل ثلث مساحة سورية (الرقة ودير الزور وجوارهما) وربع أرض العراق (الموصل والرمادي وصلاح الدين)، أو ما يعادل ثلاثة أضعاف مساحة إنكلترا التي كانت في يوم من الأيام إمبراطورية عظمى لا تغيب عنها الشمس.

وتتحمل السياسة الخارجية الأميركية وتدخلاتها "غير المقصودة" في التسعينيات (حرب الكويت) وأوائل القرن الواحد والعشرين (احتلال العراق عام ٢٠٠٣) المسؤولية الكبرى في هذا الصدد. فلم تدخل القوات الأميركية بلداً في الشرق الأوسط، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة، إلا وحولته إلى فوضى دموية وغابة من السلاح والصراعات المذهبية والطائفية

والعرقية بغضّ النظر عن عناوين هذا التدخل ومسمياته.

قبل غزو العراق في آذار/ مارس ٢٠٠٣، وقبل أحداث الربيع العربي وثورته في سورية في آذار/ مارس عام ٢٠١١، كان حزب البعث العلماني المرتكز على الإيديولوجية القومية العربية يسيطر على البلدين لعقود. فقد تأسس الحزب في سورية في الأربعينيات، بينما ظهرت صورته وتبلورت في العراق عام ١٩٥١، وجاءت الانقلابات العسكرية بالحزب في البلدين إلى سدة الحكم عام ١٩٦٣، ولكن بمحض الصدفة وليس نتيجة تنسيق.

صدام حسين، ومن خلال أحمد حسن البكر، وصل إلى السلطة رسمياً بعد انقلاب عام ١٩٦٨، وحافظ الأسد في انقلاب آخر في سورية عام ١٩٧٠ تحت مسمى الثورة التصحيحية، وورّث الحكم لنجله الحالي بشار الأسد عام ٢٠٠٠.

هناك قواسم عديدة مشتركة بين نظامي حزب البعث في سورية والعراق، ولكن القاسم الأبرز، في رأينا، كان محاربة الإسلام السياسي بشراسة ودموية، وعدم السماح له بمجرد الوجود بأي صورة من الصور، باعتباره مصدر التهديد الأخطر على الحكم، وواجه كل من حاول رفع راية الإسلام السياسي القمع والسجن والتعذيب والتصفية الجسدية في الكثير من الأحيان، ومجزرة حماة التي استهدفت الإخوان المسلمين عام ١٩٨٢ كانت أحد الأمثلة حيث تتراوح أعداد القتلى بين ٢٠ - ٣٠ ألفاً، أعقبها تجريم كامل للحركة وفرض عقوبة الإعدام على كل من يعتنق فكرها.

الحرب الأميركية الأولى في العراق، التي اتخذت من "تحرير الكويت" عنواناً وغطاءً عام ١٩٩١، لإخراج قوات صدام حسين من هذه الإمارة النفطية التي احتلتها، كانت بداية حقيقية لبدء ظهور الإسلام السياسي في صورته الحالية، حيث بدأ الشيخ أسامة بن لادن عملية إعادة تجميع المجاهدين العرب في مزارعه في السودان، ومعظمهم من زملائه الذين قاتلوا معه في أفغانستان، لوضع النواة التأسيسية الأولى لتنظيم "القاعدة"، وإطلاق "الحركة الجهادية" لإخراج القوات الأجنبية "الكافرة" من الجزيرة العربية أولاً، وإسقاط الأنظمة المتواطئة معها (النظام السوري بالذات) ومن ثم النظام المصري بقيادة حسني مبارك في حينه، وإقامة دولة "الخلافة الإسلامية".

وإذا كانت الحرب التدميرية لأفغانستان، التي جاءت كردّ فعل مباشر على هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، قد نجحت في إزالة أول إمارة إسلامية من الحكم (طالبان) في تشرين الأول/ أكتوبر عام ٢٠٠١، ودمّرت أكثر من تسعين في المئة من البنى التحتية لتنظيم القاعدة، وشتّتت مقاتليه الذين انتهوا إما قتلى (شهداء) أو معتقلين في سجون أميركا (غوانتانامو) أو مشرِدين متخفين في باكستان وإيران وعدة دول أخرى، فإن الغزو الأميركي للعراق واحتلاله شكل بداية الصعود القوي للإسلام الجهادي، ووفّر له القاعدة والمبررات

الأخلاقية والإيديولوجية والملاذ والسلاح الذي كان بحاجة ماسة إليه بعد عامين من التيه والانخراط في عملية تجنيد للأتباع وتنظيمهم في مجموعات قتالية ضد الاحتلال.

صحيح أن الإسلام الجهادي في صورته الحقيقية تبلّور في صورته الأولى في أفغانستان في مرحلته الأولى في إطار الجهاد الأفغاني لإخراج القوات السوفييتية، وفي صيغته الثانية بانتقال الشيخ بن لادن من الخرطوم إلى قندهار وتورا بورا واتّخاذ أفغانستان منصة لشنّ عمليات انتحارية (استشهادية) على أهداف أميركية (الهجوم على قاعدة الخبر الأميركية في شرق المملكة العربية السعودية عام ١٩٩٦، ثم بعد ذلك على سفارتي أميركا في نيروبي ودار السلام في آي/ أغسطس عام ١٩٩٨، ثم الهجوم على السفينة البحرية الأميركية إس. إس. كول في خليج عدن عام ٢٠٠٠، وأخيراً أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر)، ولكن الصحيح أيضاً أن الولادة الحقيقية للإسلام السياسي الجهادي بصورته الحالية المتمثلة في "الدولة الإسلامية" تمّت في العراق بعد الغزو والاحتلال الأميركيين، لأن هذا الاحتلال حقق النقلة الأهم في تاريخه، ايديولوجياً وجغرافياً، أي نقله من أفغانستان إلى قلب الوطن العربي.

الشيخ أسامة بن لادن خطط مبكراً لهذه الانتقالة عندما كان يعكف على صياغة الفكر الإيديولوجي لتنظيم القاعدة والأهداف القريبة والبعيدة له، وقد قال لي بالحرف الواحد عندما التقيته في أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٩٦ في كهفه المفضل في تورا بورا في سلسلة الجبال المطلة على جلال آباد: "أنا لا أستطيع هزيمة أميركا في عقر دارها، لكنني أستطيع هزيمتها في عقر ديار الإسلام لو نجحت في جرّها لقتالها على أرضنا العربية الإسلامية". ويبدو أنه نجح، ومن ثم خلفاؤه من بعده، في تحقيق هذا الهدف باستفزاز أميركا لغزو العراق، ثم إعلان الجهاد ضدها، والانتصار عليها بإلحاق أكبر هزيمة بها في القرن الحالي، وإجبارها على الانسحاب تقليصاً للخسائر.

في العراق كانت الحرب عبارة عن حرب استنزاف مادية وبشرية ضد القوات الأميركية وحلفائها، وفي سورية كانت حرباً تشكل مزيجاً من الحرب الطائفية والسياسية والإيديولوجية والصراع على السلطة، كلٌ حسب معتقداته وأجندات الدول والجهات الداعمة وأرضية التقاء المصالح والأهداف. فمن يحاربون لأهداف مذهبية حاربوا النظام لأنه علوي شيعي في نظرهم، ومن يحاربون لأسباب ديموقراطية وجدوا في ديكتاتوريته الملاذ والذريعة، وبين الاثنين "اندسّ" من ينفذون مشروع تفكيك المراكز العربية الرئيسية لمصلحة إسرائيل قوية في محيط إقليمي ضعيف متحارب.

احتضان "الدولة الإسلامية" في صورتها الأولى انطوى على عنصر كبير من "الواقعية" البراغماتية من قبل أبناء الطائفة السنّية المحبطين والمهمّشين من قبل النظام الطائفي المركزي في بغداد خصوصاً، وبدرجة أقل في دمشق. فنسبة كبيرة من أبناء الطائفة السنية، خاصةً من

عاشوا في بيئة علمانية وتماهوا مع نظام صدام حسين البعثي، لم ينظروا نظرة معادية للتطبيق المتشدد والدموي للشريعة الإسلامية من قبل حكم الدولة الإسلامية، لأنهم كانوا يعطون الأولوية لوجود جيش قوي مسلح تسليحاً جيداً يتصدى للنظام الطائفي الحاكم في بغداد ويرفع الظلم والإقصاء والتهميش الممارس عليهم من قبل هذا النظام، حسب ما يمكن استخلاصه من أدبياتهم وتصريحاتهم. وهذا ما يفسّر التعايش، بل التحالف، مع "الدولة الإسلامية" في المراحل الأولى، في إطار سياسة إعادة ترتيب سلم الأولويات.

ومثلما هو حال جماعات إسلامية أخرى، مثل حركة طالبان وحركة الإخوان المسلمين قبلهم، حصلت "الدولة الإسلامية" على قبول قطاع عريض من المواطنين المحليين من خلال حفظ النظام والأمن وتقديم الطعام والخدمات الطبية والاجتماعية في المناطق التي تسيطر عليها في كل من العراق وسورية. وهذا لا يعني أن هناك شريحة من المواطنين غير راضية، بل ومتذمرة، على طريق حكمهم، ولكنها وافقت على هذا الحكم على مضض نتيجة الخوف من العقاب الصارم.

وجاءت الخلفية الاستعمارية الغربية، ومواقف الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى التي تعكس نظرية عنصرية ومعادية وتعيد التذكير بالغزو الصليبي، العمود الفقري في أدبيات حركات الإسلام الجهادي، كأحد الأوراق القوية في التجنيد للأتباع والشبان الجدد. فعندما يقول جورج بوش الابن، الرئيس الأميركي السابق، قبيل غزوه للعراق عام ٢٠٠٣: "إن الله أمرني بغزو العراق فغزوته"، وقوله أيضاً إنه سيقوم بحملة صليبية في المنطقة العربية، ويقدّم كل الدعم لاسرائيل، فإن هذا يسهّل مهمة هذه الجماعات الجهادية في تصعيد حالة العداء للغرب، وشحن همم الشباب للجهاد ضد الغرب والأنظمة العربية المتواطئة معه.

لم يمثّل أي تنظيم جهادي إسلامي متطرف العنف والقسوة والدموية في التعاطي مع الخصوم مثل "الدولة الإسلامية"، ويأتي هذا نتيجة الإحباط والقهر والشعور بالإهانة والإقصاء. ومثل هذا النهج يقوى ويتصاعد مع تحقيق انتصارات عسكرية على الأرض، ويتحول إلى عنصر جذب لآلاف المتطوعين الشباب الذين يريدون أن يكونوا جزءاً منه.

صِدام الشخصيات

في أيار/ مايو عام ٢٠١١ تلقّت الحركة الجهادية ضربة قاسية باغتيال الشيخ أسامة بن لادن من قبل وحدة كوماندوس أميركية تحمل اسم "عجول البحر" (Seals) هبطت بطائرات عمودية على المنزل الذي كان يختبئ فيه في مدينة أبوت آباد قرب العاصمة الباكستانية إسلام آباد. هذا الاغتيال أدّى إلى ظهور خلافات بين أجنحة تنظيم "القاعدة" انعكس في

تأخير إعلان اختيار الدكتور أيمن الظواهري خليفةً له.

الشيخ أسامة بن لادن كان يحظى بمكانة خاصة بين الغالبية الساحقة من الجهاديين الإسلاميين، بما في ذلك الذين اختلفوا معه عقائدياً، حتى حول صوابية تنفيذ هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر من عدمها، مثلما هو حال أبو مصعب السوري وآخرين. وقد سمعتُ من مصادر إسلامية موثوقة أن الشيخ عمر أبو عمر (أبو قتادة) كان من معارضي هذه الهجمات في مجالسه الخاصة ولكنه لم يقل ذلك في العلن. ولكن لم يحظَ الدكتور الظواهري بمثل هذا الإجماع. وكان يعي ذلك جيداً، وكتب أكثر من مرة بيانات تحذّر من الانقسام والاقتتال الداخلي بين أجنحة "القاعدة" والمخاطر التي يمكن أن تترتب على ذلك بما فيها تدمير التنظيم. ومن المفارقة أن بعض سياساته ومواقفه الأخيرة، وخاصةً حلوله للخلاف بين أبو بكر البغدادي زعيم الدولة الإسلامية وأبو محمد الجولاني قائد جبهة "النصرة" الوسطية، أدّت إلى انسحاب الأول من تنظيم القاعدة وشنّ حرب شعواء ضدها، وانضمام الثاني، أي الشيخ الجولاني، إلى المعسكر الآخر المعادي للدولة الإسلامية، والانخراط في حرب شرسة ضد "الدولة"، حليفته السابقة، التي تتبنى أيديولوجية تنظيم القاعدة المركزي.

ناصر البحري (أبو جندل)، الحارس الشخصي للشيخ بن لادن في أفغانستان الذي قضى سبع سنوات قريباً من الدكتور الظواهري، أكّد أنه لا يملك المواصفات القيادية الشخصية لإدارة تنظيم "القاعدة"، وأن أعضاء كثيرين في التنظيم أبدوا معارضتهم لقيادته، رغم أن آخرين يقولون عكس ذلك ويؤكدون أنه يملك مواصفات قيادية متميزة، ولكنها لم تظهر بالشكل المطلوب لأنه تولى قيادة التنظيم وهو في حالة ترحّل وتخفٍّ لتجنّب وصول الأميركيين ومخابراتهم إلى مخبئه على غرار ما حدث مع شيخه بن لادن.

صحيح أن الدكتور الظواهري لا يملك "الكاريزما" التي يملكها الشيخ بن لادن، وهو ما جعل تأثيره على أعضاء التنظيم الشباب والمتشددين منهم خصوصاً محدوداً للغاية. ولكن الصحيح أيضاً أنه لم ينازع شيخه مطلقاً على القيادة، ولم يحاول أن يتجاوزه، بل إنه حاول طمس شخصيته لمصلحة إعلاء شأن وشخصية قائده. وأنا أعرف شخصياً أنه كان يشارك في كتابة خطاباته ويشرف على تسجيلات أشرطته في المرحلة التي سبقت هجمات نيويورك وواشنطن عندما كانا لا يفارقان بعضهما البعض.

تقديم البيعة للدكتور الظواهري تأخّر ثلاثة أشهر بسبب الجدل الحاد في أوساط مجلس شورى الدولة الإسلامية، وجرى الاتفاق في نهاية المطاف على تقديمها الولاء لقائد القاعدة الجديدة من خلال بيان أذاعه أبو محمد العدناني واتّسم بالبرود وعدم الحماس، وقال بالحرف الواحد: "أرسل أحرّ التهاني إلى مقام سماحة الشيخ الخبير والحكيم وصاحب

السمعة القيادية المعروفة قائد الأمة الدكتور أيمن الظواهري، ونتضرع إلى الله أن يحفظه ويباركه ويسدّد خطاه في قيادته للتنظيم". ولاحقاً انقلب الشيخ العدناني ضد الدكتور الظواهري واتّهمه بأنه ضلّ طريقه عن الطريق الذي رسمه الشيخ بن لادن وتبناه "الدولة الإسلامية" عندما دبّ الخلاف بين الطرفين لاعتقاد الشيخ العدناني والخليفة البغدادي أن الدكتور الظواهري قد انحاز لجبهة النصرة.

انشقاق النصرة عن الدولة

في صيف عام ٢٠١١، وبينما كانت الانتفاضة ضد النظام السوري في ذروتها، أرسل السيد أبو بكر البغدادي "أمير" الدولة الإسلامية في العراق الشيخ أبو محمد الجولاني، أحد أبرز الشخصيات في الدولة، إلى سورية لتأسيس جماعة جهادية هناك للقتال من أجل إسقاط النظام، وهكذا تمّ تشكيل جبهة "النصرة" التي جرى الإعلان عنها رسمياً في كانون الثاني/ يناير عام ٢٠١٢.

خطوة السيد البغدادي هذه جرى اتّخاذها بعد التشاور مع الدكتور الظواهري، زعيم "القاعدة"، الذي باركها وأيّدها. واتّفق الطرفان على أن تظل العلاقة بين تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والجبهة الجديدة (النصرة) غامضة بسبب الخلفية التاريخية لتنظيم "القاعدة" وإرث هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ لتسهيل تجنيد مقاتلين إلى صفوفها، وتجنّب حدوث حساسيات في أوساط الجماعات الأخرى المقاتلة للنظام. ومع نهاية العام ٢٠١٢ أصبحت جبهة "النصرة" من أكثر الفصائل المسلحة تنظيماً وانضباطاً وفاعلية على الساحة السورية، والأهم من ذلك إدارتها المتميزة للمناطق الواقعة تحت سيطرتها، وتطبيق الشريعة بشكل محكم وإقامة محاكم شرعية للبتّ في النزاعات والمشاكل بين المواطنين، واجتثاث الفساد، وتقليص الجرائم إلى حدود الدنيا.

في شهر نيسان/ أبريل عام ٢٠١٣، وبينما تعززت مكانة جبهة النصرة محلياً وحظيت باحترام كبير رغم محاولات الإعلام الرسمي السوري المكثفة لتشويهها، أعلن السيد أبو بكر البغدادي، ومن جانب واحد، أن الدولة الإسلامية في العراق وجبهة النصرة قررا الاندماج في تنظيم واحد تحت اسم الدولة الإسلامية في العراق والشام. قائد جبهة النصرة السيد أبو محمد الجولاني رفض هذا الاندماج وقدّم "البيعة" للدكتور أيمن الظواهري، جاعلاً من جبهة النصرة جزءاً من تنظيم القاعدة الأم. وعلينا أن نتذكر أن السيد البغدادي لم يقدم البيعة مطلقاً للدكتور الظواهري زعيم "القاعدة".

السيد البغدادي كان في تلك اللحظة قد بعث بالآلاف من مقاتليه إلى سورية تحت اسم

الدولة الإسلامية في العراق والشام، وبدأت علامات الانشقاق عن تنظيم القاعدة وزعيمه الظواهري تظهر بقوة إلى العلن، وكان واضحاً أن السيد البغدادي بدأ يضع نفسه في موضع المنافس للدكتور الظواهري ويضع عينه على "دولة الخلافة" على جانبي الحدود السورية العراقية. وعندما طلب الدكتور الظواهري من الدولة الإسلامية سحب مقاتليها من سورية والتركيز على العراق فقط، تاركةً مسؤولية القتال في سورية لجبهة النصرة، وجّه له السيد البغدادي إهانة غير متوقعة عندما قال إنه لا يعترف بالحدود المصطنعة بين سورية والعراق التي رسمها الكفار وفق اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٧.

الانقسام الإيديولوجي بين الدولة الإسلامية في العراق والشام وجبهة النصرة وبين السيد البغدادي والدكتور الظواهري بدأ يطفو على السطح، وبدأت الدولة الإسلامية في العراق والشام تطبق خطتها في الاستيلاء على الأراضي، وبدء اتخاذ الخطوات اللازمة لإعلان الخلافة، معتقدةً أن جميع المدن والبلدات والقرى التي تقع تحت سيطرتها يجب أن تقبل سلطتها وإيديولوجيتها الإسلامية. جبهة النصرة، في المقابل، ظلت تعتبر نفسها بأنها فصيل مقاتل إلى جانب فصائل أخرى على الأرض السورية لإسقاط النظام. وكان لافتاً أن جبهة النصرة كانت أكثر انضباطاً من الدولة الإسلامية في العراق والشام في تعاملها مع الآخرين. فعندما خطفت ثلاثين راهبة وبادلتهم بالإفراج عن ١٥٠ معتقلة سورية في سجون النظام، قالت الراهبات إنهن عوملن معاملة طيبة من قبل خاطفيهم، وأنهم استجابوا لكل طلباتهن.

استراتيجية جبهة النصرة كانت أقل تشدداً من نظيرتها في الدولة الإسلامية وتقوم وفق نظرية تقول إن الشريعة الإسلامية يمكن تطبيقها بشكل تدريجي وبطريقة مسؤولة بمضي الوقت، وربما هذا هو السبب الذي دفع معظم مقاتلي تنظيم النصرة الأجانب (غير السوريين) إلى الإعلان عن رغبتهم في الانضمام الى الدولة الإسلامية. وهذا ما حدث فعلاً.

الدولة الإسلامية في العراق والشام أصبحت أكثر تشدداً من أبو مصعب الزرقاوي نفسه في طائفيتها غير المتسامحة مطلقاً مع المذاهب الأخرى، وتطبيقها المتشدد جداً للشريعة الإسلامية وأحكامها، والغلو في العنف والتنفيذ الحرفي الصارم للحدود في حق المجرمين والزناة واللصوص، وتوسعت في الاستيلاء على الأراضي من التنظيمات المقاتلة الأخرى. ومع اقتراب نهاية عام ٢٠١٣ أعلنت معظم هذه التنظيمات، بما في ذلك جبهة النصرة، الحرب عليها، وتمكنت مجتمعةً من إخراجها من إدلب وحلب ودير الزور ولكن لفترة قصيرة.

حاول الدكتور أيمن الظواهري أن يحل الخلاف بين الدولة الإسلامية وجبهة النصرة، وبعث لجنة مصالحة مكونة من عدة قيادات إسلامية موثوقة للتوسط بين الجانبين المتصارعين وتوحيدهما تحت مظلة جهادية واحدة. وكان يتزعم هذه اللجنة الداعية السعودي المعروف

الشيخ عبد الله بن محمد المحيسني، والشيخ أبو خالد السوري رفيق الشيخ بن لادن منذ أيام الجهاد في أفغانستان، والمستشار الشرعي لجبهة النصرة الشيخ أبو سليمان المهاجر، وأحد قادة تنظيم أحرار الشام، ولكن اللجنة، وبعد اجتماعات مكثفة بين الجانبين، أي النصرة والدولة، توصلت إلى نتيجة مفادها أن المصالحة مستحيلة، وقررت إنهاء مهمتها بسبب تمسك كل طرف برأيه، وتبنّي تنظيم الدولة موقفاً معادياً للدكتور الظواهري والتشكيك في شرعية قيادته لتنظيم "القاعدة" وخلافته للشيخ بن لادن. وفي نيسان/ أبريل عام ٢٠١٤ قال الشيخ أبو محمد العدناني، المتحدث باسم تنظيم الدولة، في بيان رسمي "إن تنظيم القاعدة لم يعد قاعدة للجهاد الحقيقي، وإن قيادته أصبحت فأساً لتدمير مشروع الدولة الإسلامية والخلافة القادمة.. وإن قيادتها انحرفت عن الطريق الصحيح.. القاعدة تعتبر نفسها الآن هي غالبية الأمة وتطلب موافقتها والولاء لها على حساب العقيدة".

في مطلع عام ٢٠١٤ هيمنت الدولة الإسلامية على المعارضة السورية المسلحة، الأمر الذي دفع الدكتور الظواهري للتبرؤ منها في بيان أصدره في شباط/ فبراير عام ٢٠١٤، وقال فيه: "إن الدولة الإسلامية في العراق والشام ليست فرعاً لتنظيم القاعدة، ولا توجد بيننا وبينها أي علاقة تنظيمية، ولسنا مسؤولين عن أعمالها".

الشيخ أبو محمد العدناني، المتحدث باسم الدولة الإسلامية، ردّ على بيان الدكتور الظواهري هذا بشراسة وتحدٍّ، وقال موجّهاً كلامه له: "إذا قدّر الله لك أن تضع قدمك على أرض الدولة الإسلامية، وجبت عليك البيعة لقائدها والتحول إلى جندي من جنودها تحت راية أميرها الشيخ أبو بكر البغدادي".

الدولة الإسلامية بدأت الحرب على الجماعات المسلحة الأخرى، إلا إذا قدمت البيعة للأمير البغدادي، وتنبّأ الشيخ العدناني بأن جميع فروع تنظيم "القاعدة" ستقدّم واجبات الطاعة والولاء له كخليفة للمسلمين، وقال إن الملا محمد عمر زعيم التنظيم سيكون من المبايعين للخليفة البغدادي، وقال: "إن أرض الدولة الإسلامية باقية وتتمدد، حتى يقدم كل شخص البيعة للخليفة أبو بكر الحسيني القرشي البغدادي بما في ذلك أنت يا ظواهري وأنت يا ملا عمر".

السؤال الآن هو حول استجابة فروع "القاعدة" الأخرى للدولة الإسلامية حتى ذلك التاريخ؟

الآراء داخل فرع تنظيم القاعدة في المغرب الإسلامي كانت منقسمة. قائد التنظيم الشيخ عبد الملك دروكدال رفض إعلان الخلافة في حزيران/ يونيو عام ٢٠١٤ وجدّد بيعة للدكتور الظواهري، وفعل الشيء نفسه مختار بلمختار أمير فرع الصحراء الذي يحمل اسم "المرابطون"، ولكن جماعات أخرى في المغرب الإسلامي مثل "أنصار الشريعة" تبنّت

إعلان الخلافة وأيّدته. وقالت مصادر استخبارية فرنسية لصحيفة الفيغارو إن مجلس شورى "القاعدة" في المغرب الإسلامي منقسم على نفسه، وأن الانشقاق يبدو حتمياً، وهذا ما حدث بالفعل. فقد أعلن أبو عبد الله عثمان العاصمي، أحد أبرز القادة، نقل ولاءه من عبد الملك دروكدال إلى الدولة الإسلامية.

ورغم أن زعيم تنظيم "القاعدة" في الجزيرة العربية ناصر الوحيشي كان قريباً جداً من الشيخ أسامة بن لادن ونائبه الدكتور الظواهري، حيث عمل سكرتيراً خاصاً للأول عندما كانوا جميعاً سوياً في أفغانستان، إلا أنه أصدر بياناً، نشره على موقع "المنبر" الإلكتروني يوم ١٤ آب/ أغسطس عام ٢٠١٤، أعرب فيه عن تضامنه مع أشقائه المسلمين في العراق ضد الصليبيين، وقال فيه: "إن دماءهم وجراحهم هي دماؤنا وجراحنا وبكل تأكيد سنؤيدهم". ولاحظ المراقبون أن هناك تعاوناً وثيقاً بين الدولة الإسلامية والقاعدة في أرض الجزيرة العربية، حيث وصل مدربون وخبراء من الدولة الإسلامية إلى اليمن لتدريب شباب القاعدة فيها على الأعمال العسكرية والتفجير، وأن مقاتلين جهاديين يمنيين انضموا إلى الدولة الإسلامية وقاتلوا في صفوفها في العراق وسورية. ويعتبر تنظيم "القاعدة" في الجزيرة العربية هو ثاني أقوى فرع بعد تنظيم الدولة الإسلامية من حيث عدد المجاهدين وشدتهم. وقدم خبراء تنظيم "القاعدة" في جزيرة العرب خدمة كبيرة للدولة الإسلامية ومقاتليها من حيث تدريبهم حول كيفية تجنّب الطائرات بدون طيار "الدرون"، وتبادل الجانبان المعلومات والخبرات القتالية والعسكرية التكتيكية. واقترح الشيخ مأمون حاتم، أحد أبرز قيادات "القاعدة" في جزيرة العرب، إعلان اتحاد كامل بين التنظيمين، وقال ذلك على حسابه الشخصي على "التويتر"، حيث قال: "إني انتظر إعلان الوحدة والاسم الجديد، أي الدولة الإسلامية في العراق والشام والجزيرة العربية".

تنظيم أنصار الشريعة في ليبيا، المتهم بالوقوف خلف اغتيال السفير الأميركي في طرابلس كريستوفر ستيفنز عام ٢٠١٢، نشر بياناً على موقعه على الإنترنت أعلن فيه تأييد الدولة الإسلامية، وفعل الشيء نفسه تنظيم "أنصار بين المقدس" الذي يوجد مقره ويقوم بمعظم نشاطاته في صحراء سيناء وله علاقات قوية مع تنظيم الدولة الإسلامية. وذهبت منظمة "بوكو حرام" النيجيرية إلى أبعد من ذلك عندما أعلنت في ٢٥ آب/ أغسطس عام ٢٠١٤ انضمامها إلى الدولة الإسلامية، وأضافت بلدة مسيحية استولت عليها في شمال نيجيريا إلى أراضي دولة الخلافة.

متحدث باسم منظمة طالبان الباكستانية "تحريك طالبان" أعلن "أن موقفنا من الدولة الإسلامية واضح للعيان، نحن نؤيد هؤلاء المجاهدين في قتالهم من أجل بقاء الخلافة واستمرارها".

وبينما أيّدت شخصيات بارزة في تنظيم القاعدة في أفغانستان الدولة الإسلامية علانيةً، فإن حركة طالبان ناشدت جميع الأطراف بالوحدة وتشكيل مجلس شورى موحّد يضم جميع قيادات الجماعات الجهادية والعلماء والدعاة في الشام وتسوية الخلافات بين تنظيمي الدولة الإسلامية وجبهة النصرة. وقالت الحركة في بيانها نفسه إن على المسلمين تجنّب التطرف في العقيدة، والحكم على الآخرين بدون أدلة، وعدم الثقة ببعضهم البعض.

وطالب بالشيء نفسه، أي المصالحة، مختار أبو زبير قائد حركة الشباب الصومالية المتشددة. ومن المعروف أن هذه الحركة انضوت تحت لواء تنظيم "القاعدة" عام ٢٠١٢، وقدمت بيعة الطاعة والولاء للدكتور الظواهري، وهذا ما يفسر انحيازها للحلول التي اقترحها لحل الخلاف بين تنظيمي الدولة وجبهة النصرة، أي أن يقاتل كل طرف على أرضه.

وبدأ أبو زبير رسالته التي بثّها على موقع التنظيم على الانترنت حول موضوع الدولة الإسلامية بالمديح للدكتور الظواهري والملا محمد عمر. وطالب الجهاديين في سورية بـ"احترام قادة الجهاد وعلمائه، وأن يكون لهم رأي طيب بهم، وتقدير حقوقهم نحونا، لأننا جميعاً ثمار جهادهم وصمودهم".

والجدير بالملاحظة أنه عندما يكون هناك بيان واضح يؤيد الدولة الإسلامية، لا يوجد تأييد حازم وواضح للحرس القديم في تنظيم "القاعدة الأم"، أو هناك إدانة صريحة لتنظيم الدولة الإسلامية.

فشل جهود المصالحة أدّى إلى حدوث هجرة من قبل عناصر جبهة النصرة وجماعات إسلامية وأفرع تنظيم القاعدة في أماكن مختلفة من العالم الإسلامي نحو الدولة الإسلامية، وهي هجرة متزايدة، خاصةً من قبل العناصر المتشددة على مستويي القمة والقاعدة معاً.

الشيخ أسامة بن لادن

حرص الشيخ أسامة بن لادن طوال الوقت على التركيز في بياناته على القضية الفلسطينية وربط بين المقاومة العراقية وهذه القضية، وقال في بيان أصدره في آذار/ مارس عام ٢٠٠٨ إن أفضل طريقة لمساعدة العالم الإسلامي الشعب الفلسطيني وقضيته هو مساندة المقاومة العراقية وتقديم كل الدعم لها. وفي عام ٢٠١٠ بدأ في إظهار قلقه مع التغيير المناخي والكوارث التي تلحق بالمسلمين في أفريقيا وباكستان. وهذا الاهتمام بالتغيير المناخي والكوارث الطبيعية أظهرت أنه بات أقل اتصالاً، وربما فهماً، مع الجيل الجديد الذين باتوا مهمومين بالأوضاع وتطوراتها في العراق، وماذا سيحدث بعد انسحاب القوات الأميركية في ٣١ آب/ أغسطس ٢٠١٠.

إن وجود كل من الشيخ بن لادن والظواهري في حالة من التخفي والانخراط في أمنهما الشخصي، وتجنب الوقوع في أيدي مطارديهم من أجهزة الاستخبارات الأميركية، يفسّر هذا الانقطاع عن متابعة أحوال التنظيم وتطورات الأوضاع على الأرض في العراق خاصة. فالاتصالات المباشرة كانت مقطوعة، وسيطرتهم على القادة في ميادين القتال تراجعت. وربما يفيد التذكير بأن الرجلين، وخاصةً الشيخ بن لادن، كانا يتجنبان بطريقة صارمة استعمال أيٍّ من وسائل الاتصال الحديثة مثل الهواتف النقالة أو حتى الثابتة، خشية التقاط أجهزة الأمن الأميركية لها، والتعرف على مكان اختفائهم، ولهذا اعتمدا على الاتصال عبر الرسائل الشفهية أو المكتوبة للتواصل مع رجالهما.

قادة الدولة الإسلامية، في المقابل، جددوا بقوة حملتهم العسكرية ضد القوات الأميركية المحتلة في صيف عام ٢٠٠٩، ولوحظ تصعيداً كبيراً في عدد التفجيرات التي استهدفت مناطق شيعية وسفارات أجنبية وفنادق، وكان الهدف الأكثر وضوحاً هو تعميق الانقسامات الطائفية وخلق حالة من الفوضى الدموية والتفكك المناطقي حسب الخطة الموضوعة. وهذا يتضح من عملية تنقل السكان، حيث بدأ أبناء الطائفة السنية يتجمعون في مناطق معروفة بهويتها السنية الطائفية، وفعل أبناء الطائفة الشيعية الشيء نفسه، وانقسمت بغداد على أساس الاستقطاب الطائفي، وتكرر الشيء نفسه في مدن أخرى مختلطة، فالجنوب أصبح شيعياً في معظمه، والوسط والغرب سنياً، بينما أصبح الشمال كردياً.

العملية السياسية التي انبثقت من رحم الاحتلال الأميركي لم تحقق طموحات غالبية العراقيين، لأنها عمّقت من الفرز الطائفي، وجاءت الانتخابات بحكومة طائفية فاسدة وعاجزة، وأصبح التطرف الطائفي، خاصةً في أوساط السنّة، أكثر قبولاً كردّ على الحكومة المركزية الطائفية، الأمر الذي كانت تتمناه وتسعى إليه الدولة الإسلامية عندما اجتاحت العراق عام ٢٠١٤.

إن استراتيجية "الدولة" كانت على تناقض كبير مع تنظيم "القاعدة" الأم التي كانت تفضّل التركيز على الجهاد العالمي. ففي عام ٢٠٠٩ أعلنت الدولة الإسلامية استراتيجية أكثر تركيزاً على الشؤون المحلية العراقية، مما أدخل العراق في حالة أكبر من الفوضى على أمل وصولها إلى قمة السلطة في البلاد وفرض الشريعة الإسلامية، مؤجلةً في هذه الحالة الجهاد العالمي الذي يجب أن ينتظر.

موجة جديدة من التطرف والعنف

عام ٢٠٠٩ يمكن وصفه بأنه عام التحول والتغيير في مفهوم "الجهاد العالمي" والحركات

الجهادية التي تنخرط في منظومته، حيث بدأت قيادات شابة تجلس أمام عجلة القيادة، وبدأت هذه القيادات الشابة المتشددة حملة تجنيد في أوساط الشبان المسلمين الذين ينظرون إلى هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر كتاريخ، وشكّل هؤلاء الشبان الميلاد الحقيقي للدولة الإسلامية في شكلها الحالي. وأول تبلور لهذا الفصل الجديد انعكس في فتح فرع القاعدة في شبه الجزيرة العربية في اليمن في كانون الثاني/ يناير عام ٢٠٠٩. هذه المجموعة الجديدة التي ستصبح لاحقاً أقوى فروع "القاعدة" في العالم تزعمها ناصر الوحيشي الذي لم يزد عمره عن ٣٢ عاماً وعمل سكرتيراً خاصاً للشيخ أسامة بن لادن في أفغانستان، وكان قريباً أيضاً من الدكتور أيمن الظواهري.

القاعدة في الجزيرة العربية تبنّت فوراً "الجهاد العالمي" وعززت وجودها في أماكن شاسعة في اليمن، خاصةً في المحافظات الجنوبية مثل حضرموت، مسقط رأس الشيخ بن لادن، وأبين، ووجدت ترحيباً شعبياً واسعاً. ولعب الفقر في اليمن وسوء الأحوال المعيشية وارتفاع معدلات البطالة في أوساط الشباب (أكثر من خمسين في المئة) دوراً كبيراً في هذا الخصوص. فاليمن يحتل مرتبة متقدمة على قائمة الدول العشرين الأكثر فقراً في العالم.

الدكتور أنور العولقي الذي ولد في أميركا أضاف زخماً كبيراً للتنظيم بعد انضمامه إليه رسمياً، وعمل على إضفاء طابع أكثر راديكالية عليه، فقد كان متطرفاً في عدائه لأميركا والغرب عموماً، وعلى درجة عالية من الذكاء، ويتحدث اللغتين العربية والإنكليزية بطلاقة. العولقي، الذي كان يبلغ من العمر ٣٦ عاماً، امتلك موهبة أخرى لا تقدّر بثمن وهي الاستخدام المتقدم لشبكة الانترنت ووسائل التواصل الاجتماعي الأخرى، من حيث نشر خطب حماسية تحريضية على مواقعه السرية والعلنية، باللغتين العربية والإنكليزية، وأثّرت تأثيراً بالغاً في الشباب المسلم في الغرب، وفي الدول التي تتحدث الإنكليزية خاصةً، ما دفع الكثيرين منهم للانضمام إلى صفوف القاعدة مثل الملازم حسن نضال الذي فتح النار من رشاشه على زملائه الجنود في قاعدة "فورد هود" في تكساس ما أدى إلى مقتل ١٣ منهم في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام ٢٠٠٩. وفي ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر من العام نفسه قام عمر الفاروق عبد المطلب البالغ من العمر ٣٢ عاماً، وينحدر من أصل نيجيري، بمحاولة تفجير طائرة مدنية أميركية ضمن أسطول شركة "نورث ويست"، الرحلة رقم ٢٥٣، في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر، حيث أخفى المتفجرات في أماكن حساسة من جسمه. أما في بريطانيا فقد حاولت الطالبة روشانا شودري اغتيال الوزير البريطاني ستيفن تيمز الذي قابلته في أيار/ مايو عام ٢٠١٠.

الدكتور العولقي، الشخص الطويل النحيل الذي كان يرتدي نظارة عيون تشبه تلك التي كان يرتديها المهاتما غاندي ويتّسم بتواضع جم، حاول أيضاً استخدام مخزن حبر طابعة

وزرع متفجرات فيها مرتبطة بجهاز توقيت في طائرة شحن وتفجيرها فوق إحدى المدن الأميركية، ولكن تمّ العثور على العبوة الناسفة في مطار دبي بعد إبلاغ المخابرات السعودية سلطات المطار بالمعلومات الكاملة عنها. ومن المفارقة أن هذه العبوة الناسفة جرى زرعها بطريقة يمكن أن لا تكتشفها "أشعة إكس" أو الأجهزة الأخرى المماثلة والكلاب البوليسية في المطارات الأميركية والبريطانية.

والدكتور العولقي كان مثل أبو مصعب الزرقاوي، إذ لم يكن متديناً في شبابه، ويميل إلى اللهو، وقد استخدم هذه الخلفية لتجنيد الشباب المسلم في صفوف "القاعدة" والانخراط في الجهاد العالمي، من خلال شرحه المقنع والمؤثر لرحلته في التحول إلى العقيدة الإسلامية وتبنّي الفكر الجهادي وإدارة الظهر لكل مباهج الحياة الدنيا. وكتب الكثير من المقالات في هذا الخصوص لقيت إقبالاً واسعاً من شباب مسلم.

ومن المفارقة أن الدكتور العولقي يلتقي مع السيد أبو بكر البغدادي على أرضية أن كليهما ولدا في العام نفسه (١٩٧١) بينما يكبرهما الدكتور الظواهري بعشرين عاماً. وأما الشيخ بن لادن المولود عام ١٩٥٧ فيكبرهما بستة عشر عاماً. وأثرت شخصية الشيخ بن لادن وكاريزميته ومظهره، بالإضافة إلى بلاغته وطبيعته المتواضعة، تأثيراً كبيراً في الرجلين، كما أنها لعبت دوراً كبيراً في تجنيد المتعاطفين من خلال الانترنت، على عكس شخصية الظواهري الذي بدا في الصورة أقل جاذبية وأكبر من عمره الحقيقي.

ولعل أبرز نجاحات الدكتور العولقي تمثلت في أنشطته على شبكات التواصل الاجتماعي التي استخدمها بشكل غير مسبوق لإدراكه أهميتها، فقد كان له موقع على "الفيسبوك" حظي بآلاف المؤيدين والمعجبين (like)، بينما لم يلتفت كل من الشيخ بن لادن أو الدكتور الظواهري إلى هذا السلاح الخطير ولم يفتحا حسابات خاصة بهما في هذا الميدان.

ولم ينسَ الدكتور العولقي الإعلام التقليدي المطبوع، فقد أصدر مجلة بطباعة فاخرة حملت عنوان *Inspire* ونشرها على "الانترنت" أيضاً، ومن بين مواضيعها تعليم الشباب كيفية صنع القنابل "في مطبخ أمك" ومن خلال "طناجر الضغط"، وقد استُخدمت هذه "الطناجر الملغومة" في تفجير "ماراثون" بوسطن عام ٢٠١٣.

والمفاجأة أن الشيخ بن لادن لم يكن موافقاً على بعض المواضيع في مجلة العولقي، فقد كتب تعليقاً في أحد دفاتره التي تمّ العثور عليها في مخبئه في أبوت آباد اعترض فيه على أحد الصور لتراكتور زراعي جرى تركيب سكاكين على عجلاته وتحويله إلى ماكينة لتمزيق البشر على طريقة قصّاصة الحشائش في الحدائق العامة، لأن مثل هذه الماكينة تثير الذعر وتزرع صورة مسيئة للإسلام والمسلمين. وجرى تفسير هذا التعليق بأنه يعكس ارتخاء قبضته على تنظيم القاعدة الذي أسسه في نهاية الثمانينيات، وعدم ملاحقة تطوراته واتصالاته مع جيله

الجديد بحكم "سجنه الطوعي" في مخبئه في باكستان.

موجة التشدد الجديدة وصلت إلى الصومال حيث استطاع تنظيم "الشباب" اكتساح معظم جنوب البلاد عام ٢٠٠٩ بما في ذلك العاصمة مقديشو، وتنظيم الشباب ولد من رحم تنظيم "اتحاد المحاكم الإسلامية"، وكان في قمة التشدد والعنف، واحتل العناوين الرئيسية في الإعلام الغربي عندما أقدم رجال التنظيم (الشباب) على قتل عائشة إبراهيم دوهلاو رجماً بالحجارة حتى الموت لارتكابها خطيئة الزنا، وقال والدها إن عمرها كان ١٣ عاماً فقط. ولم يتردد الدكتور العولقي في إرسال برقية تهنئة إلى قادة تنظيم الشباب يشكرهم فيها على هدايتهم المسلمين "إلى الطريق الصحيح وتطبيق شرع الله".

تنظيم "الشباب" الصومالي اكتشف أن أقصر الطرق وأسرعها للدعاية والانتشار والعالمية تتمثل في التشدد، وطوال عام ٢٠٠٩ كان التنظيم يحتل مكانة بارزة واسمه يتردد في الإعلام الغربي إما لانتزاعه الأسنان الذهبية من أفواه المسلمين، لأنها بدعة "غير اسلامية"، أو لعلاقاته الوثيقة وتنسيقه مع القراصنة الصوماليين الذين كانوا يخطفون السفن في عرض البحر للحصول على فدية مالية مقابل إطلاق سراحها.

ورغم وجود تنظيم الشباب في منطقة نائية من العالم، إلا أنه نجح، مثل شقيقه تنظيم "القاعدة" في الجزيرة العربية، في جذب الكثير من الشبان الغربيين الذين اعتنقوا الإسلام من خلال الاستخدام الذكي لوسائل التواصل الاجتماعي. ومن بين الشخصيات البارزة التي جرى تجنيدها سامنثا لويث وايت المسماة بالأرملة البريطانية "البيضاء"، والأميركي عمر الحميمي المكنّى بـ"أبو منصور الأميركي".

وقد استفاد تنظيم "الدولة الإسلامية" كثيراً من النجاحات التي حققها الدكتور العولقي في اليمن وتنظيم الشباب الصومالي في الاستخدام المكثف لوسائف التواصل الاجتماعي، لتجنيد الشبان المسلمين في الغرب وفي الدول الإسلامية، وهذا ما يفسّر تدفق الآلاف منهم إلى سورية للقتال في صفوفها لإسقاط نظام الرئيس بشار الأسد. وتتحدث مصادر غير رسمية عن انضمام ٥٠٠ شاب أميركي، وألف بريطاني، وسبعة آلاف شاب سعودي، وحوالي خمسة آلاف تونسي.

وانضم تنظيم الشباب إلى "القاعدة" الأم في شباط/ فبراير ٢٠١٢، فالعضوية في هذا التنظيم تعني المصداقية، والمكانة الجهادية الخاصة، والاهتمامين المحلي الإقليمي والدولي، علاوةً على الاستفادة من أفرع التنظيم الإعلامية وخبراته القتالية ومصادره المالية.

حركة "بوكو حرام" سارت على نهج تنظيم "قاعدة الأم" وظهرت رسمياً عام ٢٠٠٩ أيضاً في المناطق ذات الغالبية الإسلامية في شمال نيجيريا، واكتسبت شهرة واسعة في أفريقيا والعالم بسبب أساليب العنف والقتل التي تتبناها ضد خصومها. وهذه الحركة ترفع أعلام

"الجهاد العالمي" السوداء. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر عام ٢٠١١ أعلن "أبو القعقاع"، المتحدث الرسمي باسم الحركة، "أن حركة بوكو حرام هي جزء من تنظيم القاعدة المركزي الذي قدم لها العون والمساعدة في جهادها".

ويعتبر صيف عام ٢٠٠٩ من المحطات الرئيسية في تاريخ الدولة الإسلامية لأنه الصيف الذي أحيت فيه "الدولة" حملتها الخاصة للجهاد في العراق، وفي التوقيت نفسه أنهت القوات الأميركية عملياتها العسكرية في كل أنحائه (٣١ آب/ أغسطس ٢٠١٠)، وأصبح العراق أكثر مناطق العالم عنفاً وإرهاباً، وهو موقع يشكّل أرضية تجعل من الدولة الإسلامية في العراق في مركز قوة يدفعها لتعزيزه والتوسع في مناطق أبعد من الحدود العراقية نفسها في فترة لاحقة.

الثورات العربية

سيدخل مطلع عام ٢٠١١ التاريخ العربي الحديث على أنه العام الذي تفجّرت فيه الثورات العربية، أو ما يُعرف بثورات "الربيع العربي" الذي أطاح بأنظمة ديكتاتورية وقادتها، وهو إنجاز كان يتطلع إليه الإسلاميون ويسعون لتحقيقه منذ عقود.

الثورات الشعبية فاجأت الجهاديين الإسلاميين مثلما فاجأت العالم بأسره أيضاً. وذهب الكثير من الخبراء والمعلقين إلى الجزم بأن "الربيع العربي" وضع نقطة النهاية للتشدد الإسلامي والجماعات الجهادية المتطرفة لأن الإطار الايديولوجي المتعلق بهم وأفكارهم ومنطلقاتهم بدأ في الانهيار السريع. وما دفعهم إلى هذا الاعتقاد أن الثورات التي أطاحت بالأنظمة الديكتاتورية الفاسدة كانت "سلمية" وأهدافها التي تطمح لتحقيقها كبديل تقوم على الليبرالية والديموقراطية والدولة المدنية، الأمر الذي يتناقض مع الفكر الجهادي وحركاته التي كانت تؤمن بضرورة استخدام العنف لاقتلاع الأنظمة القمعية الاستبدادية كخيار وحيد وحتمي.

الدول الغربية كانت تأمل أن تكون هذه النبوءة بسقوط الفكر الجهادي وإيديولوجية التغيير العنفية التي يتبناها صحيحة، وهذا ما يفسّر تمجيده لهذه الثورات وقادتها. أما تنظيم "القاعدة" المركزي فقد كان الأكثر حذراً، ولم يصدر عنه أي شيء في هذا الصدد والتزم فضيلة الصمت في البداية، ربما لمتابعة هذه الثورات ونتائجها ومعرفة القوى التي تقف خلفها وفرص نجاحها أو فشلها.

من المفيد والمهم في الوقت نفسه ملاحظة ردود فعل الجماعات الجهادية المختلفة كأحد المؤشرات على الفجوة الواسعة بين الحرس القديم والحرس الجديد فيها، والموجة

الجديدة من الإسلاميين المتشددين.

في الثامن من شباط/ فبراير عام ٢٠١١ أصدرت الدولة الإسلامية في العراق بياناً، عبر "وزارة الحرب" التابعة لها، تهاجم فيه الصراع المتواصل في مصر في حينه، ومحذرةً من الإيديولوجيات غير الإسلامية، مثل العلمانية القذرة والشيطانية والديموقراطية الكافرة وكذلك الإيديولوجية القومية والوطنية الآسنة. مما يعني أن الدولة الإسلامية تقف ضد تسونامي الثورات العربية، محذرةً "من استبدال السيئ بالأسوأ".

الجيل القديم، في شخص أمير المؤمنين الملا محمد عمر، أخذ موقفاً مختلفاً كلياً وأصدر بياناً في ١٤ شباط/ فبراير من العام نفسه (٢٠١١) يهنّئ فيه الثورات والثوار، وقال فيه: "إن الإمارة الإسلامية في أفغانستان تصلّي لله العلي القدير أن يمنح المزيد من النجاحات للشعب المصري ليواصل تحقيق الانتصارات لثورته التاريخية التي حققها". وحثّ الملا عمر على "إنشاء حكومة إسلامية مستقلة وإحباط مؤامرات الأعداء الأجانب".

بالنسبة إلى الملا عمر تمثل هذه الثورات فرصاً للإسلاميين للصعود، وهذا ما حدث فعلاً. فقد أثبتت الأشهر التي تلت نجاح الثورات في عدة دول، خاصةً ليبيا وتونس ومصر، أنهم القوة الأكبر والأكثر حضوراً في الشارع، وترجموا هذا الحضور بالفوز في جميع الانتخابات البرلمانية والرئاسية التي خاضوها في البداية، قبل أن تنجح "المؤامرات الخارجية" التي حذّر منها الملا عمر في قلب كل المعادلات هذه وإسقاط حكوماتهم وخاصةً في مصر وليبيا.

الشيخ أسامة بن لادن ونائبه الدكتور أيمن الظواهري التزما الصمت طوال فترة انطلاق الثورة التونسية. وحتى سقوط الرئيس المصري حسني مبارك في شباط/ فبراير عام ٢٠١١ لم يخرجهما عن صمتهما وإصدار أي رد فعل على هذا التطور التاريخي، رغم أن الدكتور الظواهري عمل لعقود لإسقاط حكم الطاغية مبارك، ونظّم محاولة فاشلة لاغتياله في العاصمة الإثيوبية أديس أبابا عام ١٩٩٥.

الدكتور الظواهري أصدر بياناً بعد أسبوع من سقوط حكم الرئيس مبارك، عندما احتفل ما يقرب من المليون مصري في ميدان التحرير بـ"جمعة النصر". وكان هذا البيان الطويل المسجّل، والمملّ في نظر البعض، عبارة عن محاضرة حول جذور المشاكل المصرية (بما في ذلك حملة بونابرت عام ١٧٩٨). وبينما كان الهدف من هذا البيان المسجّل إيصال رسالة تفاؤلية والتعبير عن السعادة لإنجاز الشعب المصري، مثلما حمل عنوانها، إلا أنها بدت غير متناسقة مع الأحداث، وقديمة، حتى أنه لم يذكر فيها أي شيء عن سقوط الرئيس مبارك وتخليه عن الحكم مرغماً. وربما يعود ذلك التأخير إلى المشاكل التي كان يواجهها تنظيم القاعدة المركزي في إيصال رسائله نظراً لأسباب أمنية، وعدم الثقة في وسائل التواصل الاجتماعي وشبكة الانترنت باعتبارها مرصودة من قبل الأجهزة الاستخبارية الغربية. وقد

علمنا الآن أن الرسائل التي كانت تبثّ عبر الانترنت يحملها أحد عناصر التنظيم إلى "مقهى انترنت" محلي في باكستان أو غيرها ويبثّها من هناك في سرية مطلقة. أما وضع الشيخ بن لادن فكان أصعب من وضع نائبه، فقد كان مختبئاً في مدينة أبوت آباد في منزل معزول غير مجهّز بأي وسائل اتصال بسبب المخاطر الأمنية التي يمكن أن تسببها له.

عندما التقيت الشيخ بن لادن في نهاية عام ١٩٩٦ في كهوف تورا بورا أبلغني أنه لا يستخدم أيّاً من وسائل الاتصال الحديثة من الهاتف المتنقل، ولا أجهزة الكمبيوتر، ولا أي أجهزة الكترونية خشية رصدها من قبل مطارديه الأميركيين وأجهزة الاستخبارات الغربية الأخرى.

تنظيم "القاعدة" في المغرب الإسلامي، الذي أصبح فرعاً رسمياً للتنظيم المركزي في أفغانستان عام ٢٠٠٧، أيّد جميع ثورات الربيع العربي بطريقة حماسية مندفعة، حاثّاً الشعب التونسي لتطبيق الشريعة الإسلامية وذلك في بيان أصدره في ١٣ كانون الثاني/ يناير عام ٢٠١١. وفي ٢٤ شباط/ فبراير من العام نفسه أصدر بياناً طويلاً إلى الثوار الليبيين حيّاهم قائلاً: "يا أبطال بنغازي ودرنة وطرابلس وطبرق.. يا أحرار (قبائل) ورفلّة، زنتان، مقارحة، طوارق، وغيرها... نحن نتابع انتفاضتكم بفرح عظيم، ضد طاغوت ليبيا الذي جعل من أحفاد عمر المختار (القائد الجهادي الليبي العملاق) يذوقون ظلم الاضطهاد والذلّ والحرمان لأكثر من أربعين عاماً".

النقطة الخلافية الرئيسية بين تنظيم القاعدة المركزي والدولة الإسلامية في العراق التي بدأت تتبنّى سياسات ومواقف أكثر تشدداً، أنّ الأخيرة لا تؤيد جماعات متمردة ليست جزءاً من الحركة الجهادية، حتى لو كانت عناصرها مسلمة من أتباع السنّة المحمدية. تنظيم "القاعدة" وجبهة النصرة اللذان ظهرا كقوة جهادية رئيسية في سورية اتّخذا مواقف براغماتية وثورية اعتقاداً منهما أنهما سيتفوقان في نهاية المطاف على الجماعات الإسلامية وغير الإسلامية السنّية الأخرى المقاتلة، وتكون لهما الغلبة وبالتالي الحكم، بينما ترى الدولة الإسلامية أن جميع هذه الجماعات المقاتلة التي لا تبايعها ولا تتبع تفسيرها المتشدد للشريعة الإسلامية كفار.

دخول الجهاديين إلى العراق

الظاهرة اللافتة للنظر في معظم الدول التي انطلقت فيها مظاهرات الاحتجاج في إطار "الربيع العربي" وثوراته، بهدف إسقاط الأنظمة القائمة وإقامة أخرى ديموقراطية حداثية مكانها، أن جميع هذه الأنظمة تقريباً "علمانية"، "قومية"، تحارب الإسلام السياسي وتمنع تمدده

وتصدر تشريعات واضحة بتجريمه واعتباره تياراً "إرهابياً" يجب استئصاله، ونحن نتحدث هنا عن سورية وليبيا والعراق وتونس وبدرجة أقل اليمن.

نظام البعث في العراق، وزعيمه صدام حسين، أعلن الحرب منذ بداية حكمه على الحريات الإسلامية، شيعية كانت أم سنية، وجعل من أي وجود لها خطاً أحمر تعامل معه بشراسة ودموية، فمجرد شبهة الانتماء إلى تنظيمي "حزب الدعوة" الشيعي، الذي أسسه السيد آية الله محمد باقر الصدر وأعدمه صدام حسين عام ١٩٨٠، أو حركة الإخوان المسلمين السنّية يعني الإعدام أو السجن والتعذيب في أفضل الأحوال.

هذه الشراسة في التعاطي مع تيارات الإسلام السياسي دفعها في فترة حكم صدام حسين إلى خيارين أساسيين، الأول العمل السري تحت الأرض، وهذا ما فعله حزب الدعوة، أو العمل خارج العراق، وشكلت المملكة العربية السعودية والأردن ملاذاً آمناً لرموز حزب الإخوان المسلمين في العراق، بينما لجأ قادة حزب الدعوة إلى كل من طهران ودمشق، وأسسوا مقرات فيها بترحيب من نظام الرئيس حافظ الأسد، ونجله بشار من بعده.

التنظيمات الجهادية بدأت تتبلور في العراق في النصف الثاني من الثمانينيات من القرن الماضي، ولكن ليس في بغداد ومدن عراقية أخرى حيث الأغلبية السنية، وإنما في كردستان العراق التي كانت تتمتع بالحكم الذاتي وفي المناطق الحدودية المحاذية لكل من إيران وتركيا. وكانت هذه التنظيمات السنية معادية لنظام البعث والرئيس صدام حسين الذي يتزعمه باعتباره نظاماً علمانياً "كافراً". ومن بين هذه التنظيمات تنظيم "أنصار الإسلام" الذي أسسه الملا أبو سيد قطب فاتح كريكار في أيلول/ ديسمبر ٢٠٠١، وكان مقرباً من تنظيم "القاعدة"، وأبدى زعيمه ومؤسسه المقيم حالياً في أوسلو إعجاباً بتنظيم القاعدة وزعيمه أسامة بن لادن وتبادل معه الرسائل والاتصالات. وأكد لي شخصياً، عندما التقيته في أوسلو يوم ٢٠٠٥/٤/١٧ وأهداني كتابه **الحلقة المفقودة بين بن لادن وصدام حسين**، الذي يتحدث فيه عن تجربته في تأسيس أنصار الاسلام، أنه التقى الشيخ أسامة بن لادن في أفغانستان، ولكنه نفى أن يكون قد تلقّى أي دعم مالي أو عسكري من تنظيم "القاعدة".

في إقليم كردستان العراق ترعرعت الحركة الإسلامية المنبثقة من فكر حركة الإخوان المسلمين والتنظيم الدولي تحت اسم "تيار الرابطة الإسلامية" الذي تأسس في أوائل السبعينيات من القرن الماضي، وتطورت هذه الرابطة إلى ثلاثة تيارات رئيسية:

- الأول: الحركة الإسلامية في كردستان العراق الذي حافظ على الاسم الأصلي بزعامة الشيخ علي بن عبد العزيز كمرشد عام.
- الثاني: الجماعة الإسلامية في كردستان العراق الذي تأسس في ٢٠٠١/٥/٣٠ بزعامة الشيخين علي بابير وعلي البرزنجي.

• الثالث: أنصار الإسلام في كردستان الذي تأسس في ٢٠٠١/١٢/١٠ بزعامة الملا أبو سيد قطب فاتح كريكار.

التنظيم الثالث، أي أنصار الإسلام، كان الأقرب إلى الفكر الجهادي الذي بدأ يفرض نفسه بقوة كفكر مسلّح يعتمد العمل العسكري، على عكس حركة "الإخوان المسلمين"، واستمدّ مرتكزاته الجهادية من الدكتور عبد الله عزام، زعيم حركة المجاهدين العرب في أفغانستان، وعبد المجيد الزنداني، أحد أبرز قادة ومؤسسي حزب الاصلاح اليمني، وأخيراً الشيخ أسامة بن لادن زعيم تنظيم "القاعدة". وأكّد لي الملا كريكار أنه التقى هؤلاء جميعاً ونهل من فكرهم واستفاد من تجاربهم في تأسيس تنظيم "أنصار الإسلام".

اتّخذ تنظيم أنصار الإسلام من مناطق شمال شرق العراق قرب الحدود الإيرانية الكردستانية قاعدةً عسكرية له، وقام بفرض الشريعة الإسلامية على القرى والبلدات التي يتواجد فيها، وأمر النساء بارتداء الحجاب ومنعهن من مغادرة منازلهن دون محرم، مثلما منع التلفزيونات والأطباق اللاقطة واختلاط الرجال والنساء في حفلات الأعراس والمناسبات العامة والخاصة.

عندما قصفت الطائرات الأميركية مقرات تنظيم "القاعدة" في تورا بورا وأفغانستان، كردّ على هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠١، توجه مئات من عناصر التنظيم للجوء إلى المناطق التي يتواجد فيها تنظيم "أنصار الإسلام" عبر الأراضي الإيرانية، وانضم إليهم في هذا الجيب آلاف الجهاديين الذين جاؤوا من أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي، ولاحقاً أرسل تنظيم القاعدة وحدة قتالية من ٣٠٠ عنصر لفتح مقر جديد لهم في المثلث السني الممتد من بغداد إلى الموصل، وكانت التعليمات الصادرة لهذه الوحدة من قائد التنظيم هو التزام الصمت وعدم الإعلان عن أنفسهم انتظاراً للحظة المناسبة.

في عام ٢٠٠٢ وصلت من أفغانستان إلى أماكن نفوذ إمارة تنظيم أنصار الإسلام في شمال شرق العراق شخصية على درجة كبيرة من الأهمية، وبدأ في إقامة معسكره الخاص به وبأنصاره، هذه الشخصية هي أبو مصعب الزرقاوي، الأردني المقاتل الشرس صاحب الشخصية الجهادية القوية الشكيمة.

أبو مصعب الزرقاوي تسلل إلى إيران بعد القصف العسكري الأميركي لأفغانستان، ومكث ما يقرب العام فيها متخفياً، ولكن السلطات الإيرانية اكتشفت هويته وطردته من أراضيها في نيسان/ أبريل نيسان عام ٢٠٠٢ إثر كشف خلية نائمة تابعة له جرى اكتشافها في ألمانيا من قبل جهاز المخابرات الألماني.

كان من المفترض أن يعمل أبو مصعب الزرقاوي، بعد أن وصل إلى العراق، كأمير لتنظيم "القاعدة"، ولكنه فضّل أن يكون مستقلاً ويؤسّس تنظيمه الخاص به، وهو الأسلوب نفسه

الذي اتّبعه عندما كان متواجداً في أفغانستان، حيث أقام معسكراً خاصاً به وأنصاره في مدينة حيرات غرب أفغانستان، أي بعيد مئات الأميال من مقرات تنظيم "القاعدة" في قندهار وجلال آباد، ومن المفارقة أن حركة طالبان الحاكمة باركت الزرقاوي ودعمت معسكره.

الأسباب التي دفعت الزرقاوي لاختيار حيرات لإقامة معسكره على درجة كبيرة من الأهمية إذا أردنا فهم بعض جوانب الغموض والدوافع التكتيكية لـ"الدولة الإسلامية" وزعيمها أبو بكر البغدادي، فهذا الاختيار لمدينة حيرات القريبة من الحدود الإيرانية كان عائداً لرغبته في تجنيد جهاديين إسلاميين وعرب وحتى من الدول الأوروبية وإرسالهم إلى العراق عبر الأراضي الإيرانية.

معسكر الزرقاوي في شمال العراق كانت نواته مئة جهادي معظمهم من السوريين والفلسطينيين والأردنيين الذين عاشوا في دول أوروبية، وأطلق على تنظيمه الوليد اسم "التوحيد والجهاد"، وأصبح بعد ذلك عنواناً لأول عملية انتحارية (استشهادية) في العراق.

ما زالت الجهة التي موّلت الزرقاوي في بداياته العراقية غير معروفة حتى الآن، ولكن معظم الآراء ترجّح أن الأموال جاءت من تنظيم القاعدة ومن متبرعين سعوديين، وهناك من يطرح نظرية وقوف رجال أعمال أردنيين وفلسطينيين من المؤمنين بالجهاد خلف الزرقاوي وتنظيمه قبل أن يبايع زعيم "القاعدة" ويصبح أميراً للتنظيم في العراق.

بعد أن أدرك الزرقاوي أن الغزو الأميركي للعراق بات حتمياً بدأ يعمل على كسب المحيط العراقي لمعسكره ويقيم شبكة علاقات قوية مع العشائر والقبائل السنية، كما وعى مبكراً لمسألة الحدود مع سورية وكيفية تجنيد مجاهدين سوريين، وإقامة جهاز استخبارات، وجمع معلومات، وتحديد الأهداف العالية الأهمية لعمليات هجوم مستقبلية.

بعد بدء الهجوم الأميركي على العراق التقى الزرقاوي بالعقل الاستراتيجي محمد إبراهيم مكاوي الذي لعب دوراً كبيراً في تسهيل عبور المئات من مجاهدي القاعدة إلى العراق عبر الأراضي السورية، وأعطى التنسيق بين الرجلين ثماره في محاربة القوات الأميركية في العراق.

الزرقاوي ظل يعمل باستقلال عن تنظيم القاعدة لمدة عامين، أي من ٢٠٠٢–٢٠٠٤.

بداية العمل العسكري

من المفارقة أن أول عمل عسكري يؤرّخ لبداية انطلاقة المعارضة المسلحة للاحتلال الأميركي للعراق بدأ في الأول من أيار/ مايو عام ٢٠٠٣، وفي اليوم نفسه الذي أعلن فيه جورج دبليو بوش نهاية الحرب والمواجهات العسكرية بالتالي. فقد قامت مجموعة من

المدنيين في حينها بإلقاء قنابل يدوية على قوات أميركية في مدينة الفلوجة مما أدى إلى إصابة سبعة جنود.

الشيخ أسامة بن لادن، زعيم تنظيم "القاعدة"، كان يدرس في حينه كيفية استغلال الفرص المتاحة أمام تنظيمه لحالة الفوضى التي بدأت تطل برأسها في العراق بفعل الاحتلال الأميركي، وبدأ تعبئة رجاله وحشدهم استعداداً لانطلاقة جديدة من جبهة جديدة في قلب العالم العربي هذه المرة.

أدّى القصف الأميركي المكثف لتجمعات "القاعدة" ومقراتها في أفغانستان إلى إضعاف التنظيم وتدمير أكثر من ثمانين إلى تسعين في المئة من بناه التحتية، ومعظم كوادره إما قتلت أو وقعت في الأسر أو لجأت إلى دول مجاورة مثل إيران التي انتقلت إليها أسرة زعيم التنظيم وأسر بعض القادة الآخرين، وفضلت قيادات أخرى، ومن بينها الشيخ أسامة بن لادن وأبو زبيدة وخالد شيخ محمد والدكتور أيمن الظواهري ورمزي بن الشيبة وأبو مصعب السوري، الاختباء في مدن باكستانية كبيرة مثل كراتشي أو حيدر آباد إلى أن تم اعتقال معظمهم لاحقاً نتيجة أخطاء بشرية مثل استخدام هواتفهم المحمولة المرصودة والمراقبة من قبل أجهزة الاستخبارات الأميركية.

الاحتلال الأميركي لأفغانستان الذي تلا الضربات الجوية الأميركية المكثفة في تشرين الأول/ أكتوبر عام ٢٠٠١، أي بعد ما يقرب الشهر من هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر التي استهدفت مركز التجارة العالمية، حرمت تنظيم القاعدة من ملاذ آمن، ومقر قيادة مركزي، ونقطة انطلاق لعمليات عسكرية على مدى خمسة عشر عاماً.

الشيخ أسامة بن لادن حثّ أنصاره في الثامن من نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٣، أي فور سقوط بغداد في أيدي القوات الأميركية المحتلة، البدء في حملة عمليات انتحارية، وقال لهم بالحرف الواحد في شريط صوتي مسجّل: "لا تخافوا من دباباتهم... هؤلاء كفرة، فإذا بدأتم بالعمليات الاستشهادية سترون الخوف والرعب في نفوس الأميركيين في كل أنحاء العالم".

استراتيجية العمليات العسكرية لتنظيم "القاعدة" كانت تتمثل في تشكيل جماعات عنقودية صغيرة مكونة من عشرة أشخاص تتوزع على مناطق مختلفة من العاصمة العراقية ومدن أخرى، وكان هناك في الوقت نفسه جيش من الثوار البعثيين يضم ضباطاً وجنوداً من جيش صدام حسين وقوات أمنه يزيد تعداده عن خمسين ألفاً ينخرط في أعمال المقاومة للاحتلال. مضافاً إلى ذلك، كانت هناك سبع مجموعات سنية رئيسية مقاتلة أبرزها جماعة "التوحيد والجهاد" التي كان يتزعمها أبو مصعب الزرقاوي.

في المقابل، كانت هناك سبع جماعات شيعية منخرطة في مقاومة الاحتلال بقيادة السيد مقتدى الصدر وجيش المهدي الذي أسسه، ومن المفارقة أن جميع هذه الجماعات الشيعية

باستثناء جيش المهدي التحقت لاحقاً بقوات الجيش العراقي والأجهزة الأمنية التي تأسست تحت راية الاحتلال بعد تشكيل الحكومة العراقية الجديدة المنبثقة من العملية السياسية التي وضع أسسها.

وفي سابقة نادرة عن التعاون السني الشيعي في القتال جنباً إلى جنب ضد الاحتلال، حارب جيش المهدي إلى جانب الجماعات السنّية المسلحة ضد القوات الأميركية في معركة الفلوجة عام ٢٠٠٤، واحتفل الآلاف من المقاتلين الشيعة والسنّة بالانتصار على القوات الأميركية بإقامة صلاة مشتركة، ومن المؤسف أن هذه السابقة التي تعكس الوحدة الوطنية وتوحّد الطائفتين الرئيسيتين، أي السنية والشيعية، على أرضية الجهاد ضد الاحتلال الأميركي، لم تعمر طويلاً.

بعد خمسة أشهر من احتلال العراق، جميع الفصائل الإسلامية السنية المقاتلة للاحتلال، باستثناء "التوحيد والجهاد" التي يتزعمها الزرقاوي، توحدت تحت مظلة واحدة باسم "جيش أنصار السنة"، وجاء عدم انضمام التوحيد والجهاد الى هذه المظلة بسبب تمسّك الزرقاوي بإيديولوجية القاعدة وفكرها الإسلامي المتشدد ونظرتها العالمية الأوسع.

القاسم المشترك لجميع هذه الفصائل والمجموعات، بما في ذلك جماعة "التوحيد والجهاد"، هو رغبتها في إقامة دولة إسلامية في العراق بعد هزيمة الاحتلال الأميركي، وشكّلت هذه النواة الأرضية التي قامت عليها "الدولة الإسلامية" في العراق والشام لاحقاً.

في كانون الأول/ ديسمبر عام ٢٠٠٤ أعلن الزرقاوي الانضمام إلى تنظيم "القاعدة" وتقديم البيعة لزعيمه الشيخ أسامة بن لادن، بعد أن تلقّى إنذاراً واضحاً من الأخير يطلب منه حسم أمره ويخيّره بين أمرين، الأول الانضمام إلى التنظيم ويصبح "أميره" في العراق بالتالي، أو أن يتم تعيين أبو عمر البغدادي أميراً للتنظيم في العراق، وقد فضّل الزرقاوي الخيار الأول، الأمر الذي أسعد الشيخ بن لادن، حسب ما ذكر لي أحد المصادر الوثيقة للتنظيم في حينها.

أبو مصعب الزرقاوي بدأ يضع استراتيجية محددة للتنظيم في العراق تتمثل في منع العراقيين بكل الوسائل من التعاون مع الحكومة العراقية، وزعزعة قوة واستقرار قواتها الأمنية، ونظم تنظيم القاعدة عمليات "استشهادية" شرسة لتفجير مقرات أمنية وأماكن تجمعات المتطوعين الجدد الراغبين في الانضمام إلى هذه القوات الأمنية أو الجيش على حدٍّ سواء.

العراق ولأكثر من عقد من الاحتلال الأميركي تحول إلى مراكز تدريب نموذجية للجهاديين وعمليات تجنيدهم، وبدأ الراغبون في الانضواء تحت راية الجهاد يتدفقون إليه من مختلف أنحاء العالم الإسلامي عبر الأراضي السورية على وجه الخصوص، فالعراق كان أكثر سهولة وأخصب تربة بالنسبة إلى الجهاديين بالمقارنة مع أفغانستان البعيدة، لأنه في قلب الوطن العربي، واللغة العربية هي الدارجة فيه، فالأفغان العرب واجهوا صعوبات كبيرة في

التواصل والاندماج في البيئة الأفغانية بسبب اللغة الباشتونية التي يتحدثها حلفاؤهم الأفغان في القتال لإخراج القوات السوفييتية.

ومثلما فعلت حركة الطالبان التي تعاطفت مع تنظيم "القاعدة" وزعيمه عندما رحّبت بهم ووفّرت لهم الملاذ الآمن بعد إبعادهم من السودان، وجد أبو مصعب الزرقاوي ورجاله كل الترحيب من قبل العشائر السنّية العراقية في مناطقهم في وسط العراق وشماله، حيث قدّموا لهم المأوى والمال وحرية الحركة.

استراتيجية الزرقاوي لم تكن محصورة في مقاومة الاحتلال الأميركي وإنما إذكاء الخلاف الطائفي السنّي الشيعي كوسيلة أساسية لتوسيع نفوذ جماعته وقاعدتها الشعبية من خلال تجنيد أكبر عدد ممكن من العراقيين وغير العراقيين في صفوفها، خاصةً من الدول المجاورة التي تشكّل فيها الطائفة السنّية الأغلبية السكانية مثل تركيا وسورية والأردن.

وقد استخدم الزرقاوي العنف الدموي والإعدامات والتصفيات الوحشية ضد خصومه لتثبيت وإنجاح استراتيجيته هذه، وهي الأساليب نفسها التي تتبعها حالياً "الدولة الإسلامية". فمثل الخليفة أبو بكر البغدادي القرشي، فهم الزرقاوي قيمة الحرب النفسية ودور أشرطة الفيديو في بثّ الرعب في صفوف الأعداء، ولذلك أقدم على تنفيذ أحكام بالإعدام بذبح الرهائن والأسرى الأجانب وتصويرها وبثّها عبر أشرطة الفيديو.

في أيار/ مايو عام ٢٠٠٤ قام الزرقاوي شخصياً بذبح رجل الأعمال الأميركي نيك بيرغ (٢٦ عاماً) ووقف حاملاً رأسه المقطوع أمام الكاميرا والدماء تنزف منه والسكين الذي استخدم في الذبح، وهو المشهد الذي يتكرر حرفياً حالياً في فيديوهات وأشرطة "الدولة الإسلامية". ففي آب/ أغسطس عام ٢٠١٤ جرى بثّ شريط على "اليوتيوب" يصوّر طفلاً في الثامنة من عمره يقف إلى جانب والده الجهادي في تنظيم الدولة الإسلامية وهو يحمل رأساً مقطوعة لأحد الجنود السوريين، الأمر الذي أثار موجة من الرعب والاستنكار في مختلف أنحاء العالم، خاصةً بعد أن تبيّن أن والد الطفل يحمل الجنسية الأسترالية.

بمثل هذه "الأدبيات" التي تنتشر حالياً على وسائل التواصل الاجتماعي، و"اليوتيوب" خاصةً، تحتفل "الدولة الإسلامية" بـ"أميرها" الأول الزرقاوي، ومثل الزرقاوي تعلن "الدولة الإسلامية" تطبيقها المتشدد للشريعة الإسلامية في المناطق التي تسيطر عليها، مثل إقامة الحدود والتعزير، قطع يد السارق، ورجم الزاني والزانية، وقطع رؤوس "الكفار" و"المرتدين" والقتلة، وبعد محاكم شرعية تصدر هذه الأحكام حسب هذه الأدبيات، وجميع أعمال القتل والرجم هذه تُبثّ "مصورة" على "اليوتيوب" بهدف بثّ الرعب.

الإعدامات الدموية وأعمال الذبح والرجم وقطع الأطراف التي تنفذها "الدولة الإسلامية" ليست بهدف تطبيق أحكام الشريعة فقط وإنما تأتي انطلاقاً من استراتيجية "التوحّش" لبثّ

الرعب والخوف في أوساط المواطنين الخاضعين لسيطرتها أو في المدن والقرى المجاورة أيضاً. ومثلما سنرى في فصل آخر لاحق، أن "الدولة الإسلامية" ليست الوحيدة في هذا الميدان، ففي حقبات تاريخية أقدمت إمبراطوريات على حمامات دماء، وعلينا أن لا ننسى أن "الدولة الإسلامية" تسعى لإعادة "الخلافة الإسلامية" كهدف نهائي لها.

فرع "القاعدة"، الذي أنشأه الزرقاوي في العراق، ازدهر، ولكن لفترة محدودة، حينما أثارت ممارساته العنفية المتشددة حالة من الاستياء وعدم الرضا ثم "الخيانة" بعد ذلك في أوساط مناطق سنية عراقية كان يتواجد فيها.

أسباب نجاح الفترة الأولى من "دولة الزرقاوي" في المثلث السني في العراق تعود إلى التوحّد القبلي والعشائري في مواجهة الاحتلال وأي مقاومة له وللمتعاونين معه، وهذه الأسباب نفسها مع بعض الإضافات تبدو مهمة بالنسبة إلى أي شخص يريد أن يفهم كيف استطاعت "الدولة الإسلامية" التحرك بسرعة لبناء نفسها وتعزيز سلطتها على أرض مساحتها أكبر من حجم مساحة بريطانيا على جانبي الحدود العراقية السورية.

وبينما نجحت الدولة الإسلامية في جذب الآلاف من الجهاديين الأجانب فإن معظم قياداتها من العراقيين والسوريين مما يسهل العمليات العسكرية في ظل حماية شبكات اجتماعية وقبلية في الجانبين السوري والعراقي.

في العراق تتكون القيادة الميدانية من عدد من ضباط الحرس الجمهوري العراقي، أو بالأحرى قوات النخبة التي أسسها الرئيس صدام حسين، وهؤلاء الضباط وفّروا لـ"الدولة الإسلامية" تجانساً قيادياً، أولاً، وتميّزاً عسكرياً، لما يملكونه من خبرة عسكرية احترافية.

الخليفة أبو بكر البغدادي القرشي، زعيم الدولة، يعاونه نائبان عراقيان: الأول أبو علي الأنباري الذي كان يحمل رتبة لواء في الجيش العراقي، ويعتبر من أبناء الموصل، والثاني أبو مسلم التركماني وكان يحمل رتبة مقدم في جهاز المخابرات العراقية المرهوبة الجانب من زمن صدام حسين أيضاً. والأقلية التركمانية التي ينتمي إليها الأخير لها جذور عميقة في كل من تركمنستان، وتركيا نفسها، مما قد يشكّل خطراً مستقبلياً بالنسبة إلى أنقرة.

أبو مصعب الزرقاوي مهّد الطريق أيضاً لـ"الدولة الإسلامية" بإذكائه نار الحرب الأهلية الطائفية والعرقية وما تفجّر من عنف خلالها. في كتابي الأول **التاريخ السري للقاعدة** قلت إنني أؤمن بأن نوايا الزرقاوي الحقيقية كانت تتمثل في جرّ أبناء الطائفة الشيعية إلى حرب أهلية طائفية. ففي رسالة بعث بها إلى الشيخ بن لادن في حزيران/ يونيو عام ٢٠٠٤ اتّهم فيها الشيعة بـ"التواطؤ مع الاحتلال الأميركي من أجل تعزيز سلطتهم". وأضاف بوصفهم بأنهم "طائفة مارست الخيانة على مرّ العصور". وتزامنت هذه الرسالة مع شنّه حملة دموية ضد الطائفة الشيعية أطلقها في آذار/ مارس آذار عام ٢٠٠٤ (موسم عاشوراء الديني المقدس

بالنسبة إلى الشيعة) وارتكب أنصاره مجزرة دموية أدت إلى مقتل ١٨٥ حاجّاً شيعياً من خلال تفجير سيارات مفخخة في أوساطهم في كل من بغداد وكربلاء، وأعلن قبلها في آب/ أغسطس ٢٠٠٣ مسؤوليته عن اغتيال المرجعية الشيعية العليا السيد آية الله باقر الحكيم زعيم ومؤسس المجلس الأعلى للثورة العراقية.

الشيخ أسامة بن لادن ونائبه الدكتور أيمن الظواهري (قائد تنظيم القاعدة الآن) عارضا أجندة الزرقاوي الطائفية ولكنهما تبنياها لاحقاً بعد أن قدم البيعة لزعيم تنظيم القاعدة وأصبح أميراً لها في العراق، وأعاد تسمية جماعته "القاعدة في بلاد الرافدين" في كانون الأول/ ديسمبر عام ٢٠٠٤.

وأقول إنهما أيّدا أجندته الطائفية حتماً، لأن أعمال القتل الطائفي التي أقدم عليها التنظيم في العراق لم تستمر فقط بل تصاعدت، ومثل "الدولة الإسلامية" لم يقلق الزرقاوي أبداً من سقوط قتلى أبرياء من جرّاء هجماته ضد الشيعة، وكان يقول إن سقوط هؤلاء الأبرياء مبرّر تحت قبّة فقه الضرورة.

زاد تولّي أبو مصعب الزرقاوي "إمارة" تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين من قوة التنظيم وصلابته واتّساع قاعدته، حيث نجح في ضم الآلاف من الجهاديين الجدد إلى صفوفه من مختلف أنحاء العالمين العربي والإسلامي تدفقوا إلى العراق لمقاتلة العدو الرئيسي أميركا وإخراج قواتها مهزومة من العراق.

صدرت دراستان في عام ٢٠٠٦، الأولى أصدرتها الحكومة السعودية والثانية مؤسسة دراسات إسرائيلية، اتفقتا على أن معظم الجهاديين الأجانب الذين يقاتلون في العراق تحت لواء تنظيم القاعدة لم يكونوا جهاديين قبل غزو العراق عام ٢٠٠٣ بل جرى تحولهم إلى التطرف والانضمام إلى العمل الجهادي بسبب الغزو الأميركي للعراق واحتلاله.

إن تاريخ العراق الحديث خالٍ تقريباً من حركات التطرف الإسلامي مع وجود استثناءات محدودة للغاية، ولكن الحصارُ القاسي الذي تعرض له العراق قبل الغزو دفع جيل هذا الحصار للانضمام إلى الزرقاوي وتنظيم القاعدة الذي يتزعم فرعه في العراق، وانخرطوا في عمليات استشهادية في الأيام الأولى للاحتلال، واتّضح ذلك من خلال المنشورات التي وزعها التنظيم وكانت تحمل صورهم وأسماءهم وأماكن ميلادهم، وهو ما يؤكّد هويتهم العراقية.

نجم الزرقاوي بدأ يأفل رويداً رويداً ابتداءً من تشرين الأول/ نوفمبر ٢٠٠٥ عندما أمر بتنفيذ ثلاث هجمات "استشهادية" في الأردن بلده الأصلي. فمن بين الستين شخصاً الذين قُتلوا في عمان من جراء هذه الهجمات كان حوالي نصفهم من الأردنيين والفلسطينيين كانوا يشاركون في حفل زفاف. ومن اللافت أن الزرقاوي، مثل أبو بكر البغدادي، يضعان

أعينهما على جائزة كبرى أكبر من العراق، أي ترهيب الدول المجاورة، الأمر الذي عرض الزرقاوي بسبب ذلك إلى انتقادات شديدة من قبل الدكتور الظواهري واتّهامه بأنه يعرض دوائر التأييد لتنظيم القاعدة، الذي يعتبر ضرورياً جداً لبقاء الجهاديين وتوسيع أهدافهم، لأخطار كبيرة.

وبسبب هذه الانتقادات والاتهامات بالغرور والاندفاع من قبل خصومه، وردة الفعل الغاضبة ضده في الأردن، خصوصاً بعد التفجيرات الدموية الثلاثة، بدأ الزرقاوي يفقد معظم التأييد الذي كان يحظى به في دوائر تنظيم "القاعدة". وقد حاول الزرقاوي تأسيس جماعة جهادية سنّية جديدة في كانون الثاني/ يناير عام ٢٠٠٦ أطلق عليها اسم "مجلس شورى المجاهدين" بصفة مبدئية، وعيّن عبد الله راشد البغدادي أميراً عليها، لتبديد حالة القلق السائدة في أوساط الجهاديين العراقيين بعد ظهور أصوات "مغمغة" تتحدث عن "خطف" الجهاديين الأجانب التنظيم في بلاد الرافدين. ولكن هذه الخطوة فشلت في إقناع الجهاديين العراقيين وجذبهم وتبديد قلقهم، وتراجعت في الوقت نفسه مكانة الزرقاوي لدى زعيمه الشيخ بن لادن الذي أصدر قراراً بتنحيته عن إمارة التنظيم في نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٦، وفي حزيران/ يونيو من العام نفسه نجح الأميركان بمشاركة كبيرة من المخابرات الأردنية في تحديد موقعه، وبالتالي اغتياله في غارة على المنزل الذي كان يقيم فيه مع إحدى زوجاته.

في تشرين الأول/ أكتوبر عام ٢٠٠٦ جرى تغيير اسم فرع تنظيم القاعدة في العراق إلى "الدولة الإسلامية في العراق" وتعيين أبو عمر البغدادي أميراً لهذه الدولة، ولكن بعض المراقبين روّجوا لمقولة أن أبو أيوب المصري هو الذي حلّ محل الزرقاوي كأمير لتنظيم "القاعدة".

الدولة الإسلامية في العراق، التي أعلنت أن هدفها الرئيسي هو إقامة إمارة إسلامية في كل العراق بالطرق العسكرية، عيّنت مجلس وزراء وطبّقت الشريعة الإسلامية في المناطق التي تسيطر عليها في أجزاء من العاصمة بغداد ومدينة سامراء والموصل والأنبار وكركوك وفي عاصمتها بعقوبة. وتحولت هذه الدولة التي حظيت ببعض الازدهار الاقتصادي والاستقرار الأمني إلى الوجهة الرئيسية للجهاديين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، الأمر الذي أصاب نوري المالكي بحالة من الرعب، خاصةً أن إعلان قيام هذه الدولة تزامن مع موجة تفجيرات ضخمة أودت بحياة أعداد كبيرة من العراقيين واستهدفت قطاع الوزارات والشرطة والجيش، وتجمّعات الجيش الأميركي، مما أدّى إلى حالة نزوح مئات الآلاف إلى سورية والأردن في العامين ٢٠٠٦ و٢٠٠٧.

في خريف عام ٢٠٠٦، وبعد أن تضاعفت أعداد التفجيرات والضحايا عدة مرات، قرر

الجنرال ديفيد بترايوس، قائد القوات الأميركية في العراق، تكوين قوات الصحوات تحت اسم "أبناء العراق" استغلالاً لحالة التململ في صفوف عشائر عراقية في المثلث السني من السياسات المتشددة التي تطبقها الدولة الإسلامية ومن بينها تطبيق الحدود على المجرمين واللصوص والزناة، وجرى تعيين الشيخ عبد الستار أبو ريشة زعيماً لهذه "الصحوات" التي بدأت القوات الأميركية تجنيدها وتمويلها وتسليحها للتصدي لتنظيم الدولة الإسلامية والقتال لإخراجه من منطقة الأنبار.

الإحصاءات الرسمية الأميركية تفيد أنه جرى تجنيد حوالي ١٠٠ ألف مقاتل في منظومة "الصحوات" هذه، كل عنصر يحصل على ٣٠٠ دولار شهرياً، وفي الوقت نفسه أرسل الرئيس الأميركي جورج بوش ٢١ ألف جندي إضافي إلى العراق في محاولة للقضاء على الدولة الإسلامية والحدّ من خطرها، ونجح هذا التحالف بين القوات الأميركية و"جيش الصحوات" في إخراج قوات الدولة الإسلامية في العراق من العديد من المناطق التي كان يسيطر عليها.

ورغم نجاح هذه الاستراتيجية الأميركية الجديدة ضد تنظيم القاعدة ودولته الإسلامية، إلا أن هذه الدولة ظلت قوية وتشكّل خطراً كبيراً، وتمضي قدماً في أجندتها الطائفية. ففي ١٤ آب/ أغسطس عام ٢٠٠٧ شنّت سلسلة من الهجمات المتتابعة، مماثلة لهجمات ١٤ آب/ أغسطس ٢٠١٤ استهدفت الطائفة اليزيدية في البلدات الكردية مما أدى إلى مقتل ٧٩٦ وجرح ١٥٦٢. وقد عاشت الطائفة اليزيدية في هذه المنطقة لأكثر من ألفي عام، ولكن ديانتهم الأقرب إلى الزرادشتية اعتُبرت كفراً في نظر الأصوليين.

في ١٣ أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠٧ نجحت خلية تابعة للدولة الإسلامية في اغتيال الشيخ عبد الستار أبو ريشة زعيم قوات الصحوات، ولكن الخطة الأميركية نجحت في إضعاف الدولة الإسلامية وتأليب معظم أبناء الطائفة السنية ضدها بسبب تشددها، أولاً، ولاعتقادهم بأنه يمكن إقامة عراق ديموقراطي يكون لهم دور في إدارته مثلما وعدهم الأميركان، وهذا ما يفسّر إنهاء مقاطعتهم للعملية السياسية وخوض انتخابات عام ٢٠٠٨ البرلمانية، ولكن هذا الاعتقاد ثبت خطأه لاحقاً.

تراجع دعم القاعدة السنية الحاضنة للدولة الإسلامية أدّى إلى اضمحلالها، وضعف قبضتها، وابتداءً من أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠٨ بدأت هجرة المقاتلين الجهاديين إلى ميادين قتالية أخرى بعد أن شعروا أنهم لم يعودوا موضع ترحيب، بل إن بعضهم عاد إلى بلاده، ولكن إلى حين.

بيئة الفشل الحاضنة
وهدية المالكي للدولة الإسلامية

الحكومة العراقية الجديدة بقيادة نوري المالكي، التي تشكّلت بعد الانتخابات عام ٢٠٠٨ مدعومةً بالإدارة الأميركية، كانت على ثقة مطلقة بأنها نجحت في هزيمة الجماعات السنّية المتمردة وتنظيم القاعدة التي يتزعم تمردها ويقف خلف معظم أعمال العنف والتفجيرات والسيارات المفخخة التي كانت، مجتمعة أو متفرقة، العلامة الفارقة في مختلف أنحاء العراق والعاصمة بغداد على وجه الخصوص. وليس أدل على هذه الثقة الزائدة بالنصر إصدار البرلمان العراقي يوم ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر عام ٢٠٠٨ "اتفاقية وضع القوات الأميركية" التي تنصّ على خروج القوات الأميركية من المدن العراقية قبل ٣٠ حزيران/ يونيو عام ٢٠٠٩ ومن كل الأراضي العراقية مع نهاية عام ٢٠١١.

في نهاية عام ٢٠٠٨ سلّمت القيادة العسكرية الأميركية في العراق مسؤولية قوات "الصحوات"، أو "أبناء العراق"، إلى حكومة نوري المالكي، مع توصية من الجنرال ديفيد بترايوس قائد القوات الأميركية بدمج هذه القوات التي بلغ تعدادها في حينها ما يقرب من المئة ألف مقاتل، جميعهم من أبناء الطائفة السنية، في قوات الجيش والأمن العراقية التابعة للدولة، وكان هؤلاء قد تدربوا تدريباً جيداً وتسلحوا من قبل خبراء عسكريين أميركيين.

لكن حكومة المالكي طردت نصف هؤلاء وقذفت بهم إلى الشارع وأوقفت دفع مرتباتهم الشهرية التي تصل إلى ٣٠٠ دولار أميركي، أما النصف الثاني فوعدت باستيعابهم في الوزارات العراقية المختلفة وبعض الأجهزة الأمنية، ولكن هذه الوعود كانت كاذبة ولم تُنفّذ بسبب طائفية السيد المالكي نفسه ومساعديه، ولخوفهم من خطر هذه القوات ونظرته إليهم كطابور خامس يمكن أن يشكّل خطراً على سلطته.

موقف السيد المالكي من قوات الصحوات ورفض استيعابهم في مؤسسات الدولة العسكرية والأمنية والسياسية، وهم الذين حاربوا قوات "القاعدة" والجماعات الإسلامية المتشددة في المثلث السني وأخرجوا معظمها من مناطقهم وقدّموا آلاف الضحايا في حربهم الضروس هذه، أصاب هؤلاء بالإحباط وخيبة الأمل وحوّلهم إلى "وحوش" تتطلع إلى الانتقام والثأر.

تنظيم "القاعدة" والجماعات الإسلامية المتمردة المتحالفه معه كان أكثر ذكاءً من السيد المالكي في التعاطي مع عناصر الصحوات المنبوذة التي فقدت نصيرها الأميركي، وذلك عندما قرر استيعابها في صفوفه مرةً أخرى شريطة توبتهم. وكانت هذه التوبة على أي حال تحصيل حاصل، فقد كانوا مملوئين بالحقد على حكومة المالكي والطائفة الشيعية التي

يحكم باسمها، ويتعطشون للانتقام. والشخصية العراقية إذا حقدت، مثلما قال المفكر العراقي الراحل علي الوردي، "فإن انتقامها مدمِّر".

من المفارقات الغريبة أن "قوات الصحوات" السنّية هذه، التي درّبها الأميركان تدريباً جيداً ورفض السيد المالكي استيعابها، أصبحت تشكّل العمود الفقري لجيش "الدولة الإسلامية في العراق". فالسيد المالكي، بقصر نظره السياسي وطائفيته، قدّم هؤلاء هدية لا تقدَّر بثمن إلى أبو بكر البغدادي لاحقاً الذي تقبّل هذه الهدية بلهفة، ووظّفهم في مشروعه السياسي والعسكري في صورته الحالية، وهو المشروع الذي أطاح بالمالكي وحكومته باستيلائه على نصف العراق تقريباً، وهكذا يمكن القول إن "قوات الصحوات" ثأرت لنفسها، جزئياً أو كلياً، من الرجل الذي احتقرها وهمّشها واعتبرها طابوراً خامساً.

بمجرد بدء القوات الأميركية من الانسحاب من المدن، وتدريجياً من العراق، بدأت عناصر "الدولة الإسلامية" المسلّحة تعود إليها وتملأ الفراغ الذي تركته. ففي شهر كانون الثاني/ يناير عام ٢٠٠٩، وفي إطار "عملية التطبيع التدريجي"، قامت القيادة العسكري الأميركية بتسليم مسؤولية الإشراف والتحكم المتعلقة بالمنطقة الخضراء في قلب العاصمة بغداد، حيث توجد معظم الوزارات والمؤسسات الأمنية والسياسية الحساسة ومقراتها، إلى القوات الأمنية العراقية.

حكومة السيد المالكي، التي تعاظمت ثقتها بنفسها وقدراتها الأمنية، قررت إزالة معظم الحواجز الإسمنتية الدفاعية داخل المنطقة الخضراء وحولها، ولكن هذه الثقة تشتّتت وانهارت يوم ١٩ آب/ أغسطس عام ٢٠٠٩ عندما أفاقت بغداد ومنطقتها الخضراء على سلسلة من التفجيرات المدمّرة أدت إلى سقوط ١٢٢ قتيلاً وأكثر من ألف جريح. وبينما كان السيد المالكي يستعد لإلقاء خطاب في أحد فنادق المنطقة الخضراء جرى تفجير وزارتي الخارجية والمالية بهجوم انتحاري مزدوج استُخدمت فيه شاحنتان ملغومتان ومدفعية "المورتر". وبعد ذلك توالت سلسلة من الانفجارات في العاصمة أعلنت الدولة الإسلامية في العراق مسؤوليتها عن تنفيذها جميعاً.

في ربيع عام ٢٠١٠ بذلت القوات الأميركية والعراقية جهوداً كبيرة للقضاء على الدولة الإسلامية والعمليات الهجومية التي تنفذها، وأعلنت أنها قتلت حوالي ٧٥ في المئة من قادتها في البلاد، ولكن حالة من عدم الاستقرار السياسي في البلاد التي ترسخت بعد الانتخابات البرلمانية في كانون الثاني/ يناير عام ٢٠١٠ أوجدت حالة من الفراغ السياسي أعطت الدولة الإسلامية فرصة كبيرة للمناورة وتوسيع دائرة نفوذها. وفي العاشر من أيار/ مايو عام ٢٠١٠ نفّذت وحدات تابعة للدولة الإسلامية سلسلة من التفجيرات وهجمات للقناصة في معظم المدن العراقية الرئيسية.

النخبة السياسية السنّية التي قاطعت الانتخابات البرلمانية الأولى قررت إنهاء هذه المقاطعة وخوض الانتخابات الثانية (٢٠١٠) بتحريض من الولايات المتحدة وإقناعها بالدخول في العملية السياسية والمشاركة في الحكم بفاعلية. وبالفعل استمعت هذه النخبة إلى هذه النصيحة وخاضت الانتخابات في كتل مستقلة، مثلما فعل السيد طارق الهاشمي زعيم الحزب الإسلامي ونائب رئيس الجمهورية لاحقاً، أو في إطار قائمة "العراقية" العلمانية بزعامة أياد علاوي رئيس وزراء العراق الأسبق، وهي الكتلة التي حصلت على أكبر عدد من المقاعد في البرلمان، وكان من المتوقع أن تكلّف من الرئيس جلال الطالباني بتشكيل الحكومة ولكن زلماي خليل زادة، السفير الأميركي في بغداد في حينه، رأى غير ذلك وساند السيد المالكي في إعادة تشكيل الحكومة في دورة ثانية. وهو ما أرادته إيران أيضاً بحجة الحفاظ على استقرار البلاد. وزادت هذه الخطوة من يأس القوى السنية والعلمانية وإحباطها وانعدام أي أمل لها في المشاركة في الحكم. كما وتغوّلت سياسات السيد المالكي الطائفية الإقصائية التهميشية للطائفة السنية، الأمر الذي صبّ في مصلحة الدولة الإسلامية في العراق وتنظيم "القاعدة" الذي يشكّل نواتها.

السيد المالكي استخدم حكومته الثانية ووظّف القانون العراقي لتشديد قبضته الحديدية على الدولة وتعزيز طموحاته السياسية المطلقة وقمع أي معارضة بالقوة. فبدلاً من استخدام التشريعات المعارضة للإرهاب، فعل عكس ذلك تماماً، باستخدامها لاعتقال معارضيه وتعذيبهم في أقبية السجون ووزارة الداخلية. فنجم الحربي، أحد السياسيين البارزين في كتلة العراقية التي يتزعمها السيد علاوي، والمنتقدين بشدة لسياسات المالكي وحكومته، جرى اعتقاله قبيل انتخابات آذار/ مارس عام ٢٠١٠، وقال في رسالة جرى تهريبها من سجنه بعد ١١ شهراً لاحقاً إنه تعرض للتعذيب بصورة جعلته على حافة الموت، من أجل أن يعترف بأن السيد علاوي كان يدعم الإرهاب.

بذل السيد المالكي جهوداً كبيرة لاستثناء غالبية مرشحي غريمه السيد علاوي من خوض الانتخابات البرلمانية بإصدار قانون قبيل الانتخابات بمنع أي مرشح كان ينتمي إلى حزب البعث العراقي المحلول من خوض الانتخابات البرلمانية، والمقصود من ذلك السيد علاوي نفسه الذي كان عضواً في حزب البعث والكثير من مرشحي كتلته العلمانية المختلطة. وعلى أي حال فشلت خطة السيد المالكي الإقصائية هذه وفازت كتلة "العراقية" برئاسة الدكتور علاوي بمقعدين أكثر من كتلة "دولة القانون" التي يتزعّمها المالكي، مما أطلق شرارة صراع سياسي على السلطة بين الرجلين، ولكن صفقة أميركية، بالتواطؤ مع الزعيم الكردي مسعود بارزاني، أعادت السيد المالكي إلى السلطة، وانتهى الأمر بالدكتور علاوي رئيساً للمجلس الوطني للسياسات الاستراتيجية الذي كان مجلساً صورياً دون أي صلاحيات واستقال منه لاحقاً.

بمقتضى هذه الصفقة كان من المقرر أن يتنازل السيد المالكي عن السيطرة على الأجهزة الأمنية القمعية التي تحولت إلى جيش خاص به لوزارة الدفاع، ولكنه أحبط هذه الخطوة بتولّي وزارتي الدفاع والداخلية، وعمل على منع إقامة المجلس الوطني للسياسات الاستراتيجية لحرمان خصمه علاوي من أي دور سياسي في الدولة. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أطلق على نفسه لقب القائد العام للقوات المسلحة العراقية، دون أن يطلب موافقة البرلمان على جميع هذه المناصب، في انتهاك صريح للدستور، الأمر الذي دفع السيد مقتدى الصدر زعيم التيار الصدري بوصفه بأنه بات أكثر ديكتاتوريةً من الرئيس الأسبق صدام حسين.

والأخطر من ذلك أن السيد المالكي أسس ميليشيات عسكرية خاصة به ضمّت عناصر من حزب الدعوة الذي يتزعّمه وأفراد من قبيلته وتزعّمها أحد أبنائه، وسلّحها تسليحاً جيداً، وجرى اتّهامها بتصفية العديد من معارضيه جسدياً وإقامة معتقلات خاصة لتعذيب البعض الآخر.

وبينما جرى توزير بعض النواب في كتلة العراقية التي يرأسها الدكتور علاوي، إلا أن الأخير أُبعد عن أي منصب في الدولة، الأمر الذي دفعه إلى مغادرة العراق، وانعكست الفوضى التي تسود البلاد في جلسات البرلمان وتحويلها إلى مناقشات ومواجهات صاخبة وعنفية انتهت في بعض الأحيان إلى ساحة ملاكمة حقيقية.

من المفارقة أن السيد المالكي أطلق على كتلته البرلمانية اسم "دولة القانون" التي ضمّت الأحزاب الشيعية الداعمة له، ووعد ببناء دولة المؤسسات القوية وإصلاح الخدمات التعليمية والصحية، واستئصال الفساد، ولم ينفّذ أيّاً من هذه الوعود. فقد تدهور الأمن، وتراجعت الخدمات التعليمية والصحية، وشحّت مياه الشرب وإمداداتها في دولة يجري في أرضها نهران، وانحصرت إمدادات الكهرباء في العاصمة بأقل من خمس ساعات في اليوم.

بعد ما يقارب الست سنوات من الاحتلال الأميركي كان من المفترض أن يتحول العراق إلى دولة ديموقراطية قوية تقوم على المؤسسات والعدالة الاجتماعية والازدهار الاقتصادي، حيث يملك احتياطات نفطية تقدَّر بـ ١٢٠ مليار برميل. ولكن إدارة السيد المالكي الديكتاتورية الفاشلة المحكومة بأجنداته الطائفية الإقصائية أدّت إلى العكس تماماً ووفّرت البيئة الحاضنة لـ"الدولة الإسلامية" التي كانت تتمناها وتسعى من أجلها.

الدول المانحة بزعامة الولايات المتحدة الأميركية قدّمت مئة مليار دولار للحكومة العراقية لمساعدتها على إعادة بناء البنى التحتية وقطاع الخدمات الأساسية على وجه الخصوص، ولكنها لم تفرض الرقابة الضرورية وإجراءات المحاسبة، الأمر الذي أطلق يد المالكي ووزرائه الذين اختارهم من الموالين له لممارسة أبشع أنوع المحسوبية والفساد، حيث ملأوا حسابات بنوكهم بالملايين من الدولارات وتعيين أقاربهم وأبناء عشائرهم في

الوظائف الكبرى في الدولة، والاستئثار بالعطاءات الحكومية والخاصة، الأمر الذي دفع منظمة الشفافية الدولية في تقرير صدر عنها عام ٢٠٠٦ إلى التحذير من أن هذه الممارسات وغياب المحاسبة والمراقبة قد تؤدي إلى أكبر فضيحة في التاريخ. ولا بدّ من التسجيل هنا أن هذه الفضيحة كانت موجودة وتتضخّم منذ تولّي الدكتور علاوي السلطة كرئيس للوزراء، فغالبية وزرائه فرّوا من البلاد إلى الخارج، ومعهم مئات الملايين من الدولارات، عندما انهارت حكومته بعد انتخابات عام ٢٠٠٥، خوفاً من تعرضهم للاعتقال من قبل الحكومة الجديدة، ولكنها جاءت، أي الحكومة الجديدة، أكثر فساداً من سابقتها.

في ظل حكم السيد المالكي كانت ميزانية الأمن الممولة من المساعدات الخارجية، الأميركية والأوروبية على وجه الخصوص، أكبر من ميزانيات وزارات الصحة والتعليم والبيئة مجتمعةً، ولكن معايير المحاسبة والمراقبة كانت منعدمة كلياً، وتحولت هذه المخصصات المالية الهائلة للنهب والسرقات من قبل رجال المالكي وقادة الأجهزة الأمنية. فالقصص حول تسجيل آلاف الأسماء غير الحقيقية والمزورة لعناصر وجنود وموظفين في الأجهزة الأمنية موثقة، وفضائحها تزكم الأنوف، أما الأسماء الحقيقية لآلاف آخرين موجودين فعلاً، يتقاضون رواتب ضخمة، فلا أحد يعرف ما إذا كان هؤلاء يتولون أي أعمال حقيقية في الأجهزة الأمنية، ويداومون في مكاتبهم أم لا. واكتسبت قصص الفضائح هذه الكثير من المصداقية في ظل تدهور الأوضاع الأمنية في البلاد وتصاعد الصدامات الطائفية وأعمال التفجيرات الإرهابية.

الدولة الإسلامية في العراق والقوى المتحالفة معها في أوساط الطائفة السنية كانت المستفيد الأكبر من حالة الفساد هذه في الأجهزة الأمنية وباقي الوزارات الأخرى في حكومة السيد المالكي، ليس فقط تكثيف الهجمات على مؤسسات الدولة وفروع الأجهزة الأمنية وأماكن تسجيل المتطوعين فقط، وإنما تجنيد أكبر عدد ممكن من الشباب الساخط في صفوفها.

في صيف عام ٢٠١٠ حذّرت مجموعة من القادة المدنيين في العراق من صعود نجم تنظيم "القاعدة" وازدياد نفوذه مجدداً وبقوة في العراق، بالتوازي مع ازدياد حالة الغضب في أوساط قادة العشائر السنية وقادة قوات الصحوات من بينهم على وجه الخصوص بسبب تهميشهم وإهمالهم، وانهيار آمالهم في المشاركة في السلطة، والحصول على نصيبهم من كعكة حكم بلادهم الذي كانوا يتوقعونه في عهد ما بعد نظام صدام حسين.

إن انسحاب القوات الأميركية من العراق اكتمل رسمياً وكلياً في كانون الأول/ ديسمبر عام ٢٠١١، تاركةً العراق لمواجهة مصيره بنفسه. حيث لم يقدم الأميركان أي مساعدة حقيقية لقيام عملية سياسية تتسم بالديموقراطية، أو تدريب السياسيين عديمي الخبرة حول

كيفية الانخراط وبالتالي إدارة هذه العملية السياسية وترسيخ جذورها في أوساط المجتمع العراقي، وإقامة برلمان يمثل مختلف ألوان الطيف العراقي الجغرافي والسياسي، والطائفي والعرقي، وترسيخ أسس التعايش في ظل المساواة في الحقوق والواجبات، والشفافية والمحاسبة وسيادة دولة القانون. بدلاً من كل ذلك، كان الهمّ الأكبر للإدارة الأميركية تأمين مصالحها وشركاتها النفطية في العراق، وترك البلد في أيدي من يؤمنون ويخدمون هذه المصالح، وكان السيد نوري المالكي هو الخيار الأبرز في هذا الصدد. ولكن تبيّن أن السيد المالكي، مثلما اكتشف الأميركان لاحقاً، هو الحليف الأقوى للإيرانيين أيضاً، العدو الأبرز لهم، مثلما اكتشفوا أنهم قدّموا العراق على طبق من ذهب للنفوذ الإيراني.

الانسحاب الأميركي من العراق عام ٢٠١١ فتح الأبواب على مصراعيها أمام تمرد طائفي سنّي على السلطة المركزية الفاسدة، والإقصائية أيضاً، بقيادة الدولة الإسلامية في العراق. ففي العام التالي للانسحاب، أي ٢٠١٢، قُتل ٤٥٩٤ مواطناً عراقياً في هجمات عنفية إرهابية، أي بزيادة مقدارها ٤١٥٣ بالمقارنة مع عام ٢٠١١، وتضاعف عدد الضحايا بمقدار الضعفين في العام ٢٠١٣ ووصل إلى ٨٨٠٠ قتيل. وهذه الأرقام من الضحايا في العامين المذكورين (٢٠١٢ و٢٠١٣) تتساوى تقريباً مع مثيلاتها القياسية في الأعوام ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ إن لم تكن أكثر. ففي شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام ٢٠٠٣ تم ذبح ٩٠٠ مدني عراقي، وأصبح هذا الشهر هو الأكثر دمويةً في تاريخ العراق منذ شهر نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٨.

ألسنة اللهب الطائفية التي هبّت على العراق في الأعوام الثلاثة الماضية جاءت من اتجاهين رئيسيين لا يمكن تجاهلهما إذا أردنا معرفة وتفسير ما يحدث في العراق حالياً: الأول من صعود نفوذ تنظيم "القاعدة" ودولته الإسلامية في العراق، والثاني من السياسات الإقصائية الشرسة والمذلّة لحكومتي السيد نوري المالكي في بغداد لأبناء الطائفة السنّية. فمشاعر الكراهية وانعدام الثقة كانت متأصلة في أعماق المجتمع العراقي، والمدن الكبرى، مثل بغداد والموصل، تقسّمت إلى جيوب أو كانتونات طائفية سنية وشيعية محمية بأسوار إسمنتية عالية وميليشيات مسلحة.

حالة السخط في أوساط الطائفة السنّية تفاقمت في عامي ٢٠١٣ و٢٠١٤ وبلغت ذروتها، فالشباب السني الذي كان يشتكي من الفساد والبطالة والتهميش، وينتقد سياسة حكومة المالكي الطائفية، وبدأ يلجأ إلى المساجد ويعود إلى الصلاة والتعبّد بقوة بصورة منتظمة خمس مرات يومياً، بدأ يتعرض لموجات اعتقال من قبل الأجهزة الأمنية في مداهمات لمنازلهم في ساعات الفجر، بعضهم لم يعد مطلقاً والبعض الآخر عاد ولكن مهشّماً ومن الصعب التعرّف على ملامحه من شدة التعذيب.

المظاهرات في قلب ميدان تحرير بغداد ضد القمع والإرهاب والفساد والاعتقالات

العشوائية باتت شبه يومية وأعدادها تتصاعد بالرغم من تعرض المشاركين فيها لاعتداءات دموية من قبل قوات الأمن المختفين في ملابسهم المدنية.

في نيسان/ أبريل عام ٢٠١٣ تعرض معسكر احتجاجي سلمي لمتظاهرين من أبناء الطائفة السنية أقيم في منطقة الحويجة قرب كركوك لهجوم من قبل قوات الأمن العراقية، وبأوامر من السيد المالكي نفسه، استخدمت فيه الذخيرة الحية والبنادق الآلية، مما أدى إلى وقوع مجزرة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، بلغ عدد ضحاياها أكثر من خمسين قتيلاً ومئات الجرحى. وقد مثلت هذه المجزرة نقطة تحول رئيسية في تاريخ العراق الحديث من حيث تفجير مخزون هائل من الغضب في أوساط الطائفة السنية في مرحلة لاحقة.

إن عنف الدولة الذي تجسّد في الهجوم على معسكر الحويجة السلمي الاحتجاجي، الذي تحول إلى نقطة جذب للسياسيين المعارضين لحكومة المالكي ومنبر سياسي لهم لمخاطبة الجماهير السنية الغاضبة، أصبح "درّة التاج" في تاج الدولة الإسلامية، وذخيرة قوية لتحريضها وقادة العشائر الآخرين للثورة ضد حكومة بغداد، وعنصر تجنيد قوي للشباب السنّي الغاضب.

في تموز/ يوليو عام ٢٠١٣ غرق العراق حتى أذنيه في دوامة العنف والصدامات الطائفية، أو بالأحرى الحرب الأهلية الطائفية في أبشع صورها، وتحولت "الدولة الإسلامية" إلى قوة جبارة ومحور استقطاب لجيش من الغاضبين المطالبين بالثأر من الحكومة وأنصارها، خاصةً بعد ظهورها بقوة في ميدان القتال في سورية ضد النظام في دمشق إلى جانب "جبهة النصرة"، وإعادة تسميتها بإضافة "الشام" إليها بحيث أصبح الاسم الجديد "الدولة الإسلامية في العراق والشام".

انتشار الفوضى والاضطرابات في أجزاء عديدة من العراق حوّله إلى "دولة فاشلة" وساهم في تمكين أبو بكر الحسيني البغدادي القرشي، زعيم تنظيم الدولة الإسلامية، بالتالي، من شن هجوم على اثنين من سجون العراق الرئيسية، هما "أبو غريب" و"التاجي"، حيث يوجد المئات من رجال تنظيم "القاعدة" من بين السجناء والمعتقلين بتهم "الإرهاب".

بعد تخطيط استمر لعدة أشهر، جرى أثناءه رصد قوة الحراسة وتحركاتها وأعدادها وتسليحها ومداخل السجن ومخارجه، وبالتنسيق السري مع المعتقلين في الداخل بطريقة أقرب إلى أفلام هوليوود، أقدمت قوة ضخمة من عناصر "الدولة الإسلامية" المدربين جيداً، وأصحاب العقيدة الاستشهادية حسب البيان الصادر عن التنظيم، في مهاجمة السجنين يوم ٢٢ تموز/ يوليو بمدفعية "المورتر" بينما اقتحمت سيارات مفخخة يقودها "استشهاديون" بوابتي السجنين الحديديتين لتفجيرهما وفتحهما.

الطريقة التي جرى من خلالها اقتحام السجنين المذكورين هي نفسها التي استخدمت لتفجير

السفارتين الأميركيتين في دار السلام (تنزانيا) ونيروبي (كينيا) في آب/ أغسطس ١٩٩٨، والسفارة المصرية في إسلام آباد عام ١٩٩٦، ووضع خطتها وأشرف على تنفيذها أبو حفص المصري الذراع العسكري الأيمن للشيخ أسامة بن لادن الذي قُتل أثناء الهجوم الأميركي على أفغانستان في تشرين الأول/ أكتوبر عام ٢٠٠١ ونعاه تنظيم "القاعدة" في بيان مؤثر.

وقد كان الجهادي أبو حفص المصري مرافقي أثناء زيارتي لأفغانستان ولقائي مع الشيخ أسامة بن لادن في كهوف تورا بورا في تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٩٦، واعترف لي بأنه هو الذي خطّط لنسف السفارة المصرية في إسلام آباد قبل بضعة أشهر، بسبب اعتقال رجال أمن السفارة لاثنين من زملائه كانوا منخرطين في تنظيم الجهاد الإسلامي في مصر وتعذيبهم في أحد أقبية السفارة والاعتداء جنسياً عليهم، حيث جرى استخدام سيارة صغيرة مفخخة لتفجير البوابة، ثم اقتحام السفارة بشاحنة مفخخة بأكثر من طن من المتفجرات، لمساواتها بالأرض، وقُتل كل من فيها.

الهجوم "الاستشهادي" على سجني أبو غريب والتاجي نجح في إطلاق سراح ٥٠٠ معتقل من مقاتلي تنظيم "القاعدة" في سجن أبو غريب، وقال بيان للحكومة العراقية إنها منعت هروب أي من المعتقلين في سجن التاجي، ولكنها اعترفت في الوقت نفسه بنجاح تنظيم "الدولة الإسلامية" في اختراق قوات الأمن المكلّفة بحراسة السجنين، والتنسيق مع بعض العناصر الأمنية المتعاطفة معها داخل سجن أبو غريب على وجه الخصوص، مما سهّل الهجوم ونجاحه.

هذا الهجوم لم يكشف عن حجم قوة "الدولة الإسلامية" وتحقيقها انتصاراً معنوياً كبيراً على حكومة المالكي المنهارة فقط، وإنما أدى إلى انضمام المئات من المقاتلين الغاضبين المدربين والخبراء في أعمال القتال والتفجير إلى صفوفها.

في عام ٢٠١٣ قررت قيادة "الدولة الإسلامية" توسيع نطاق أهدافها وهجماتها بحيث تشمل طوائف وأقليات أخرى غير الطائفة الشيعية وتنفيذ مجازر ضدها، مثل الأكراد والمسيحيين واليزيديين. فالعاصمة الكردية "أربيل" جرى استهدافها لأسباب استراتيجية، وأخرى انتقامية، لأن المقاتلين الأكراد حملوا السلاح ضدها والجماعات الجهادية الأخرى المنضوية تحت لوائها في سورية، وانعكس هذا الاستهداف على شكل سيارات مفخخة جرى تفجيرها فيها (أي أربيل) لترهيب المواطنين الأكراد على امتداد العام المذكور، وظلت أربيل في قلب رادار "الدولة الإسلامية" ومقاتليها عندما كادت قواتها تنجح في اقتحامها واحتلالها في آب/ أغسطس عام ٢٠١٤ حيث وصلت إلى مسافة ٣٠ كيلومتراً منها، ولم يمنعها من هذا الاقتحام إلا قصف الطائرات الأميركية التي هرعت لحماية العاصمة الكردية ومنعها من السقوط.

أميركا وبريطانيا وفرنسا تدخلت عسكرياً في شمال العراق ضد تقدم الدولة الإسلامية تحت عنوان حماية اليزيديين والأكراد الذين فروا من مدينة سنجار إلى الجبال بعد احتلالها من قبل قوات الدولة الإسلامية بعد استيلائها على عدة مدن عراقية من بينها الموصل ثاني أكبر المدن العراقية في الشهر نفسه.

هجمات قوات "الدولة الإسلامية" لم تقتصر على اليزيديين والأكراد والأقليات الدينية والعرقية الأخرى، بل استهدفت أبناء الديانة المسيحية. وفي كانون الأول/ ديسمبر عام ٢٠١٣، وأثناء أعياد الميلاد جرى تفجير كنيستين في العاصمة بغداد، مما أدى إلى مقتل ٣٥ محتفلاً في حينها. وبعد السيطرة على الموصل جرى تخيير سكانها من المسيحيين بين اعتناق الاسلام أو دفع الجزية أو مغادرة المدينة، وفضلت الأغلبية المغادرة إلى أربيل أو تركيا.

الجيش العراقي الذي جرى إنفاق أكثر من عشرين مليار دولار على تدريبه وتسليحه ويضم أكثر من نصف مليون جندي في صفوفه أثبت عجزه في مواجهة "الدولة الإسلامية" وقواتها عندما قررت الزحف نحو مدينة الموصل ثاني أكبر مدن العراق سكاناً في صيف عام ٢٠١٤. فرغم التسليح الجيد للجيش إلا أن ضباطه وجنوده لم يملكوا الإرادة للقتال والمواجهة، وبالتالي، بدلاً من الدفاع عن مدينة الموصل، حيث كان تعداد الفرق المتواجدة فيها ثلاثين ألفاً، ومنعها من السقوط، قام الجنود والضباط بإلقاء سلاحهم وخلع بزاتهم العسكرية واستبدالها بأخرى مدنية والهروب باتجاه أربيل.

في ظل حكومة المالكي كانت الوظائف والرتب العليا تُشترى، ولا يصل المرء اليها من خلال الكفاءة والاستحقاق، وانعكس هذا بجلاء على الجيش، فالضباط الأكفاء إما أُبعدوا من الجيش أو جرى تجاوزهم في سلم الترقيات. والأخطر من ذلك وجود ظاهرة الضباط والجنود "الأشباح" في الجيش، وهم بعشرات الآلاف، وهؤلاء مسجّلون رسمياً في كشوفات الجيش ويتلقون رواتب ضخمة، ولكنهم لا يتواجدون في وحداتهم. وقد أدّت هذه الظاهرة المعروفة للجميع في القوات المسلحة، وتشكّل قمة جبل الفساد في المؤسسة العسكرية، إلى إضعاف معنويات الضباط والجنود الآخرين وانتشار حالة اللامبالاة في صفوف معظمهم، وبالتالي، فلماذا يضحي هؤلاء بأرواحهم وأطرافهم من أجل حكومة فاسدة؟

قوات الأمن العراقية تعاني من المرض نفسه، ولهذا تدنّت الروح المعنوية لمنتسبيها، وتراجعت كفاءتهم العملية، والحماس للعمل، وأداء الواجبات الملقاة على عاتقهم، وهم يرون الفساد ينخر أسس هذه المؤسسة من القمة إلى القاع. وهناك عشرات القصص التي يتداولها العراقيون حول هروب ضباط وجنود في القوات الأمنية من المواجهات مع الخارجين عن القانون واحتمائهم بقواعدهم فور إطلاق أول رصاصة باتجاههم.

السيد المالكي خسر معظم مكونات الشعب العراقي، مثلما خسر الكثير من حلفائه، وخسر معظم النخب السياسية السنية والكثير من داعميه الشيعة وخاصةً التيار الصدري، ثم الأكراد، وبات معزولاً ومنبوذاً، الأمر الذي دفع الأميركيين للتخلي عنه بسبب طائفيته وعناده وتمسكه بمواقفه السياسية الإقصائية ورفضه الانفتاح وبالتالي التعاون مع المكونات السياسية والطائفية العراقية الأخرى. ولم تجد إيران بدّاً في نهاية المطاف من إطلاق رصاصة الرحمة على رأسه، ورفع حمايتها عنه ووقف دعمها له، في ظل تنامي خطر "الدولة الإسلامية"، ووصولها إلى قناعة راسخة بأنه لا يمكن مواجهة هذا الخطر إلا بتشكيل حكومة وفاق وطني عراقية مقبولة من غالبية العراقيين وتشكيل تحالف دولي إقليمي.

بدا المالكي، في نظر الكثير من العراقيين، النسخة الشيعية من الرئيس الراحل صدام حسين، من حيث الديكتاتورية، ولكن مع فارق كبير في الإنجازات. فمعظم قيادات الرئيس صدام في الجيش والأمن كانوا من أبناء الطائفة الشيعية، وحارب إيران لمدة ثماني سنوات بجيش غالبيته العظمى من غير السنّة، و٣٦ من ٥٢ شخصاً من قياداته المعتقلة من قبل القوات الأميركية بعد احتلال العراق هم من الشيعة، علاوةً على السيد طارق عزيز نائب رئيس الوزراء وزير الخارجية الأسبق المسيحي. ولكن هذا لا يعني غضّ النظر عن الكثير من أخطائه وأبرزها غزو الكويت دون التبصّر بالنتائج، وحكم البلاد بقبضة حديدية ومصادرة الحريات.

صدام حسين أسّس جيشاً قوياً، وحافظ على وحدة التراب العراقي، وأقام نهضة تعليمية تمثلت في القضاء على الأمية والتوسّع في افتتاح الجامعات وإرسال البعثات الطلابية إلى كبريات الجامعات الغربية في مختلف التخصصات العلمية، بينما لم يحقق السيد المالكي الذي حكم العراق لأكثر من ثماني سنوات إلا القليل حيث انهارت في عهده مؤسسات الدولة، وتراجعت الخدمات، واستفحل الفساد، وضعفت الهوية الوطنية العراقية الجامعة، وتفاقمت الصراعات المذهبية، وانعدم الأمن تقريباً، وأصبح العراق معزولاً عن محيطه العربي والإسلامي ودون أي دور سياسي، مؤثر أو غير مؤثر، في هذا المحيط، حتى أن عدد الدول العربية والإسلامية التي زارها السيد المالكي على مدى ثماني سنوات تُعدّ على أصابع اليد الواحدة.

الأزمة السياسية في العراق، التي تصاعدت وبلغت ذروتها في العراق في عامي ٢٠١٣ و٢٠١٤، قدمت لـ"الدولة الإسلامية" فرصة ذهبية ثانية لحشد التأييد السنّي خلفها وخلف أهدافها وطموحاتها في إنشاء دولة الخلافة في قلب الشرق الأوسط. فبينما لم تنجح مخططات الزرقاوي في هذا المضمار وانتهت باغتياله عام ٢٠٠٦، فإن حظوظ السيد أبو بكر البغدادي كانت أفضل في السنوات السبع التي تلت هذا الاغتيال. فالشعب العراقي بدا منهكاً من الفوضى وحال الاقتتال والانهيار الأمني التي تعيشها بلاده في ظل الاحتلال

الأميركي وفشل المشروع الديموقراطي وفساد الحكومة المركزية وضعفها.

حركة طالبان وصلت الحكم بسبب حالة الفوضى نفسها التي عمّت أفغانستان بعد خروج القوات السوفييتية مهزومة، وانفجار الحرب الأهلية بين فصائل المجاهدين، حلفاء الأمس، وصراعاتهم على الحكم والغنائم في الوقت نفسه حيث انهارت الدولة ومؤسساتها، وتعاظم نفوذ الميليشيات المسلحة والجرائم واستفحال عصابات قطاع الطرق وأمراء الحرب وتفكك وحدة البلاد الجغرافية والديموغرافية، وكان من الطبيعي أن توظّف الحركة الطالبانية الأصولية كل هذه السلبيات وما يترتب عليها من سخط شعبي لصالحها وفي خدمة طموحاتها في حكم البلاد.

"الدولة الإسلامية" ركبت الموجة نفسها ووظفت سخط وغضب أبناء الطائفة السنية في شمال العراق ووسطه وغربه في خدمة مخططاتها، حيث قدمت نفسها المدافع عن هذه الطائفة والراغب في رفع المظالم عنها، والتصدي للحكومة المركزية الطائفية التي همّشتها، حسب بياناتها، وإعادة الأمن والأمان من خلال تطبيق الشريعة الإسلامية، واجتثاث الفساد والفاسدين، ونشر قيم الفضيلة في المجتمع وتضييق الحدود على المجرمين والزناة واللصوص.

صحيح أن هناك نسبة كبيرة من أبناء الطائفة السنّية، خاصةً الذين عاشوا لأكثر من خمسين عاماً في ظل حكومات عراقية قومية علمانية، لا يرحّبون بأسلمة المجتمع وتطبيق الشريعة الإسلامية وحدودها كمنهاج للحكم، ولكن هؤلاء، ولأسباب مصلحية انتهازية ربما، أيّدوا الدولة الإسلامية ليس حبّاً فيها وإنما كرهاً بحكومة المالكي الطائفية الطابع التي تحاربها وتريد إسقاطها، ونجحت فعلاً في تحقيق هذا الهدف عندما ألحقت هزيمة مهينة بقواتها في الموصل والأنبار وصلاح الدين وسامراء واكتسحت مواقع البيشمرغة الكردية ووصلت إلى أقل من ٣٠ كيلومتراً من أربيل العاصمة الكردية. فعندما دخلت قوات الدولة الإسلامية الموصل، بعد طرد قوات الجيش العراقي منها، استُقبلت بالترحاب من قبل المواطنين، ومن غير المستبعد أن تتغير المشاعر لاحقاً لكن البدايات كان مشجّعة ومرحّبة.

الظاهرة التي يمكن رصدها من خلال دراسة ومتابعة ممارسات الدولة الإسلامية وإدارتها للمناطق التي تسيطر عليها في سورية والعراق تتلخّص في محاولاتها الاستفادة من تجارب من سبقوها والتعلّم من أخطائهم وفشلهم. فالدولة الإسلامية في العراق خسرت دعم وتأييد قطاع واسع من العراقيين السُنّة عام ٢٠٠٦ وبعدها، ليس بسبب تطرف الزرقاوي مثلما يشيع البعض، ولكن بسبب الوجود الواضح للمقاتلين الأجانب أيضاً. ففي هجومها للسيطرة على الموصل في حزيران/ يونيو عام ٢٠١٤ كانت الدولة مستعدة للتحالف مع الجماعات البعثية والقبلية فيها، وتوظيف الشباب في المؤسسات الخدمية، وإبقاء العاملين في هذه

المؤسسات، مثل البنوك وشركات الكهرباء والمياه والهواتف والجامعات والمدارس وغيرها، في وظائفهم.

السيد عزت الدوري، نائب الرئيس العراقي صدام حسين، زار المدينة ضمن مجموعة من القيادات والشخصيات البعثية العليا، وشمل النظام الجديد للمدينة عدة أعضاء من رجالات النظام السابق، ولوحظ أن تدخل الدولة الإسلامية في الأمور الإدارية المتعلقة بالجوانب الحياتية للسكان في الموصل ومدن عراقية وسورية أخرى كان محدوداً، في الأسابيع والأشهر الأولى على الأقل.

اتّهام السيد المالكي وممارساته وتعصّبه الطائفي كعامل رئيسي في تدهور أوضاع العراق وصعود نجم الدولة الإسلامية واتساع دائرة نفوذها وسيطرتها على نصف العراق وثلث سورية، وتجاهل عواملٍ أخرى ينطوي على الكثير من اللاموضوعية في رأينا. فالاحتلال الأميركي للعراق، وحلّ مؤسسة الجيش العراقي ثم مؤسسات الدولة الأخرى، وإدخال "فيروس" المحاصصة الطائفية، والانحياز إلى طائفة والانتقام من أخرى، هي عوامل، منفردة أو مجتمعة، وفّرت المناخ الملائم لنمو هذه الدولة والتفاف قطاع من العراقيين حولها. والسيد المالكي ربما ساعد بسياساته وممارساته في تسريع هذا النمو وتضخّمه وزيادة خطورته، ولكنه ليس العامل الأساسي والرئيسي.

التحالف الإقليمي والدولي الذي يتبلّور حالياً لمواجهة الدولة الإسلامية، ويضم أعداء كانوا، وربما ما زالوا، مع الدخول في حرب إقليمية ضد بعضهم البعض، مثل السعودية وإيران، وأميركا وسورية، يعتقد أن انتخاب فؤاد معصوم رئيساً للعراق، وسليم عبد الله أحمد الجبوري رئيساً للبرلمان، واستبدال حيدر العبادي بالسيد نوري المالكي في رئاسة الوزارة، يمكن أن يغيّر المعادلة السياسية في العراق ويبعد أبناء الطائفة السنية عن الدولة الإسلامية، من منطلق الاعتقاد بأن هذا الالتفاف حولها عائد إلى الكراهية لشخص المالكي وحكومته لأسباب ذكرناها آنفاً. وربما من السابق لأوانه الجزم بصواب هذا الاعتقاد، ولكن هذه التغييرات خطوة على طريق طويل محفوف بالكثير من المنعطفات الخطرة.

من المحزن أن الثقة في النظام الديموقراطي العراقي اهتزت، وربما يحتاج الأمر إلى سنوات وربما عقود لاستعادة هذه الثقة، حتى لو نجح السيد العبادي، خليفة المالكي، في تأسيس حكومة وحدة وطنية حقيقية. فتفكيك العراق الذي حدث بسبب التدخل العسكري الغربي عام ٢٠٠٣ أطلق المارد القوي وغير المحسوب حسابه من القمقم، أي "الدولة الإسلامية". ورغم الأخذ في الاعتبار كل الجهود الإقليمية والدولية المبذولة على الصعد كافة، السياسية والعسكرية، فمن غير المحتمل أن تنجح هذه الجهود في إعادة هذا المارد إلى القمقم مرة أخرى، في المستقبل المنظور على الأقل.

الفصل الرابع

الدولة الإسلامية في سوريا: الخلفية

استفادت الدولة الإسلامية من الفوضى السياسية والعنف الطائفي من أجل غرس نفسها في سوريا، تماماً كما فعلت في العراق. لكن عوامل عدة إضافية تجعل الوضع في سوريا أكثر قابليةً للإشتعال، وبينها بلا شك أن هناك حرباً أهلية شاملة تدور في هذا البلد بعدما بدأت كاحتجاجات سلمية مطالبة بالإصلاح وإنهاء الحكم الاستبدادي لبشار الأسد.

وفيما كان النظام يحاول بوحشية قمع الثورة، متسبّباً في مقتل ما لا يقل عن ٢٠٠ ألف شخص، اندلع اقتتال داخلي بين فصائل المعارضة نفسها. وكان دخول فصائل إسلامية متشددة على خط النزاع - جبهة النصرة أولاً ولاحقاً الدولة الإسلامية في العراق والشام - المكوّن الأخير المطلوب للوصول إلى فوضى شاملة.

وللأزمة السورية تداعيات دولية بعيدة المدى، أكثر بكثير من تداعيات الأزمة في العراق، وقد دفعت بالولايات المتحدة إلى تمزيق أجندة سياستها الخارجية التي كانت تعطي الأولوية لتغيير نظام الأسد قبل أن تأتي الدولة الإسلامية وتستولي على أجزاء واسعة من مساحة سوريا وتحت أنظار العالم كله.

وفي ظل فترة زمنية وجيزة صارت سوريا العلمانية، و"الحديثة" إلى درجة ما، ساحة لأشد أنواع التجاذب الطائفي الذي مزّق البلد ودفع بالقوى الإقليمية والدولية الأساسية إلى الوقوف خلف هذا الطرف أو ذاك في ساحة الحرب الدائرة بالوكالة على أراضي سوريا.

ولا شك أن الوضع في هذا البلد يحمل معه احتمالاً كبيراً لحصول حريق ذي طابع عالمي، يزيده تعقيداً في شكل غير مسبوق وجود دولة "خلافة إسلامية" تحتل ثلث مساحة هذا البلد.

السياسة والدين في سوريا

كما في العراق، هيمن على الساحة السياسية في سوريا منذ العام ١٩٦٣ حزب البعث العلماني. وقد حكمت عائلة الأسد البلد بقبضة من حديد منذ العام ١٩٧٠، أولاً من خلال حافظ الأسد، ثم بعد وفاته في العام ٢٠٠٠ من خلال ابنه بشار.

أراد حافظ الأسد أن يصير طبيباً، لكن أسرته لم يكن في مقدورها تأمين أقساط تعليمه فالتحق عوض ذلك بسلاح الجوي السوري، معتبراً أن السلك العسكري سيفتح الباب أمامه لدخول المعترك السياسي. كان الأسد في الثالثة والثلاثين من عمره عندما شارك بصفته قائداً عسكرياً في الانقلاب الذي أتى بالبعثيين إلى سدة الحكم في العام ١٩٦٣، وتمّ تعيينه قائداً لسلاح الجو. وبعد ذلك بسبع سنوات، تخللها انقلابان جديدان، سيطر الأسد على السلطة وعيّن نفسه الحاكم المطلق لسوريا.

تنتمي عائلة الأسد إلى الطائفة العلوية، التي ترتبط ولكن في شكل ملتبس بالطائفة الشيعية. وبما أن التوزيع الديموغرافي في سوريا سيظهر في شكل مهم في هذا السرد في الفصول اللاحقة، ربما كان عليّ أن اقول هنا إن المليون ونصف المليون علوي في سوريا لا يشكلون سوى ١٢ في المئة من الشعب السوري، في حين أن السنّة العرب يشكلون ٦٥ في المئة من السكان، أما السنّة الأكراد فنسبتهم ٩ في المئة. وبالنسبة إلى الأقليات الأخرى فإنها تشمل المسيحيين العرب ونسبتهم ١٠ في المئة، والدروز العرب ونسبتهم ٣ في المئة – والطائفة الأخيرة تُعتبر بدورها متفرعة من الطائفة الشيعية في العالم الإسلامي.

وهناك بالطبع من يعتبر العلويين والدروز طائفتين هجينتين مثيرتين للفضول. فالدروز، تحديداً، يؤمنون ليس فقط بالتوحيد بل لديهم أيضاً أفكار أفلاطونية جديدة ومعتقدات وممارسات معرفية. أما العلويون فهم بعيدون أكثر عن المعتقدات التي يؤمن بها الشيعة لكنهم يعتبرون أنفسهم مسلمين.

كان العلويون مضطهدين لوقت طويل في سوريا، لكن حظوظهم تغيّرت مع مجيء حافظ الأسد إلى السلطة. ويشترط الدستور السوري أن يكون رئيس الدولة

مسلماً، وهو أمر أثار شكوكاً حول أهلية الأسد لهذا المنصب، إلى أن حصل على فتوى من إمام شيعي لبناني هو موسى الصدر تؤكّد شرعية تولّيه الرئاسة بوصفه مسلماً.

وفي سوريا أربع تكتلات عشائرية علوية أساسية هي: الكلبية (عشيرة عائلة الأسد)، الخياطين، الحدادين والمتاولة. وكما سنرى، التحالفات القبلية في كل من سوريا والعراق عامل بالغ الأهمية في الفوز بالسلطة والمحافظة عليها. وقد تمكن حافظ الأسد من الفوز بدعم غالبية العشائر السنّية في مقابل حصولها على امتيازات في السلطة والثروة، تماماً كما تفعل الدولة الإسلامية حالياً من خلال استغلالها الشبكات القبلية لمصلحتها. لقد مثّل فشل القبائل السورية في مقاومة الدولة الإسلامية سبباً للإحباط الكبير في الغرب الذي ربما توقّع قيام ما يشبه "الصحوات" التي قامت من قبل في العراق ضد القاعدة.

لم يكن بشار الأسد المولود عام ١٩٦٥ من زواج حافظ الأسد بالفلاحة أنيسة مخلوف، الخيار الطبيعي لخلافة والده، فقد كان خجولاً وجاداً في الاهتمام بتحصيله العلمي عندما كان في شبابه. وكان رفعت، الشقيق الأصغر لحافظ، هو المرشّح المفضّل، إلى أن حاول الحلول محل أخيه خلال فترة علاجه في المستشفى في مطلع الثمانينيات. ولاحقاً صار باسل، الأخ الأكبر لبشار، هو المرشّح لخلافة والده، لكنه قُتل بحادث سيارة سريعة في العام ١٩٩٤. أما ماهر، الأخ الأصغر لبشار والمولود في العام ١٩٦٧، فقد كان يُنظر إليه على أنه وحشي وعدواني ولا يمكن توقّع ما يمكن أن يصدر منه من تصرفات، وهي مؤهلات لا تساعده على تولي موقع الرئاسة، فتم تنصيبه على رأس قوات الحرس الجمهوري، النواة الصلبة للمؤسسة الأمنية في سوريا. ولاحقاً سيقود ماهر حملة القمع الشديدة للمحتجين في الأيام الأولى للثورة، ويُعتقد أنه هو الذي أذن بشن الهجمات الكيماوية في ضواحي دمشق آب/ أغسطس ٢٠١٣ كانتقام لمحاولة اغتيال استهدفت الرئيس السوري.

تخرّج بشار نفسه كطبيب من جامعة دمشق، قبل أن ينتقل إلى لندن للتدرّب ليكون جراح عيون. لكن تقدمه في الحقل الطبي سرعان ما توقف نتيجة مقتل أخيه باسل بحادث سير، فتمّ استدعاؤه إلى سوريا في العام ١٩٩٤ حيث انخرط في السلك العسكري، ليسير في الطريق ذاتها التي سلكها والده من قبله: بدل أن يكون طبيباً، اختار طريق العسكر للوصول إلى السياسة. وقد كان بشار الأسد، بالطبع، مرغماً على أن يبدو أكثر صرامةً ويحصل على خبرة في القتال عندما تسلّم ملف الوجود السوري في لبنان في العام ١٩٩٨.

عندما مات حافظ الأسد في حزيران/ يونيو من العام ٢٠٠٠، أمل كثيرون من السوريين أن يجلب خليفته بشار الأسد مزيداً من الحريات وتخفيفاً من حدة القمع في البلاد، نظراً إلى أنه ربما تأثر بفترة إقامته في لندن وزواجه من المواطنة البريطانية أسماء الأخرس، وهي شابة أنيقة و"عصرية" درست علوم الكومبيوتر وعملت في مجال الاستثمارات المصرفية قبل زواجها من بشار. في آذار/ مارس ٢٠١١، الشهر نفسه الذي بدأت فيه الثورة في سوريا، نشرت مجلة فوغ الأميركية مقالة عن أسماء (التي يعرفها أصدقاؤها في إنكلترا باسم "إيما") وصفتها فيها بأنها "نحيفة، ممشوقة القوام الجميل، وتمتلك عقلاً مدرّباً على التحليل".

في البداية، شجّع بشار فعلاً انفتاحاً أكبر في الأجواء السياسية، وتمّ الإفراج عن العديد من السجناء السياسيين وبينهم أعضاء في جماعة الإخوان المسلمين، خلال ما أُطلق عليه "ربيع دمشق". ولكن عندما أصدرت جماعة الإخوان (من منفاها الآمن في لندن) بياناً، في أيار/ مايو ٢٠٠١، دعت فيه إلى إصلاحات في سوريا، ردّ الأسد فوراً بالتراجع عن معظم الحريات التي كان قد أتاحها من قبل. ومن الآن فصاعداً سار الأسد على خطى أبيه، ولم يكن مفاجئاً أنه لجأ فوراً إلى كل إمكاناته العسكرية والأمنية لقمع بوادر الثورة التي لاحت في آذار/ مارس ٢٠١١.

وحتى الجيل الأصغر من عائلة الأسد لا يبدو أنه يحمل معه بوادر في أخذ مواقف أقل حدةً من مواقف الجيل الأكبر. فحافظ الأسد، ابن بشار والمسمّى بهذا الإسم تيمناً باسم جده، كان في الحادية عشرة من عمره فقط عندما نشرت صحيفة **نيويورك تايمز** مقتطفات من أقواله على صفحته في موقع فايسبوك في العام ٢٠١٣: "ليس لدى أميركا جنود، ولكن ما لديها بضعة جبناء مع تكنولوجيات حديثة يزعمون عن أنفسهم أنهم محررون"، بحسب ما كتب. وأضاف: "فقط أريدهم بشوق أن يبدأوا هجومهم، لأنني أريدهم أن يرتكبوا هذا الخطأ الكبير ببدء شيء لا يعرفون أين سينتهي". وقد عبّر أبناء مسؤولين بارزين عن إعجابهم بهذا التعليق من ابن الأسد، وراوحت التعليقات عليه بين واحد يقول "دود (أو "يا صاحبي" بالأميركية الدارجة) هذا الكلام عميق جداً مثلما هو صحيح أيضاً" وآخر يقول "الابن مثل أبيه – صدقت يا رئيس المستقبل".

الإسلام الراديكالي في سوريا – التاريخ الحديث

يشترك بشار في شكل واضح مع أبيه حافظ في الكره للإسلاميين. فقد كان حافظ الأسد يعتبر الإخوان المسلمين وجماعات أصولية أخرى التهديد الأخطر لقاعدته في السلطة، وعلى رغم حظرها منذ العام ١٩٦٤ بقيت جماعة الإخوان المسلمين المعارضة السياسية الأكثر فعالية لحزب البعث. وقد تأكدت مخاوف الأسد من الإسلاميين عندما اندلع تمرّد متفرق في أنحاء البلد في العام ١٩٧٦ واستمر لنحو ستة أعوام.

قبل ذلك كانت جماعة الإخوان المسلمين قد شهدت في العام ١٩٧٢ انشقاقاً ما زال يؤثر حتى اليوم على نظرة عموم الشعب السوري إلى الجماعة، كما أنه يؤثر في التقدم الذي يحققه تنظيم الدولة الإسلامية في سوريا. فقد ظهر في الجماعة جناحان، أحدهما أكثر اعتدالاً مركزه دمشق ويقوده عصام العطار، والآخر أكثر تشدداً تتركز قوته بين حلب وحماة ويقوده عبد الفتاح أبو غدة، وكان هذا الجناح الأخير عازماً على خوض مواجهة عنيفة مع النظام. وما زال هذا الخط الفاصل بين الجناحين الراديكالي والمعتدل يقسّم البلد حتى اليوم.

وعندما تواصل هذا الانقسام بين جناحي الإخوان المسلمين، ظهرت جماعة إسلامية جديدة باسم "الطليعة المقاتلة" بقيادة مروان حديد الذي كان قد تلقى تدريبات عسكرية في مخيمات لمنظمة التحرير الفلسطينية في الأردن. وكانت لهذه الجماعة خلايا في دمشق وحلب وحماة، لكن قاعدة عملياتها بقيت في الأردن. جذبت "الطليعة المقاتلة" أعضاءً وتمويلاً من جماعة الإخوان المسلمين، وصارت عملياً بمثابة جناحها العسكري.

بحلول العام ١٩٧٩ وجد العلويون ومسؤولو حزب البعث أنفسهم عرضةً لهجمات ومحاولات اغتيال متكررة، وما أن حل العام ١٩٨١ حتى كان قد تم قتل أكثر من ٣٠٠ شخص بينهم أئمة انتقدوا العنف. وفي حين كانت البلاد تستعد للاحتفال بالعيد الـ١٧ لانقلاب حزب البعث، شهدت معظم المدن والبلدات السورية إضرابات واحتجاجات شلّت الحركة فيها، كما حصلت مواجهات بين المحتجين وقوات الأمن.

في ٢٦ حزيران/ يونيو ١٩٨٠ حاول مسلحون من "الطليعة المقاتلة" اغتيال حافظ الأسد، وكان ردّ حكومته بالغ العنف والبطش. ففي اليوم التالي لمحاولة الاغتيال قامت سرايا الدفاع – شعارها جمجمة وسيفان – بقيادة رفعت الأسد، أخ حافظ، بقتل ١١٥٢ سجيناً إسلامياً في سجن تدمر، مطلقةً النار عليهم من أسطح السجن عندما كانوا متجمعين في باحته، فتمّ اصطيادهم مثل السمك المحاصر في وعاء لا يمكنه القفز منه.

في تموز/ يوليو ١٩٨٠ أصدر حافظ الأسد مرسوماً نصّ على اعتبار أن الانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين يُعتبر جريمة عقوبتها الإعدام. لكن على رغم ذلك استمر

التمرد بوتيرة منخفضة، وشنّت جماعة الطليعة المقاتلة هجمات استهدفت منشآت حكومية ومقرات للشرطة ومبان تابعة لحزب البعث. وبين آب/ أغسطس وتشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨١ وقعت أربع هجمات ضخمة بسيارات مفخخة استهدفت، بالتدريج، مقر قيادة حزب البعث، ومقر قيادة أجهزة الاستخبارات، ومقر قيادة القوات الجوية، ومكتب رئيس الوزراء. وهذه الهجمات، في تكتيكاتها وأسلوبها والمواقع التي استهدفتها، تذكّر بنوعية الهجمات التي يشنّها تنظيم القاعدة، لكن لم يتم آنذاك استخدام أسلوب الانتحاريين فيها.

في ٢ شباط/ فبراير ١٩٨٢ قادت جماعة الإخوان المسلمين والطليعة المقاتلة تمرداً ضخماً في حماة وسيطرتا على هذه المدينة التي يقطنها قرابة ٢٥٠ ألف شخص. وردّ حافظ الأسد وشقيقه رفعت باستخدام أكبر قوة ممكنة لقمع التمرد، فتمّ قصف المدينة بلا هوادة على مدى ثلاثة أسابيع إلى أن استسلمت جماعة الاخوان – وهو أسلوب كرّره نظام بشار الأسد لاحقاً خلال محاولته قمع الثورة في شباط/ فبراير وآذار/ مارس عام ٢٠١٢. وقد فقد ما لا يقل عن ٢٠ ألف شخص أرواحهم نتيجةً للقصف العنيف الذي تعرضت له حماة. لكن حافظ الأسد ألقى باللوم في هذه المذبحة على جماعة الإخوان المسلمين – في تصرف ماكر يهدف إلى ضمان أنّ السكان (الذين فقدوا كل ما يملكون نتيجة ما حصل) سيفقدون أي حماسة ربما كانوا يكنّونها نحو تبنّي الأجندة الإسلامية. وربما كان بشار الأسد يتوقع رداً شعبياً مماثلاً عندما بدأت عمليات التفجير التي يقوم بها الجهاديون في دمشق في العام ٢٠١٢ واتّهم تنظيم القاعدة بالوقوف وراءها.

وبعد مذبحة حماة أقرت الحكومة السورية بأنها سجنت ٣٠ ألفاً من قادة وأعضاء جماعة الإخوان، وبذلك انتهى الوجود الرسمي لأي جماعة إسلامية داخل سورية لقرابة عقدين من الزمن.

انتقلت قيادة الإخوان المسلمين إلى المنفى، لكنها بقيت، على رغم ذلك، أكثر المعارضات السياسية تنظيماً ومصداقية – كما كان وضع الإخوان في العديد من الدول العربية الأخرى لا سيما تلك التي شهدت "الربيع العربي" مثل تونس ومصر وليبيا. وقد نضج فرع الإخوان السوري في لندن على وجه الخصوص ليصبح مجموعة معتدلة تروّج للديموقراطية وإنهاء أي عنف سياسي.

قبل خمس سنوات من أول احتجاجات شهدها "الربيع العربي"، أوضح زعيم الفرع السوري لجماعة الإخوان المسلمين في المنفى، علي صدر الدين البيانوني، في مقابلة مع صحيفة **الغارديان**، أن الإخوان المسلمين لا يرون أنفسهم "بديلاً لديكتاتورية فاسدة عمرها ٤٠ سنة... ولكن كشركاء مع آخرين في المرحلة المقبلة". وأضاف متحدثاً من منزله في

المنفى بشمال لندن أن حزبه سعى إلى تغيير سلمي للحكومة في دمشق وإلى إقامة دولة مدنية ديموقراطية، وليس جمهورية إسلامية.

لكن غياب الجماعات الإسلامية المتشددة داخل سوريا لم يعنِ أنه لم يكن هناك متشددون إسلاميون سوريون، بل بالعكس. فالطليعة المقاتلة ظهرت، كما جاء سابقاً، كتفرّع عن جماعة الإخوان المسلمين، وكانت في مقدمة مرتكبي العنف خلال التمرد الإسلامي. ومن بين أعضاء هذه الجماعة عام ١٩٨٠ كان شاب في الواحدة والعشرين من عمره يدعى مصطفى بن عبد القادر ست مريم، المعروف بكنية "أبو مصعب السوري" والذي سيصبح لاحقاً أحد أبرز المفكرين والاستراتيجيين لتنظيم القاعدة، وسيصير أيضاً هو والأردني أبو مصعب الزرقاوي "العرابين الروحيين" لتنظيم "الدولة الإسلامية". اضطر "أبو مصعب السوري" إلى الفرار من سوريا بعد مذبحة حماة، ولجأ إلى الأردن. وبعد سنوات طويلة سيظهر في لندن (حيث قابلته) وفي تورا بورا، بأفغانستان، حيث اندهشت بلقائه ثانية، هذه المرة بجانب أسامة بن لادن. وبحسب تقارير، فقد تم الإفراج عنه من السجن في باكستان حيث تم اعتقاله في العام ٢٠٠٥، وأرسل إلى وطنه سوريا قبل بدء الثورة في العام ٢٠١١، وما زال في السجن حتى اليوم.

كان هناك شخص سوري آخر لعب دوراً رئيسياً في تنظيم القاعدة هو "أبو خالد السوري" الذي قُتل خلال هجوم انتحاري استهدفه مع آخرين في شباط فبراير ٢٠١٤. كان "أبو خالد" من نخبة قادة "القاعدة" منذ نشأة التنظيم، وكان يتولى عندما قُتل مهمة التوسّط بين الجولاني والبغدادي بتكليف من زعيم القاعدة أيمن الظواهري في سوريا. ومن المنطقي افتراض أن "الدولة الإسلامية في العراق والشام" مسؤولة عن اغتياله كونها كانت في خضم نزاع مع "جبهة النصرة" (فرع "القاعدة" الرسمي في سوريا) ومع الظواهري نفسه خلال فترة تنفيذ عملية قتل "أبو خالد" في مدينة حلب.

وللجهاديين السوريين مشاركات عديدة إلى جانب جماعات مرتبطة بتنظيم "القاعدة" في القتال في أفغانستان والبوسنة والشيشان خلال حقبة التسعينيات. ومعروف أن عدداً من الجهاديين السوريين التحقوا بـ"أبو مصعب الزرقاوي" خلال إقامته في هرات بأفغانستان عام ٢٠٠٠، قبل أن يتولى قيادة "تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين". أما "أبو محمد الجولاني" الذي أرسله زعيم "الدولة الإسلامية في العراق" أبو بكر البغدادي لإنشاء "جبهة النصرة" في سوريا، فقد كان تحت قيادة الظواهري في أفغانستان في العام ٢٠٠١.

وفي صيف عام ٢٠١١ زارني في مكتبي وفد من قيادة الإخوان المسلمين يضم السيد زهير سالم، رئيس لجنة العلاقات الخارجية، وفاتح الراوي، العضو البارز في قيادتها، وأكّد لي السيد سالم أمرين أساسيين: الأول أن حركة الاخوان المسلمين في سورية لن تحتكم إلى

السلاح في حربها ضد النظام السورين وستحافظ على سلمية الثورة التي كانت في بداياتها ضد النظام الحاكم في دمشق، لأنها تدرك جيداً أنّ "عسكرة" الثورة ستصبّ في مصلحة النظام، وأكّد أن حركة الاخوان استوعبت جيداً تجربة "حماة" عام ١٩٨٢، وستعارض النظام بالوسائل السلمية، وكشف لي أنه كان من الجناح الذي كان يؤمن بالحوار مع النظام وبما يؤدي إلى عودة التنظيم إلى سورية والانخراط في العمل الدعوي هناك، وقال إنه قاد مفاوضات مع النظام في هذا الخصوص.

أما الأمر الثاني الذي أكّد عليه السيد سالم هو عدم وجود أي مكان لتنظيم "القاعدة" على الأرض السورية، ولن يتم السماح له بهذا الوجود، وذلك ردّاً على مقال كتبته عن وصول تنظيم "القاعدة" إلى سورية، وأكّدت فيه أن التفجير الانتحاري الذي استهدف مقرين أمنيين للنظام في تلك الفترة يحمل بصمات تنظيم "القاعدة".

ولكن الأمور تطورت لاحقاً بشكل مغاير تماماً، وبدأت الثورة السورية تخرج عن إطارها السلمي، وتتجاوب بعض قيادتها لضغوط من دول عربية مثل قطر والممكلة العربية السعودية، علاوةً على ضغوط شعبية سورية لعسكرة الثورة والبحث عن تسليح جماعاتها المعارضة تحت عنوان حماية المتظاهرين السلميين من قمع النظام الدموي. وتطورت الأمور إلى تشكيل الجيش السوري الحر، والمجلس الوطني السوري كمظلة سياسية، وكان لحركة الإخوان موقع قيادي فيه.

وهذا موضوع آخر سنتوسّع فيه في فصل آخر من هذا الكتاب.

عندما وصل الزرقاوي إلى شمال العراق، في العام ٢٠٠٢، كان برفقته عدد من الجهاديين السوريين الذين ساعدوه على إنشاء شبكة من الخلايا النائمة في سوريا ولبنان، إضافةً إلى رصد الحدود الطويلة لسوريا لتحديد المواقع التي يمكن من خلالها تهريب البشر والمؤن والأسلحة. ومع تصاعد التمرد ضد الغزو الأميركي للعراق عام ٢٠٠٣، التحق مزيد من السوريين بصفوف المقاومة، وباتت سوريا قناة يمرّ عبرها المقاتلون الأجانب الذي يذهبون إلى العراق بعد إقامتهم في "بيوت آمنة" يديرها مناصرون سوريون لتنظيم "القاعدة".

بعد سنة من مقتل الزرقاوي، في العام ٢٠٠٦، شنّ النظام السوري حملة ضد "البيوت الآمنة" للجهاديين والخلايا التابعة لـ"القاعدة" التي أنشأها الزرقاوي في داخل سوريا. وأدّت هذه الحملة، كما يبدو، إلى تدفق الجهاديين السوريين إلى العراق، بعدما ضيّق نظام الأسد عليهم داخل سوريا. ولم يبدأ هؤلاء في العودة سوى بعد انطلاق الثورة في العام ٢٠١١، والتي فتحت لهم نافذة سمحت لهم بالانتقال مجدداً إلى بلدهم.

علاقات سوريا الخارجية

تميّزت سوريا عن بقية دول "الربيع العربي" بارتباطاتها الخارجية المميزة، وبالأخص مع القوة الإقليمية البارزة إيران ومع القوتين العالميتين روسيا والصين، ما جعل من الصعوبة بمكان إيجاد حلّ سياسي أو عسكري للأزمة السورية. ولكن مع مرور الوقت أدّت الفوضى التي عمّت سوريا وغياب الحكومة المركزية عن أجزاء واسعة من البلاد إلى السماح لـ"الدولة الإسلامية" بأن تتقدم وتسيطر على ما لا يقل عن ثلث مساحة سوريا. في هذا الجزء سنتناول المسار المضطرب لعلاقات سوريا الخارجية وننظر كيف انعكس الماضي على الحاضر.

بعدما أعلنت "الدولة الإسلامية" قيام الخلافة في حزيران/ يونيو ٢٠١٤، أعلن أبو بكر البغدادي نهاية حدود "سايكس بيكو". يجادِل كثير من المعلقين والمؤرخين أن هذا الاتفاق البريطاني - الفرنسي للعام ١٩١٦، الذي أُبرم في شكل سري وذهب بعكس وعود وضمانات قدّمتها لندن وباريس لحلفائهما العرب (يُناقش هذا الأمر في موقع آخر من هذا الكتاب)، هو السبب الرئيسي للمآسي والاضطرابات التي ميّزت الوضع السياسي في الشرق الأوسط لقرابة مئة سنة.

كان هذا الاتفاق الذي أبرمه الديبلوماسيان السير مارك سايكس وجورج بيكو مخصصاً تحديداً من أجل تقسيم الإمبراطورية العثمانية وضمان أن وحدتها الجغرافية والسياسية لا يمكن أن تتم استعادتها إذا ما جاءت قوة إسلامية أخرى. سوريا الكبرى، أو بلاد الشام، كان لا بدّ وأن تُقسّم بين ما أصبح يُعرف الآن بفلسطين وإسرائيل والأردن ولبنان وسوريا. وفي ظل تنامي المشاعر الوطنية، رفض العرب السير في خطة سايكس - بيكو، لكنها طبّقت بالقوة في العام ١٩٢٠ (بعدما استولت القوات الفرنسية على دمشق) وتم وضع هذه الأراضي تحت حكم الانتداب. أخذت بريطانيا الأردن وأشرفت على التطورات الكارثية في فلسطين ولعبت دور القابلة القانونية لولادة إسرائيل وكل الكوارث اللاحقة. أما فرنسا فقد أخذت سوريا - التي كانت مقسّمة إلى ثلاثة أجزاء مقامة على أسس مذهبية إضافةً إلى كيانات سياسية منفصلة للدروز والعلويين - ولبنان.

بعد الحرب العالمية الثانية (كانت سوريا ولبنان تحت حكم القوات الفرنسية الموالية لحكومة فيشي وبالتالي للنازيين) خرج السوريون بأعداد كبيرة إلى الشوارع مطالبين بالاستقلال. وقد خرج آخر جندي فرنسي من سوريا في العام ١٩٤٦ وتم إعلان قيام الجمهورية السورية التي وحّدت الدويلات الثلاث التي كانت قائمة تحت الانتداب.

غير أن السنوات التي تلت الاستقلال كانت مضطربة في شكل كبير وتميّزت بانقلاب عسكري تلو الآخر (وقعت ثلاثة انقلابات في العام ١٩٤٩ وحده). وشهد بروز موجة

القومية العربية - كردّ على الماضي الاستعماري وبنكهة مميزة ضد الغرب - وحدة سياسية لم تدم طويلاً بين مصر وسوريا تحت مسمّى الجمهورية العربية المتحدة في العام ١٩٥٨. وعقب انقلاب في بغداد انضمّ العراق أيضاً إلى هذه الجمهورية التي سرعان ما تمّ حلها عقب انقلاب عسكري جديد في دمشق قامت به مجموعة من الضباط المستائين من الطريقة التي هيمنت بها مصر على الوحدة مع سوريا. لكن فكرة الوحدة ظلت تراود أفكار السياسيين العرب - حيث أعلنت ليبيا في العام ١٩٧١ "انضمامها" إلى الجمهورية العربية المتحدة. ويمكن وصف هذه الدولة الوحدوية بأنها نموذج علماني من "الأمة" أو "الخلافة"، علماً أن فكرة الوحدة العربية تظل حتى اليوم حلماً يراود الشعوب العربية حتى ولو لم تتحقق وحدتهم هذه خلال العقود الماضية نتيجة استمرار الخلافات والعنف في المنطقة العربية.

وفي حين أن "القضية الفلسطينية" هي بدورها جزء لا يتجزأ من العقل العربي الجماعي، فإن سوريا، كما يجب أن يُقال، أخذت دائماً دوراً قيادياً في كل مواجهة أساسية مع إسرائيل.

عقب رفض العرب خطة الجمعية العامة للأمم المتحدة لتقسيم فلسطين في العام ١٩٤٧، بهدف إفساح المجال أمام إقامة دولة إسرائيل، شنّت الجيوش العربية بقيادة سوريا ومصر هجوماً ما إن أكمل البريطانيون انسحابهم بعد إنهاء الانتداب على فلسطين، لكن الهجوم لم ينجح وتمّ توقيع اتفاقية الهدنة لعام ١٩٤٩.

وحصلت المواجهة الثانية الأساسية بين إسرائيل وسوريا خلال حرب الأيام الستة في العام ١٩٦٧، حيث استطاعت إسرائيل احتلال مرتفعات هضبة الجولان من القوات السورية. وهذه المنطقة الاستراتيجية على الحدود الإسرائيلية - السورية هي موطن لقرابة ١٤٥ ألف درزي سوري اضطروا إلى النزوح عنها.

وفي "حرب رمضان" للعام ١٩٧٣، شنّت سوريا ومصر هجوماً مباغتاً على إسرائيل في محاولة فاشلة لاستعادة الجولان (وسيناء). وفي العام ١٩٨١ ضمّت إسرائيل في شكل غير شرعي مرتفعات الجولان إلى أراضيها، من دون أن يقف في وجهها المجتمع الدولي. وتتمركز قوات سلام من الأمم المتحدة في الجولان منذ العام ١٩٧٤ وهي تؤمن منطقة عازلة بين القوات الإسرائيلية والسورية. وبقيت السيطرة على هذه المنطقة الاستراتيجية المشرفة على شمال شرقي إسرائيل ورقة مهمة من ضمن أوراق نظام الأسد، لكنها تحولت إلى ساحة قتال بعد اندلاع الثورة في العام ٢٠١١، إلى أن سقط جزء كبير منها في أيدي مجموعات متشددة كسبت موطئ قدم على الحدود مع إسرائيل، كما هو الحال مع جماعات جهادية متشددة ناشطة في سيناء. وقد تعرض جنود الأمم المتحدة في الجولان لهجمات وعمليات خطف عدة خلال السنوات الماضية.

وكان الدعم الذي تقدمه سوريا لجماعات ثورية فلسطينية ولـ "حزب الله" اللبناني مصدراً آخر من مصادر القلق لدى كل من تل أبيب وواشنطن. فقد كانت سوريا تستضيف مخيمات تدريب عدة للفصائل الفلسطينية. وحتى العام ٢٠٠٥، عندما سحبت قواتها من لبنان عقب اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري، كانت سوريا القوة الأساسية صاحبة النفوذ في لبنان (جار آخر لإسرائيل) حيث حافظت على وجود عسكري قوي منذ نهاية "حرب السنتين" الأهلية عام ١٩٧٦، عندما دخلت قواتها لبنان كجزء من "قوات الردع العربية" التي أرسلت كقوات سلام للمساعدة في إنهاء الحرب الأهلية اللبنانية.

وعندما زار رئيس الوزراء البريطاني توني بلير دمشق في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١، في أعقاب هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر، لم يتمكن من إقناع بشار الأسد بالالتحاق بـ"الحرب ضد الإرهاب"، ما دفع بالرئيس الأميركي السابق جورج دبليو بوش إلى الإعلان، عام ٢٠٠٢، أن سوريا هي جزء من "محور الشر". وبعدما ربطتها بالعراق، اتّهمت الولايات المتحدة سوريا بأنها تطور وتسعى إلى الحصول على أسلحة دمار شامل، ووجّهت تهديداً إلى دمشق بفرض عقوبات عليها إذا لم تكبح جماح "حزب الله" اللبناني.

ويرتبط توصيف واشنطن الدراماتيكي لدمشق بأنها "شريرة" بخلفيات تعود إلى أيام الحرب الباردة عندما وقفت سوريا في صف الاتحاد السوفييتي. وبعدما صار التطرف الإسلامي بديلاً للشيوعية بوصفه العدو رقم واحد للغرب، تمّ اختيار سوريا كي تمثّل هذا "الشر"، الشيوعي والإسلامي في آن!

ولا شك أن الحرب الأهلية السورية جلبت معها قلقاً جديداً لتل أبيب. فإذا كان الأسد معادياً، فإنه على الأقل كان يملك السلطة الكاملة على بلده وسياسته الخارجية. ولكن عندما بدأت "الدولة الإسلامية" و"جبهة النصرة" تهيمنان على فصائل المعارضة السورية المسلحة، فقد أدى ذلك إلى وصول المتشددين في شكل غير مريح إلى الحدود مع إسرائيل. بالإضافة إلى ذلك، دخل "حزب الله" اللبناني في القتال إلى جانب النظام عسكرياً، وهو أمر يمكن أن يقلق الإسرائيليين أيضاً. كما أن هناك مصدراً آخر للقلق لدى الجانب الإسرائيلي يتمثل في إمكان حصول سوريا على صواريخ روسية من طراز إس-٣٠٠ المضادة للطائرات، ما يمثّل تهديداً آخر لإسرائيل. والأرجح أن إسرائيل تعاني من ورطة (أو معضلة) لأنه مهما كانت النتيجة التي سيرسو عليها النزاع السوري فإنها ستؤدي إلى إضعاف أمنها. فإما سيكون هناك كيان متحالف يضم سوريا وإيران وحزب الله والعراق، وإما سيخرج الإسلاميون بوصفهم القوة العسكرية الأقوى في نهاية الأزمة السورية، وكلا الخيارين لا يُريح إسرائيل.

خريطة المعارضة السورية

ظهرت المعارضة السورية المسلحة خلال الأشهر الـ١٢ إلى الـ١٨ الأولى من بدء الثورة، وتميّزت منذ البداية بالفوضى والتعقيد، إذ ضمت ما لا يقل عن ألف مجموعة مسلحة مختلفة و ١٠٠ ألف مقاتل. بعض هذه المجموعات كان صغير الحجم ويعمل في إطار محلي، لكن كثيراً منها دخل في تحالفات وائتلافات. وفي الفترة الأخيرة مالت غالبية الجماعات إلى تأييد واحدة من أقوى جماعتين جهاديتين في المعارضة: الدولة الإسلامية وجبهة النصرة.

وفي ما يأتي نبذة عن أبرز الجماعات المسلحة في المعارضة:

- الجيش السوري الحر

تأسس في تموز/ يوليو ٢٠١١ على أيدي منشقين عن الجيش النظامي ومتطوعين. كان مركزه في البدء في تركيا حيث كان يتم التدريب وجمع التمويل وتأمين السلاح. وفي داخل سوريا ظهرت عشرات المجموعات التي خاضت القتال تحت راية الجيش الحر، لكن لم تكن هناك قيادة عمليات مركزية، ولا سيطرة سياسة واستراتيجية على هذه المجموعات، ما أدى إلى عدم تحقيقها تقدماً باهراً ضد النظام.

وردّاً على الانتقادات التي صدرت من الدول الغربية والدول الخليجية الداعمة للمعارضة، شكّل الجيش الحر "المجلس العسكري الأعلى" في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٢. وكانت حكومة المعارضة في المنفى، برئاسة أحمد طعمة، هي المسؤولة سياسياً عن هذا المجلس، في حين كان اللواء سليم إدريس رئيس الأركان في المجلس العسكري للجيش الحر وقائده العسكري على الأرض. وكان يُفترض أن يقدم المجلس العسكري الأعلى مثالاً على المعارضة الموحدة و "المعتدلة" التي كان الغرب وحلفاؤه يتطلعون إلى أن تكون بديلاً لنظام الأسد وأيضاً لكي تتصدى لتزايد نفوذ الجماعات الجهادية.

قسّم المجلس العسكري القيادة إلى خمس "جبهات": الشمالية (حلب وإدلب)، الشرقية (الرقة ودير الزور والحسكة)، الغربية (حماة واللاذقية وطرطوس)، الوسطى (حمص والرستن)، والجنوبية (دمشق ودرعا والسويداء). التحق ستة أعضاء من كل جبهة بالقيادة المركزية، وكان لكل جبهة قائد ومجلس استشاري يتألف من مدنيين وعسكريين. وعلى رغم هذه التركيبة التي تبدو منظمة، لم يتمكن اللواء إدريس من فرض سيطرة على العمليات، وبقي المجلس العسكري الأعلى فعلياً مفكّكاً وتعصف به الخلافات. ولم تكن للكتائب المختلفة

العاملة تحت مظلة المجلس العسكري أجندة مشتركة أو حتى هوية مشتركة، وذهب بعضها إلى حدّ التحالف مع جماعات إسلامية ومتشددة خلال سنوات الأزمة.

ومن بين الجماعات المرتبطة بالمجلس العسكري الأعلى: "لواء شهداء سوريا" الذي يضم نحو ٧٠٠٠ مقاتل مركزهم إدلب، و"لواء عاصفة الشمال" وهو عبارة عن جماعة إسلامية كانت تسيطر على معبر على الحدود السورية – التركية قرب أعزاز إلى أن سيطرت عليه الدولة الإسلامية، و"لواء أحرار سوريا" الذي أسسه الضابط السابق في سلاح الجو السوري النقيب قاسم سعد الدين.

أُعفي اللواء سليم إدريس من منصبه في شباط/ فبراير ٢٠١٤ بسبب "فشله في تكوين مؤسسة" في الجيش الحر، وحلّ محله العميد عبد الإله البشير.

في ٢٥ حزيران/ يونيو ٢٠١٤ قررت الولايات المتحدة تمويل المجلس العسكري الأعلى بـ ٥٠٠ مليون دولار، ولكن بعد ذلك بيوم أكّد أحمد طعمة أنه سيتمّ حل المجلس العسكري، وأعلن إقالة العميد البشير وإحالة قيادة المجلس العسكري على التحقيق بشبهة الفساد.

– الجبهة الإسلامية

تكوّنت هذه الجبهة في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٣ استجابةً لمخاوف السعودية من تنامي نفوذ الدولة الإسلامية وجبهة النصرة. وانضوت تحت لواء الجبهة سبع مجموعات وكوّنت جيشاً لا يُستهان به من ٤٥ ألف عنصر. والجماعات السبع هي: حركة أحرار الشام الإسلامية، جيش الإسلام، صقور الشام، لواء التوحيد، لواء الحق، أحرار الشام، والجبهة الإسلامية الكردية.

وعلى الرغم من أن الجبهة الإسلامية تستخدم لغة وخطاباً يشبهان لغة وخطابات الجماعات الجهادية، إلا أن الهدف من إنشائها كان تقديم صورة لوجود جماعات إسلامية "معتدلة" تعمل على إطاحة الأسد وإقامة "دولة إسلامية" محل نظامه. في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٣ انسحبت الجبهة الإسلامية من تحت مظلة المجلس العسكري الأعلى للجيش الحر وبدأت تتقاتل مع ألوية تابعة للمجلس العسكري للسيطرة على بضعة مخازن وعلى معبر باب الهوى مع تركيا. وفي ضوء ذلك جمّدت الولايات المتحدة وبريطانيا تقديم المساعدات "غير الفتاكة" للمعارضة في شمال سوريا.

- حركة أحرار الشام الإسلامية

قادها بعد تأسيسها في أواخر ٢٠١١ بمحافظة إدلب حسان عبود - الذي كان قيادياً في الدولة الإسلامية في العراق - وتضم في عضويتها قرابة ٢٠ ألف مقاتل. اكتسبت هذه الجماعة، التي تُعرف أيضاً بـ"الحركة الإسلامية للأحرار في الشام"، شهرة سريعة عندما نزلت إلى ساحات المعارك، وصارت تُعرف بأنها واحدة من أقوى جماعات المعارضة عسكرياً، كما أنها كانت قادرة على إقامة تنسيق مع الألوية التابعة للمجلس العسكري الأعلى للجيش الحر على الجبهات. في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٢ شكّلت الحركة "الجبهة الإسلامية السورية" مع ١٠ جماعات أخرى بينها لواء الحق. واندمجت حركة أحرار الشام لاحقاً مع ثلاث من هذه الجماعات وشكلت "حركة أحرار الشام الإسلامية" التي عملت عن قرب مع جماعات تابعة لتنظيم القاعدة في سوريا.

في أيلول سبتمبر ٢٠١٤ أدّى انفجار في مقر كانت تجتمع فيه قيادة حركة أحرار الشام الإسلامية في ريف إدلب إلى مقتل عشرات من قادة الصفين الأول والثاني من الحركة من بينهم زعيمها عبود، الذي حلّ محله المهندس هاشم الشيخ (أبو جابر).

- جيش الإسلام

تأسس جيش الإسلام من خلال تحالف أكثر من ٥٠ فصيلاً إسلامياً في منطقة دمشق في أيلول/ سبتمبر ٢٠١٣، ويبلغ تعداد مقاتليه أكثر من تسعة آلاف. أقوى الفصائل فيه هو لواء الإسلام بقيادة زهران علوش، وهو سلفي كان مسجوناً في سوريا ووالده عالم دين مقيم في السعودية. وتأسس جيش الإسلام أيضاً بناءً على تشجيع من الجيش الحر لتوفير قوة تخلق توازناً في مواجهة الجماعات المرتبطة بالقاعدة والناشطة حول العاصمة السورية. ولواء الإسلام ناشط خصوصاً في الغوطة حيث استخدمت قوات الأسد أول هجوم مؤكّد بالسلاح الكيماوي عام ٢٠١٣. تبنّى لواء الإسلام في تموز/ يوليو ٢٠١٢ تفجير مقر قيادة مكتب الأمن الوطني في دمشق ما أدى إلى مقتل زوج أخت الأسد آصف شوكت وقادة أمنيين وعسكريين بارزين.

- صقور الشام

تضم هذه المجموعة قرابة ١٠ آلاف مقاتل، وهي تتركز في جبل الزاوية في ريف إدلب. يقودها "أبو عيسى" (أحمد الشيخ) الذي يدعو إلى إقامة دولة إسلامية في سوريا لكنه لا يؤمن بأنها يجب أن تُفرض فرضاً كما تفعل "الدولة الإسلامية" حالياً. تأسست مجموعة صقور

الشام في أيلول/ سبتمبر ٢٠١١ وتوسّع نشاطها ليشمل حلب ودمشق. في أواخر ٢٠١٣ انضمت جماعة صقور الشام إلى الجبهة الإسلامية.

- الجبهة الإسلامية الكردية

هي جماعة سلفية كردية، وسبق لها أن قاتلت إلى جانب تنظيم الدولة الإسلامية.

ومن الكتائب الأخرى الناشطة تحت مظلة المجلس العسكري الأعلى (الذي تمّ حله من قبل الحكومة الموقتة) جماعة لواء التوحيد، ولواء الحق، وكتائب أنصار الشام.

وهناك أيضاً جماعات مستقلة، لكن معظمها إسلامي التوجه، ومن بينها ألوية أحفاد الرسول، جبهة الأصالة والتنمية، مفوضية دروع الثورة - التي تأسست بمساعدة من جماعة الإخوان المسلمين -، تجمّع أنصار الشام، وألوية شهداء اليرموك. واللافت أن هذه المجموعة الأخيرة تنشط على الحدود السورية - التركية وفي هضبة الجولان. وفي آذار/ مارس وأيار/ مايو ٢٠١٣ احتجز مقاتلو هذه المجموعة جنوداً تابعين للأمم المتحدة لفترة وجيزة في الجولان.

والألوية الوحيدة "العلمانية" في المعارضة المسلحة هي كتائب "الجيش الحر" الأصلية وألوية الوحدة الوطنية. والأخيرة صغيرة جداً بحيث تكاد تكون بلا تأثير، وعدد مقاتليها قرابة ٢٠٠٠.

ولعلّ أبرز سمة تميّز خريطة هذه الجماعات المسلحة أنها تعكس تحوّل الثورة إلى تمرد مسلح يهيمن عليه الإسلاميون. وعندما كرر الرئيس باراك أوباما دعوته في أيلول/ سبتمبر ٢٠١٤ إلى تسليح المعارضة "المعتدلة"، علّق الإعلامي المخضرم المختص بالشرق الأوسط باتريك كوكبيرن لمحاوره قائلاً أنْ "ليس هناك شيء من هذا القبيل".

من الثورة إلى الحرب الأهلية

حققت الثورتان التونسية والمصرية هدفهما الأساسي في غضون أسابيع، أما في ليبيا واليمن فقد استغرقت عملية إطاحة الزعيمين الطاغيين فيهما، القذافي وعلي صالح، أقل من سنة. لكن سوريا كان من المؤكد أنها ستكون مختلفة وأن بشار الأسد لن يرحل بمجرد قيام احتجاجات ضده.

ظهرت أولى مؤشرات التمرد في سوريا في كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير ٢٠١١ كردّ فعل على موجة الاضطرابات التي تجتاح المنطقة. ودعت مجموعة من الناشطين إلى "يوم

غضب" عبر صفحات "فيسبوك" في ٤ شباط/ فبراير، لكن لم يحصل شيء على الأرض.

غير أن مرحلة "الانتفاضة المدنية" في الثورة سرعان ما بدأت في ١٥ آذار/ مارس ٢٠١١ بعدما تمّ اعتقال ١٥ طالباً وتعذيبهم في درعا بسبب كتابتهم عبارات سياسية على الجدران تقول "الشعب يريد اسقاط النظام"، وكانت شعار لثورات عربية أخرى في حينها. وعندما ظهرت احتجاجات على توقيفهم، ردّت قوات الأمن بقتل عشرات المحتجين، وسرعان ما تمددت الاحتجاجات إلى بانياس وحمص وبعض ضواحي دمشق. وقد قُدّمت للمسؤولين المحليين لوائح بمطالب يرفعها المحتجون، لكن الحكومة المركزية تجاهلتها.

وهناك نظريات عديدة تقول إنه لو تجاوب الرئيس الأسد مع هذه المطالب لما استمرت الاحتجاجات، ولكن السلطات السورية تشكك في هذه النظرية وتؤكد أن هذه الاحتجاجات كانت في إطار مؤامرة خارجية هدفها إطاحة النظام السوري. وهناك بعض الصحة لما يقوله أنصار الرئيس الأسد، فقد كشفت وثائق ويكيليكس أن وكالة الاستخبارات الأميركية قدّمت ستة ملايين دولار لمعارضين سوريين لتأسيس محطة تلفزيونية معارضة تبثّ من لندن، كما موّلت مواقع إلكترونية أخرى، وذلك قبل انطلاق الاحتجاجات بعامين تقريباً، وفتحت بريطانيا أراضيها لاستقبال معارضين سوريين مبكراً ومنحتهم حق اللجوء السياسي.

وفي الوقت ذاته واصل ناشطون الحضّ على قيام احتجاجات جديدة، خصوصاً عبر صفحات "فايسبوك" وموقع "تويتر" ومواقع أخرى على شبكة الانترنت. وفي ١٨ آذار/ مارس، بعد صلاة الجمعة، خرجت تظاهرات ضخمة في "يوم الكرامة" في عدد من المدن في أنحاء سورية. استخدمت أجهزة الأمن مدافع المياه والغاز المسيل للدموع في البدء، لكنها سرعان ما بدأت باستخدام أعيرة النار الحي، ما أدى إلى مقتل ما لا يقل عن ٢٠ شخصاً. لكن ذلك زاد المحتجين جرأةً، وفي ٢٠ آذار/ مارس تمّ حرق مقر قيادة حزب البعث ومقرات رسمية أخرى في درعا. وشهد يوم الجمعة، ٢٥ آذار/ مارس، أكبر التظاهرات على الإطلاق، وامتدت عبر كامل أنحاء سوريا. قُتل ٧٩ شخصاً وجُرح المئات على أيدي قوات الأمن المسلحة تسليحاً ثقيلاً وشرطة مكافحة الشغب التي لجأت إلى ضرب المحتجين علناً.

ومع تمدد الاحتجاجات وتضخمها بدأ نظام الأسد في اعتقال كل من يُشتبه في أن له نشاطاً سياسياً، بحيث تم توقيف عشرات الآلاف. وأُدخل تعديل على القانون بحيث سمح لأفراد الشرطة أو أي ضابط في أجهزة المخابرات الـ١٨ العاملة في سوريا بأن يسجنوا المشتبه فيهم لمدة ثمانية أيام بدون توجيه تهمة لهم أو إصدار مذكرة اعتقال.

وفي نيسان/ أبريل حاول المحتجون إقامة خيام ومراكز تجمّع ثابتة، كما فعل أقرانهم وبفاعلية في خلال الاحتجاجات التي أطاحت مبارك في مصر، لكن أعداداً ضخمة من قوات الأمن منعتهم من ذلك، وتمّ نصب حواجز لمنع المحتجين من التنقل بين المدن السورية،

لكن ذلك لم يمنع استمرار الاحتجاجات طوال ذلك الشهر.

وفي الوقت ذاته الذي سمح فيه الرئيس السوري بشار الأسد بالقمع الدموي للاحتجاجات، فإنه حاول أيضاً إطفاء شعلة الثورة بتقديم حزمة من التنازلات استجابةً لمطالب المحتجين. فأفرج عن أعداد من السجناء السياسيين ورفع حالة الطوارئ التي كانت سارية منذ ٤٨ عاماً، كما عُرض على موظفي القطاع العام زيادات فورية في رواتبهم، وتمّ الترخيص بظهور أحزاب سياسية جديدة. وفي نيسان/ أبريل أيضاً أصدر الأسد مرسوماً يسمح بـ"الحق في الاحتجاج السلمي كواحد من أبسط حقوق الإنسان التي يضمنها الدستور السوري"، على رغم أن أي شخص كان يقوم بمثل هذه الاحتجاجات كان في الواقع يحمل دمه على كفّه.

وفي مؤشر إلى أن وعود الأسد لم تُقنع السوريين بإمكان حصول تغيير حقيقي في النظام، اتّسعت موجة الاحتجاجات أكثر. وفي ٢٥ نيسان/ أبريل اتجهت الأوضاع نحو الأسوأ عندما نُشر ستة آلاف جندي لفرض حصار على درعا التي كانت قد أصبحت نقطة التركيز في الاحتجاجات ضد النظام. وقام آلاف الجنود بحملة دهم من بيت إلى بيت في درعا، واعتقلوا المشتبه في مشاركتهم في الاحتجاجات، في حين انتشر القناصة على أسطح المباني، وانتشرت الدبابات داخل المدينة. وقامت السلطات أيضاً بقطع الماء والكهرباء وخطوط الهاتف عن درعا، إضافةً إلى منع دخول المؤن الغذائية. كان ذلك من أوّل المؤشرات إلى عسكرة الثورة، لكنها لم تدم طويلاً بحيث تمكنت قوات الأمن من فرض سطوتها إلى حدّ كبير على السكان. وعلى رغم مقتل المئات، إلا أن الاحتجاجات تواصلت في درعا في أيار/ مايو. ولجأت قوات الأمن أيضاً إلى فرض حصار على مدن وبلدات أخرى متمردة وبينها بانياس وحمص وعدد من ضواحي العاصمة دمشق. وبحلول ٢٤ أيار/ مايو كان قرابة ألف مدني قد قُتلوا في الاحتجاجات. وفي الوقت الذي واصلت فيه السلطات تكتيك محاصرة المدن الثائرة، بدأ المحتجون في تسليح أنفسهم.

ومع نهاية حزيران/ يونيو امتدت الاحتجاجات إلى حلب، أكبر المدن السورية وأكثرها ثراءً. وقد أبلغني الشيخ عدنان العرعور، أحد أبرز الدعاة الإسلاميين الذين لعبوا دوراً بارزاً في التحريض على الثورة في سورية، عندما التقيته في الدوحة في عام ٢٠١١، أن فتح جبهة حلب كانت خطوة متسرّعة وكان يجب التركيز على حماة وحمص ودمشق.

وبعكس ما حصل في بقية ثورات "الربيع العربي"، تحوّلت الثورة السورية بسرعة إلى صراع مسلح غير متكافئ. وفي أواخر تموز/ يوليو ٢٠١١ تمّ الإعلان عن ظهور الجيش السوري الحر الذي تمّ إنشاؤه بسرعة، وضمّ في البداية عدداً من الضباط الذين انشقوا على الجيش السوري النظامي، إضافةً إلى متطوعين عديمي الخبرة في القتال. وبحلول كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١١ ارتفع عديد الجيش الحر إلى ٢٠ ألفاً، قبل أن يصل إلى ٥٠ ألفاً في

الستين اللاحقتين.

وفي المقابل، ظلّ جيش الأسد متماسكاً إلى درجة كبيرة - الانشقاقات التي حصلت في صفوفه كانت أقل مما شهدته دول أخرى من دول "الربيع العربي" - كما ظلّ مهنياً إلى درجة عالية ومزوداً بقوة جوية وأسلحة متطورة. وبالمقارنة، كان معمر القذافي قد قام عمداً بالتقليل من شأن الجيش الليبي خشية انقلابه عليه، واعتمد بدل ذلك على كتائب أمنية يشرف عليها أقرباؤه و"مرتزقة" مستأجرون بأموال من أجل محاربة الثوار. كما أن حكم حسني مبارك انتهى عندما أعلن الجيش المصري تعاطفه مع المحتجين ورفض أن يُطلق النار عليهم.

وبحلول آب/ أغسطس ٢٠١١ كانت سوريا قد انحرفت نحو حرب أهلية حصدت حتى ذلك التاريخ قرابة ألفي ضحية من المدنيين.

الردّ الدولي

بعدما فوجئ بالثورات السابقة التي حصلت في العالم العربي، كان أمام المجتمع الدولي مزيد من الوقت لفحص الوضع في سوريا ودرس تداعياته المحتملة قبل تحوّل الثورة في هذا البلد إلى حرب أهلية.

اعتقد الثوار السوريون ببساطة أن الغرب سيقود وفي وقت مبكر تدخلاً عسكرياً ضد الأسد، مثلما فعل، وبدون أن يوقفه أحد، في العراق عام ٢٠٠٣، وفي ليبيا عام ٢٠١١، لكنهم أصيبوا بخيبة أمل كبرى.

فبعكس القادة الذين سقطوا من قبله في "الربيع العربي"، كان للأسد حلفاء من الوزن الثقيل، مثل روسيا والصين وإيران وحزب الله.

روسيا، التي كانت لا تزال جريحة نتيجة تفكك الاتحاد السوفييتي، لم تقف في وجه الاجتياح الذي قاده الأميركيون للعراق عام ٢٠٠٣، كما أنها تعثّرت في الموضوع الليبي بعدما لم تمارس حق النقض ضد القرار ١٩٧٣ (الذي استخدمه الغرب كمبرر لشن حملة إطاحة حكم القذافي)، وتحدثت بعد ذلك عن خدعة تعرضت لها عندما جرى تمرير القرار رقم ١٩٧٣ الصادر عن مجلس الأمن الدولي تحت عنون إقامة منطقة حظر جوي لحماية المدنيين من مجازر كان يعدّ لها نظام القذافي، وفسّرت قيادة حلف "الناتو" هذا القرار على أنه لحماية المدنيين في كل ليبيا واعتبرته ضوءاً أخضر لقصف قوات القذافي في كل مكان. لكن روسيا الآن عادت مجدداً قوة عظمى وحليفة للأسد. وإضافةً إلى ذلك، القاعدة البحرية الوحيدة للأسطول الروسي على سواحل البحر المتوسط تقع في مرفأ طرطوس السوري، ولذلك فقد كان واضحاً أن لديها أسباباً استراتيجية لضمان بقاء حليفها في الحكم في دمشق.

كما أن الحليفين الإقليميين القويين، إيران وحزب الله اللبناني، وقفا بدورهما وراء بشار الأسد، لأسباب مذهبية وليس فقط سياسية (فالأسد ينتمي، كما أوضحنا، إلى الأقلية العلوية المتفرعة من الشيعة).

وحتى الآن مارست روسيا والصين حق النقض الفيتو ضد أي مشروع قرار طُرح أمام مجلس الأمن بهدف الضغط على الأسد، بما في ذلك مشاريع القرارات التي تهدّد دمشق بعقوبات. ومعلوم أن الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي كانا قد سارعا منذ بدء الأزمة السورية إلى تجميد أرصدة عائلة الأسد وكبار المسؤولين في نظامه، في البدء، ولاحقاً فرض حظر على السلاح اعتباراً من أيار/ مايو ٢٠١١.

وكما في كل العناصر الأخرى في الأزمة السورية، كانت سياسة العقوبات مرتبكة وفوضوية. فقد كان على الاتحاد الأوروبي أن يرفع حظر السلاح عندما قرر أن يسلّح المعارضة في نيسان/ أبريل ٢٠١٢، كما كان عليه في الوقت ذاته أن يرفع الحظر عن صادرات النفط من سوريا لأن الاتحاد الأوروبي أراد أن يشتري النفط مباشرةً من الثوار الذين كانوا قد سيطروا على العديد من حقول آبار النفط - وكان لهذا الأمر عواقب غير مقصودة بزيادته الخلافات بين فصائل المعارضة المختلفة التي بدأت تتقاتل في ما بينها من أجل السيطرة على مصادر الطاقة المربحة (والتي يسيطر عليها حالياً المتشددون)، ما أدى في شكل غير مقصود إلى إضعاف فرص التخلص من الأسد.

وفي وقت ترنّحت الأمم المتحدة نتيجة فشل مجلس الأمن في إصدار قرار يتضمن إجماعاً في الأصوات على سوريا، سعى الغرب من أجل إيجاد هيئة دولية بديلة تأخذ قراراً بهذا الشأن. فتم تكوين مجموعة "أصدقاء سوريا" تحت إشراف وزيرة الخارجية الأميركية آنذاك، هيلاري كلينتون، وسرعان ما منحت هذه المجموعة المعارضة السورية ممثلة بالائتلاف الوطني السوري (الذي كان "مجلساً" وتحوّل "ائتلافاً") غطاء الشرعية والاعتراف الدولي بدعوته إلى حضور اجتماعات "أصدقاء سوريا". وكان الرد الأولي على إنشاء هذه المجموعة حماسياً في البداية، إذ حضر ممثلو أكثر من ٧٠ دولة اللقاء الأول لتدشين "أصدقاء سوريا" في تونس يوم ٢٤ شباط/ فبراير ٢٠١٢، وفي اللقاء الثاني للمجموعة في اسطنبول في الأول من نيسان/ أبريل. ومع حلول اللقائين الجديدين للمجموعة، في باريس يوم ٦ تموز/ يوليو ٢٠١٢ ومراكش في ١٢ كانون الأول/ ديسمبر، بلغ عدد الدول المشاركة ١١٤ دولة.

ولكن بعد شهرين فقط تناقص عدد دول المجموعة في اجتماعها في العاصمة البريطانية برئاسة وزير الخارجية آنذاك ويليام هيغ إلى ١١ أطلق عليهم اسم "مجموعة لندن" أو "مجموعة الـ١١" التي تشكل نواة "أصدقاء سوريا". وكان تراجع مجموعة "أصدقاء سوريا" ناتجاً عن الانشقاقات في صفوفها في شأن مدى المساعدة التي يجب أن تقدمها

للمعارضة السورية والتي تراوحت بين القيام باجتياح شامل، أو تزويد المعارضين بأسلحة نوعية متطورة، أو الاكتفاء بتقديم أسلحة غير فتاكة. وكانت هذه الانقسامات واضحة في كل اجتماع للمجموعة منذ اجتماعها في تونس حين انسحب "الصقر" وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل محتجاً على أنه لا يتم تقديم ما يكفي لمنع الأسد من قتل شعبه. وبسبب الفشل في تحقيق إجماع على أي من القضايا الأساسية المطروحة (اجتماع مراكش، مثلاً، قضى وقتاً طويلاً في مناقشة هل يجب تغيير اسم المجموعة من اسمها الرسمي "أصدقاء الشعب السوري") بحيث انسحب معظم دول المجموعة منها نتيجة الإحباط. وتضم "مجموعة لندن" ١١ دولة هي: تركيا، الولايات المتحدة، المملكة المتحدة، المملكة العربية السعودية، الأردن، مصر، الإمارات العربية المتحدة، قطر، إيطاليا، ألمانيا وفرنسا.

وفي الوقت ذاته برهنت الأزمة السورية على أنها مسبّبة للشقاق على مستوى المجتمع الدولي، كما أنها هدّدت في شكل خطير الأمن الإقليمي، إن لم يكن الأمن العالمي، والاستقرار السياسي، في ظل قيام الدول المختلفة بالتحالف مع بعضها بعضاً أو ضد بعضها بناءً على خلفيات مذهبية. ففي حين وقفت إيران والصين وروسيا وحزب الله في صف نظام الأسد، اختارت الولايات المتحدة وبريطانيا وأوروبا وتركيا ودول "الكتلة السنية" العربية (دول الخليج ومصر والأردن) دعم المعارضة السورية "المعتدلة". وهذا الانقسام المذهبي الذي يميّز اليوم الحرب الأهلية السورية، والذي ساهم في "النجاحات" التي حققتها "الدولة الإسلامية"، يحرّض عليه في الحقيقة ويغذّيه العديد من العوامل التي ليست مرتبطة بالواقع الحالي بل تعود إلى قرون وربما تبقى لقرون في المستقبل أيضاً.

وكان واضحاً أن مسألة التسليح ستؤثر في النتائج المحتملة للنزاع. فقد حصل النظام على أسلحة من روسيا وإيران خلال السنوات الماضية - وبررت موسكو ذلك بالقول إنها لا تخرق عقوبات الأمم المتحدة كونها تقوم فقط بتنفيذ عقود مبرمة سابقاً. أما إيران فقد باتت مزوداً أساسياً للصواريخ ومضادات الدروع والقذائف الصاروخية والمدفعية، التي يتم غالباً تهريبها في طائرات تجارية وفي شاحنات.

وعلى رغم الوعود بتسليح الثوار، لم تقم الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا سوى بتقديم شحنات محدودة من الأسلحة الخفيفة. وواجهت هذه الدول معضلة في صيف العام ٢٠١٣ عندما هدّدت بتقديم أسلحة نوعية للثوار في الوقت الذي بدأ وجود الجهاديين يظهر في شكل أكثر وضوحاً وخطورة. وأدت المخاوف من وقوع هذه الأسلحة التي يتم تقديمها "في الأيدي الخطأ" إلى تجميد خطط التسليح. وفي ظل نقاش حول مدى إمكانية تمييز الثوار "المعتدلين" عن "المتشددين" - حيث كان ضباط الـ "سي آي أيه ينتشرون على الحدود التركية محاولين ضمان أن الثوار "الجيدين" فقط يحصلون على المساعدات

المقدمة – صار الدعم الغربي للمعارضة محصوراً إلى حدّ كبير بتدريب القادة والمقاتلين الذين يتم التأكد من ميولهم، حيث أدار ضباط وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية معسكرات لهذه الغاية في كل من الأردن وتركيا.

ومن جهتهما قامت السعودية وقطر بتمويل وتسليح الثوار. ونشرت صحيفة **نيويورك تايمز** أن قطر شحنت جواً أسلحة إلى تركيا من أجل توزيعها على الثوار السوريين في كانون الثاني/ يناير ٢٠١٢. أما السعودية فقد أرسلت طائرات سلاح الجوي الملكي السعودي لنقل شحنات أسلحة تتضمن صواريخ وقاذفات صواريخ، إضافةً إلى الرشاشات والبنادق الآلية، إلى الأردن وتركيا ومن هناك كان يتم تهريبها إلى سوريا. وتشير تقديرات غير رسمية إلى أن السعودية أنفقت خمسة بلايين دولار على تسليح ودعم المعارضة السورية، مثلما فعلت عندما دعمت وسلّحت المجاهدين في أفغانستان والذين ظهر في وسطهم لاحقاً أكثر الجماعات الإسلامية تشدداً. وقد حضّ السعوديون المجموعات الإسلامية السورية على التوحّد تحت مظلة "جيش الإسلام"، بهدف تمييزهم عن الجماعات الجهادية المرتبطة بالقاعدة والتي يخشونها.

وقد ظهر هنا نزاع بين قطر والسعودية – في البدء على خلفية الانقلاب في مصر في الثالث من تموز/ يوليو الذي أطاح الرئيس المنتخب شرعياً والمنتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين محمد مرسي على أيدي العسكر بقيادة الرئيس الحالي عبد الفتاح السيسي. فقد واصلت قطر، بعد الانقلاب، دعم الإخوان المسلمين، في حين عملت السعودية على إقناع الأميركيين بتصنيفهم كجماعة إرهابية. ثم قامت السعودية بقلب سياسة الأمير بندر بن سلطان بإنشاء ودعم جماعات إسلامية مسلحة من أجل تسريع هدف إطاحة النظام السوري كون هذه السياسة أدّت إلى نتيجة معاكسة تماماً حيث وجدت السعودية نفسها تدعم علناً "الإرهاب" من دون أن تقصد ذلك.

وانعكس الانقسام السعودي – القطري أيضاً في ظهور كتلتين متمايزتين داخل الائتلاف الوطني السوري. وكان السعوديون يريدون أن يحل الرجل الذي يدعمونه، أحمد الجربا، الرئيس السابق للائتلاف، محل بشار الأسد بعد إطاحته. كما وجد السعوديون أنفسهم على خلاف متزايد مع المجتمع الدولي في خصوص سوريا خلال العام ٢٠١٣. فقد كان الرئيس باراك أوباما وضع "خطاً أحمر" من الممنوع تجاوزه وهو استخدام الأسلحة الكيماوية، موحياً بأنه إذا ما ثبت أن الأسد استخدمها فسيؤدي هذا إلى تدخل عسكري تقوده الولايات المتحدة، ما يعني عملياً تغيير النظام في دمشق. وحين استخدمت قوات الأسد السلاح الكيماوي ضد المواطنين المساكين في الغوطة في آب/ أغسطس ٢٠١٣، وقف الرئيس أوباما على شفا التدخل عسكرياً لكنه أحجم عن ذلك في نهاية المطاف، علماً أن مثل هذا

التدخل كان يمكن أن يؤدي إلى اشتعال نزاع عالمي في ضوء الاصطفاف بين الدول الكبرى في صف هذا الطرف أو ذاك. واختار أوباما آنذاك السير في مفاتحات ديبلوماسية روسية على هامش قمة "مجموعة العشرين" في بطرسبيرغ ووافق على مشروع قرار ترعاه روسيا في الأمم المتحدة أدى إلى انضمام سوريا إلى منظمة حظر الأسلحة الكيميائية وموافقتها على التخلص من كل ترسانتها من هذه الأسلحة بحلول منتصف العام ٢٠١٤، وتدمير قدراتها على تصنيع الأسلحة الكيميائية بحلول تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٤. وبعدما أسقطت إصرارها الأولي على تغيير النظام في دمشق، بدت واشنطن فجأةً أقرب أكثر إلى الموقف الروسي من الأزمة السورية مما هي قريبة من موقف حلفائها السابقين المعارضين للأسد، وتحديداً أنقرة والرياض والدوحة.

أثار هذا التغيير في الموقف الأميركي غضب السعودية التي كانت تأمل أن تستفز الهجمات الكيماوية في الغوطة الأميركيين وتدفعهم إلى شنّ ضربات ضد النظام.

واتجهت الأمور نحو الأسوأ عندما بدأت واشنطن سياسة انفتاح على إيران، عدوة السعودية. لم تعرف العائلة المالكة في السعودية بهذا التطور المرعب بالنسبة إليهم سوى من خلال شاشات التلفزيون، كونهم لم يتم إبلاغهم ولا التشاور معهم قبل الاتصال الهاتفي الذي جرى بين أوباما والرئيس الإيراني المنتخب حديثاً حسن روحاني. وفي الواقع، عقد أوباما أملاً كبيراً على أن حلاً ديبلوماسياً متفاوَضاً عليه للأزمة السورية يمكن التوصل إليه من خلال الديبلوماسية الدولية في مؤتمر "جنيف ٢" الذي انعقد بنهاية المطاف في كانون الثاني/ يناير ٢٠١٤، بعد شهور من الشد والجذب.

لم يحاول القادة السعوديون إخفاء استيائهم من أن الولايات المتحدة لا تقوم بما هو مطلوب منها. ففي أيلول/ سبتمبر ٢٠١٣ رفض الأمير سعود الفيصل أن يلقي كلمة بلاده أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، وفي تشرين الأول/ أكتوبر أعلنت وزارة الخارجية السعودية أن المملكة لن تأخذ مقعدها كعضو غير دائم في مجلس الأمن. كانت تلك المرة الأولى التي يتم فيها انتخاب السعودية للعضوية غير الدائمة في المجلس (تدوم سنتين) والتي تسعى معظم دول العالم إليها لاستخدامها في تسليط الضوء على قضايا تهمها أو للتأثير في مواقف قادة العالم.

وبدل أن تقوم الجامعة العربية (تأسست في العام ١٩٤٥) بدور لتقريب وجهات النظر بين الأطراف المتحاربة في سوريا، اختارت أن تساهم في تأجيج النزاع. وكانت خطوتها الأولى طرد سوريا من المقعد الذي تشغله، في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١، وفرض حصار اقتصادي وسياسي على حكومة دمشق، في حين اختارت تونس ومصر ودول الخليج إغلاق سفاراتها في دمشق وطرد السفراء السوريين من عواصمها. أعطت هذه الإجراءات فوراً

وضعاً شرعياً للمعارضة كممثل للشعب السوري، وفي آذار/ مارس ٢٠١٣ دعت الجامعة العربية رئيس الائتلاف الوطني السوري، معاذ الخطيب، لأخذ مقعد سوريا حيث جلس وراء العلم السوري في قمة الدوحة. وكانت الجامعة قد أُنشئت بهدف "حماية استقلال وسيادة الدول الأعضاء"، لكنها هنا اختارت أن تتصرف من خلال تدخل مباشر في شؤون دولة من الدول الأعضاء فيها بدل أن تحاول التوصل إلى تسوية، وهو أمر كان سيحقق أحد أهداف إنشائها، أي تسهيل التعاون بين العرب.

كما اختارت الجامعة أن تدعم تغيير النظام بقوة السلاح في البداية، وأقرّت توفير أسلحة حديثة للمعارضة بهدف تسريع هذه العملية. وساهم ذلك مباشرةً في تسريع تحول النزاع السوري إلى نزاع مسلح، ومهّد الطريق لدخول الجماعات الجهادية ساحة المعركة.

في نيسان/ أبريل ٢٠١٤ اختار موفد الأمم المتحدة والجامعة العربية للسلام في سوريا، الأخضر الإبراهيمي، أن يتخلى عن هذه المهمة المزدوجة وأن يعمل، عوض ذلك، تحت عنوان الأمم المتحدة فقط. قال إن تصميم الجامعة العربية على دعم المعارضة مهما كان الثمن أضرّ بدوره كمفاوض حيادي. وتجاهل الإبراهيمي أيضاً الجامعة العربية بدعوته إيران للمشاركة في مؤتمر "جنيف ٢" - بحيث لم توجَّه دعوات مماثلة إلى أيٍّ من دول الجامعة. لكن إيران لم تحضر المؤتمر في نهاية المطاف بسبب اعتراض شديد من السعودية. استقال الإبراهيمي من منصبه في أيار/ مايو ٢٠١٤ - كما فعل سلفه كوفي أنان من قبله - بعدما عجز عن تحقيق اختراق ديبلوماسي يحل الأزمة السورية المعقدة، ووجّه اللوم في فشل مهمته للنظام والمعارضة في آن واتّهم الجانبين باستخدام الأسلحة الكيماوية في جلساته الخاصة بعد استقالته.

ولعلّ المشكلة الأساسية والمستمرة إلى الآن تتمثل في غياب جسم قوي، موحّد ومتماسك، للمعارضة السورية. فالائتلاف الوطني السوري تم تشكيله كمظلة تجمع فصائل مختلفة في المعارضة، من الإخوان المسلمين إلى الأكراد.

وقد كشفت رسائل بالبريد الإلكتروني تم تسريبها في بدايات العام ٢٠١٤ مدى وعمق الانقسامات والنزاعات الداخلية في فصائل المعارضة. فقد نما تكتلان متمايزان ومتنافسان داخل الائتلاف الوطني السوري، واحد مدعوم من قطر والثاني من السعودية.

وكان من الطبيعي أن تفشل الجهود الديبلوماسية في إيجاد حلّ إذا لم تكن هناك معارضة يمكن الوثوق بها وحكومة افتراضية بديلة عن الحكومة السورية (حكومة الأسد). ولم يتمكن مؤتمران دوليان للسلام - جنيف ١ وجنيف ٢ - من تحقيق أي نتائج، علماً أن جنيف ٢ كاد أن يحقق شيئاً ما لولا الاعتراض السعودي الشديد الذي منع توجيه دعوة إلى إيران للحضور، على رغم أنه كان قد بات واضحاً آنذاك أنه لا يمكن تحقيق تقدم نحو الحل إذا

لم يحضر النظام وحليفاه، الروس والإيرانيون. وعلى رغم فشل جنيف ٢، إلا أنه تمكن من تحقيق ما لا يمكن تصوّره: فقد جلس ممثلون عن النظام والائتلاف الوطني السوري في غرفة واحدة، لكنهما لم يتمكنا من التوصل إلى اتفاق.

وبعد استهلاك كل الفرص الديبلوماسية وسحب ورقة التدخل العسكري من أجل تحقيق تغيير النظام، واجه المجتمع الدولي الآن أزمة جديدة غير متوقعة في سوريا أدّت إلى تمزيق كل الخرائط السابقة في شأن النزاع: ظهور الدولة الإسلامية وإعلانها "الخلافة" في حزيران/ يونيو ٢٠١٤، في تطور أوجد معضلات جديدة لم تكن في الحسبان. فلو تدخل الغربيون الآن في سوريا لكانوا سيُعتبرون أنهم يقفون في الخندق ذاته إلى جانب بشار الأسد، الشخص ذاته الذي كانوا يعملون منذ ثلاث سنوات على إطاحته. وإذا حصل هذا التدخل فإنه سيضع الولايات المتحدة وحلفاءها في تحالف سياسي غير معلن مع إيران – المنافس الإقليمي الأساسي للسعودية والدولة العدوة للدول الغربية – وروسيا. وأن يكون الغرب في حلف غير معلن مع روسيا أمر شائك في الواقع نظراً إلى أن الدول الغربية كانت قد فرضت للتو عقوبات على موسكو بسبب ضمّها شبه جزيرة القرم في آذار/ مارس ٢٠١٤ وتدخلها اللاحق في شرق أوكرانيا، البلد الذي تريد جذبه نحو فلكها. كما أن مجرد التفكير في الوقوف في حلف غير مبرم مع سوريا من أجل مهاجمة الدولة الإسلامية هو بدوره فكرة لا معنى لها (فكرة حمقاء): فذلك يعني أن "الكتلة السنّية" (السعودية وقطر وتركيا والأردن) تحتاج إلى أن تصطف مع أعدائها الشيعة – إيران وسوريا.

كما أن علينا أيضاً أن نشير إلى إسرائيل، التي تُعتبر مركزية في سياسة أميركا الخارجية. فكما كان العراق في ظل صدام حسين، وليبيا تحت حكم معمر القذافي، كانت سوريا ما قبل اندلاع الثورة الحالية دولة تتمتع بقوة عسكرية قوية ومعادية بشدة لإسرائيل. وسوريا على وجه الخصوص يمكن أن تشكل تهديداً حقيقياً لإسرائيل (مرتفعات الجولان تفصل بين الدولتين). ولا شك أن هيمنة الإسلاميين في مصر ما بعد الثورة التي أطاحت مبارك شكلت مصدر قلق عميق لإسرائيل والغرب، وكان طبيعياً بالتالي أن ترحّب تل أبيب بإطاحة الرئيس الإخواني مرسي على أيدي الجيش بقيادة الرئيس الحالي السيسي الذي وافق على التزام معاهدة السلام مع إسرائيل. وفي انعطافة غريبة وغير متوقعة، بات الطرفان الأساسيان في النزاع السوري هما نظام الأسد والدولة الإسلامية وكلاهما يكنّ عداءً عميقاً لإسرائيل.

وكان لافتاً أن الرئيس محمد مرسي أبدى تحمّساً غير مسبوق تجاه الثورة السورية، حين عقد مهرجاناً شعبياً حضره كبار العلماء المسلمين في مصر والعالم العربي، بينهم الشيخان يوسف القرضاوي ومحمد العريفي، في أحد ملاعب كرة القدم في مدينة نصر في القاهرة، قبل أسبوع من الانقلاب الذي أطاح به، أعلن خلاله "الجهاد" في سورية لإطاحة النظام

هناك وإغلاق السفارة السورية في القاهرة وطرد دبلوماسييها. وجاءت هذه الخطوة المفاجئة بضغط من دولتي تركيا وقطر، والأخيرة الداعم الرئيسي لحركة الإخوان، والرئيس مرسي بالذات، وثورات الربيع العربي مالياً وإعلامياً وسياسياً. ويعتقد الكثير من المراقبين أن هذا المهرجان من الأسباب الرئيسية التي دفعت الجيش المصري للتدخل والإطاحة بنظامه بتحريض من قوى داخلية وخارجية، وخاصةً المملكة العربية السعودية التي عقدت العزم على القضاء على حركة الإخوان التي تعتبرها مصدر تهديد للحكم فيها.

الفصل الخامس

جوهر القوّة: الوهابية، السعودية، أميركا و"الدولة الإسلامية"

يُطرح عليّ غالباً سؤال يتعلّق بالعلاقة المعقّدة والمحيّرة بين المملكة العربية السعودية، من جهة، وبين العنف والجماعات الإسلامية المتشددة مثل "القاعدة" ولاحقاً "الدولة الإسلامية" (الدولة الإسلامية في العراق والشام سابقاً). ثم تتلوه أسئلة أخرى تتعلق بالتقارب المتناقض بين واشنطن والرياض.

لقد حافظت هذه العلاقات والتحالفات على الوضع القائم في الشرق الأوسط كما هو لعقود عدة، لكن رياح التغيير - المتمثلة بـ"الدولة الإسلامية" - تُهدد الآن بأن تعصف بها وتنهيها.

تمسك الوهابية، بوصفها شكلاً من أشكال الإسلام السنّي المتزمت والصارم، بمفتاح فهم نشأة هذه التحالفات ولماذا تشكّل "الدولة الإسلامية" اليوم خطراً حقيقياً وداهماً على مستقبل حكم آل سعود.

والواقع أن "الدولة الإسلامية" التي تزعم، كما يبدو، أنها وحدها من يسير على "الطريق الصحيح" للإسلام، كما فسّره الإمام محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر، تعتبر أن الأسرة الحاكمة في السعودية باتت خارجة عن الدين. وعقوبة ذلك الموت المحتّم.

سيكون هذا نوعاً من الكلام الفارغ من أي معنى لولا أن شريحة واسعة من الشعب في السعودية تبدو ميّالة إلى تبنّي فكر "الدولة الإسلامية"، بحسب ما كشف استطلاع للرأي على شبكة الانترنت أظهر أن ٩٢ في المئة من السعوديين الذين أبدوا آراءهم في تموز/ يوليو ٢٠١٤ اعتبروا أن "الدولة الإسلامية" تعمل وفق "قيم الإسلام وشريعته".

والحقيقة أن هناك فرقاً لا يُذكر بين الوهابية التي نشأت على أساسها الدولة السعودية وبين الأفكار التي تروّج لها "الدولة الإسلامية" اليوم.

وقد حذّر المعلق السعودي جمال خاشقجي من المؤيدين الكثر لـ"الدولة الإسلامية" في داخل السعودية والذين، كما قال، "يراقبون في الظل" ماذا يحصل داخل المملكة.

ما هي الوهابية؟

كان الإمام محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٩٢)، مؤسّس الفكر الوهابي، عالماً سنّياً من نجد، المنطقة التي باتت لاحقاً جزءاً مما يُعرف بالمملكة العربية السعودية. تأثر ابن عبد الوهاب كثيراً بكتابات العالم الإسلامي تقي الدين بن تيمية (١٢٦٢-١٣٢٨) الذي يعتبره أتباع السلفية واحداً من أهم العلماء المسلمين. كان ابن تيمية يعتقد أن الأجيال الثلاثة الأولى - أو السلف الصالح - من المسلمين هم الوحيدون الذين ساروا على الطريق الصحيح للدين الإسلامي، واتبعوا تعاليم الإسلام كما هي واردة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة - فالرسول يقول في حديث متفق عليه: "خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ".

كان ابن تيمية يعيش في دمشق خلال حقبة شهدت اضطرابات هائلة، فجيوش المغول كانت قد هزمت الخلافة العباسية ودمّرت عاصمتها بغداد.

ولا شك أن القارئ لم يفته هذا الترابط الجغرافي في الأحداث التاريخية (دمشق وبغداد) وبين الأحداث الدراماتيكية التي يشهدها الشرق الأوسط حالياً. فالكارثة التي حلّت بالمسلمين على أيدي المغول عنت بالنسبة إلى ابن تيمية أن المسلمين حادوا عن الطريق الصحيح وفقدوا إيمانهم الحقيقي ولم يقوموا بواجباتهم الدينية، ولذلك فقد حضّ مسلمي عصره على العودة إلى أساس دينهم: القرآن والسنّة. ويُنسب إليه في الواقع أنه من قام بتضييق تعريف "الإيمان الحقيقي" والذي سيصير لاحقاً جزءاً أساسياً من تعاليم المدرسة الوهابية، إضافةً إلى تأسيسه، في الواقع المعاصر، لمبادئ التكفير والجهاد ضد الكفار والمرتدين عن الدين.

وقد أشار أسامة بن لادن إلى ابن تيمية في بيانه الصادر عام ١٩٩٦، والذي أعلن فيه "الجهاد ضد الأميركيين"، قائلاً: "المؤمنون الحقيقيون سيحرّضون الأمة ضد أعدائها، تماماً كما فعال أسلافهم العلماء مثل ابن تيمية".

وإن إحياء الإمام ابن عبد الوهاب لأفكار ابن تيمية بعد قرابة ٤٠٠ سنة من وفاته، جاء كردّ على ظروف تاريخية. فتأثير الإسلام على الساحة العالمية كان قد بدأ في الاضمحلال في

وقت كان الأوروبيون يقومون بتوسعهم الاستعماري، وهو ما اعتبره الإمام ابن عبد الوهاب نتيجة لحياد المسلمين عن تعاليم دينهم الحقيقية. ظل الإمام ابن عبد الوهاب يتنقل من مكان إلى آخر في جزيرة العرب شارحاً أفكاره للناس، حتى العام ١٧٤١ عندما وجد نفسه تحت حماية زعيم قبلي يدعى محمد بن سعود كان يتخذ آنذاك من واحة الدرعية مقراً له. كان ابن سعود تقياً، لكنه كان أيضاً صاحب طموح. فقد رأى كيف يمكن أن تشكّل تعاليم الإمام تحدياً للقيم والثقافات العربية السائدة وكيف يمكن أن تصبح أداة للوصول إلى السلطة، خصوصاً أنها تتضمن القيام بـ"الجهاد" ضد أولئك الذين يرفضون الخضوع للمتطلبات الأساسية للتعاليم الدينية بحسب تفسير الإمام ابن عبد الوهاب لها.

رفض ابن عبد الوهاب الثقافة العربية والعثمانية التي كانت سائدة في عصره، وأطلق وصفاً يصل إلى حدّ التكفير على الأثرياء الذين كانوا يذهبون في قوافل فاخرة تجوب شبه الجزيرة من أجل الصلاة في مكة المكرمة، واعتبر تصرفهم هذا "بدعة"، وهو الوصف الذي أطلقه أيضاً على الشيعة والصوفية والفلسفة اليونانية وحتى على المذاهب السنّية التي تسمح ببناء الأضرحة وتبرّك بمزارات تعتبرها مقدسة.

والفكرة المركزية في الوهابية تقوم على أن الله وحده يستحق أن يُعبد، وبالتالي فإن أي إطلاق لوصف القداسة - سواء على القديسين أو الأشياء المقدسة مثل الصور والأماكن والأضرحة والقبور - يُعتبر تجديفاً في الدين. ومن هذا المنطلق يمكن فهم ما قامت به حركة طالبان عام ٢٠٠١ عندما قامت بهدم تمثالي بوذا في باميان. وفي أيلول/ سبتمبر ٢٠١٤ أصرّ علماء وهابيون على أن قبر النبي محمد في مكة يجب أن يُدمّر أو يُغيّر مكانه على أساس أن الحجاج يقومون بعبادته. وشدّد ابن عبد الوهاب في تعاليمه على أن اسم الله هو الوحيد الذي يجب أن يُذكر في الصلاة، وعلى أن ليس هناك من وسطاء بين الله وعباده، ولا شفاعة للأنبياء أو القديسين أو العلماء. كما أنه دان الاحتفال بعيد المولد النبوي قائلاً إن هذه العادة مرتبطة بالمسيحيين وليس بالإسلام.

ومن المبادئ الأخرى الأساسية للوهابيين، والتي يطبّقها أتباع "الدولة الإسلامية"، الاعتقاد بالنص القرآني الذي يُفهم حرفياً، والاعتقاد بأن الشريعة الإسلامية يجب أن تكون المصدر الذي تقوم عليه دولة الخلافة وتدير شؤونها بناءً على تعاليمها. ووفق هذا التفسير يجب على الرجال أن يصلّوا علناً وأن تكون هندسة المساجد خالية من الزخرفات قدر الإمكان.

وفي طريقة الحياة اليومية، تفترض هذه التعاليم بأتباعها الابتعاد عن البدع التكنولوجية (على رغم أن الجهاديين بارعون حالياً في استخدام شبكة الانترنت)، وتحرّم عليهم الحلاقة وتعاطي الخمر والتدخين أو التلفظ بالشتيمة. أما الآلات الموسيقية فهي حرام، على رغم أن

الأناشيد مباحة وشعبية جداً في أوساط الجهاديين اليوم. كما أن ابن عبد الوهاب أصرّ، بناءً على ما جاء في تفسيره للقرآن الكريم، على عدم تولّي المرأة دوراً قيادياً.

هذه هي الأيديولوجية الموجودة في قلب التعاليم السلفية والمعبّر عنها بشكل جلي في تصرفات "الدولة الإسلامية". وقد عبّر أبو عمر البغدادي عن هذه الصلة بوضوح في العام ٢٠٠٦ بوثيقة "مبادئ الدولة" التي قال إنها يجب أن "ترتكز على العقيدة المنسية: الولاء والبراء" – ما يمثّل مرجعية مباشرة بكتابات الإمام ابن عبد الوهاب – في خصوص "الولاء" لله و "البراءة" من الكفّار – أو بعبارة أخرى، أي شكل من أشكال الإسلام الذي لا يتفق مع التفسير الضيق الذي قدمه ابن تيمية وابن عبد الوهاب لـ"الإسلام الحقيقي".

وقد شدّد الإمام ابن عبد الوهاب في تعاليمه على الحاجة إلى "حاكم لكل المسلمين" يقدّم له كل المؤمنين الحقيقيين البيعة. بطريقة مثالية، يُفترض أن يكون هذا الحاكم هو "الخليفة" أو الأمير المعترَف به. وقد فسّر ابن عبد الوهاب مبدأ "الأعمدة الثلاثة": "حاكم واحد، سلطة واحدة، ومسجد واحد". وبالنسبة إلى محمد بن سعود وذريته يمكن وضع كلمة "ملك" محل عبارة "حاكم واحد".

العلاقة بين آل سعود والوهابية

في العام ١٧٤٥ أدّى ابن سعود وابن عبد الوهاب، سوياً، قسماً تعهدا فيه السيطرة على الجزيرة العربية، التي كانت لا تزال آنذاك جزءاً من الخلافة العثمانية، وتأسيس مملكة فيها تقوم على أفكار الإمام ابن عبد الوهاب. كانت قبيلة ابن سعود متمرسة أصلاً في القتال، لكنها هنا بدأت تسيطر على القرى وتصادر البضائع باسم الجهاد وليس نتيجة عمل ينمّ عن مصلحة شخصية أو مجرد صراع سياسي بين قبائل متنافسة. وكان هذا الأسلوب الجديد في خوض المعارك – باعتبارها جهاداً – نموذجاً جديداً سيتم اعتماده تكراراً في ما بعد.

بحلول العام ١٧٩٠ كان معظم الجزيرة قد بات تحت سيطرة تحالف ابن عبد الوهاب وابن سعود، باستثناء مكة والمدينة المنورة. كما شنّ هذا التحالف باستمرار غارات في اتجاه الحدود مع سوريا والعراق بهدف توسيع نطاق سيطرته خارج الجزيرة. وكما تفعل "الدولة الإسلامية" حالياً، اعتمد هذا التحالف على عنصر الخوف لإرهاب أعدائه، ولم يتوانَ حتى عن ارتكاب مذابح كما فعل بقرابة خمسة آلاف شيعي تم قتلهم في كربلاء عام ١٨٠١. وبحسب عثمان بن بشير النجدي، وهو أحد مؤرخي الدولة الوليدة لتحالف آل سعود وابن عبد الوهاب: "أخذنا كربلاء، وذبحنا، وأخذنا أهلها سبايا. إذن الحمد لله رب العالمين. لن نعتذر عن ذلك ونقول لكل الكفّار: (ستلقون) المعاملة نفسها".

في العام ١٨٠٣ سيطر هذا التحالف على مكة والمدينة. استسلمت المدينتان فوراً بسبب الهلع نظراً إلى السمعة المخيفة للمقاتلين الوهابيين الذين يُعرفون باسم "الإخوان" (غير جماعة "الإخوان المسلمين" الحالية) والذين قاموا بهدم مزارات وقبور وآثار إسلامية تعود إلى قرون مضت، وفرضوا رؤيتهم هم لما يعتبرونه "الطريق الصحيح" التي يجب أن يتبعها المؤمنون. وقد مثّل العنف الشديد وسياسة الهدم استراتيجية نفسية متعمّدة لتحالف ابن سعود وابن عبد الوهاب (سنناقشها في شكل معمّق في فصل لاحق)، وهي استراتيجية يطبّقها حالياً، وفي شكل كامل، مقاتلو "الدولة الإسلامية". فالخوف، وليس أي تقدير عقلي آخر لحظوظه في المواجهة، كان السبب في تخلّي الجيش العراقي عن سلاحه والفرار من الموصل في حزيران/ يونيو ٢٠١٤، عوض الاشتباك مع مقاتلي "الدولة الإسلامية في العراق والشام" المتقدمين نحو المدينة.

لكن الدولة السعودية الأولى – التي حارب من أجلها مقاتلو "الإخوان" وطبّقت نموذجاً وهابياً جعل الخضوع لحكم الملك واجباً دينياً – لم تدم طويلاً. فبحلول العام ١٨١٢ رأى العثمانيون أن التوسع السريع لنفوذ آل سعود، تحت حكم ثالث ملوكهم سعود بن عبد العزيز، بات يشكّل تهديداً لسلطتهم، وشنّوا هجوماً معاكساً، وبحلول العام ١٨١٨ كان العثمانيون قد سيطروا على كل المدن الأساسية في شبه الجزيرة العربية بما في ذلك الدرعية عاصمة الوهابيين.

لم يُسمع عن الوهابيين الكثير خلال قرابة قرن من الزمن، لكن حظوظهم سرعان ما تغيّرت مع نشوب الحرب العالمية الأولى التي هددت الإمبراطورية العثمانية وأدت إلى تفككها بعدما سار العثمانيون في خيار قاتل بوقوفهم إلى جانب الألمان الذين خسروا الحرب. قاد آل سعود في تلك الحقبة عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذي أشعل مجدداً الشعلة الوهابية ووحّد القبائل البدوية وأعاد إحياء "الإخوان". ووطّد هذا التحالف بين آل سعود والوهابيين سلطته في الجزيرة العربية بين الأعوام ١٩١٤ و١٩٢٦. وكان اكتشاف النفط واستخراجه سبباً لنشوب توترات بين الوهابيين وملك آل سعود الطموح – وهي توترات ما زالت تحصل حتى اليوم وتشكل تحدياً لأمن الدولة السعودية وتخلق ازدواجية في طبيعة هويتها.

أغرى اكتشاف النفط الدول الغربية التي بدأ قادتها ورجال أعمالها يتقربون من الملك السعودي (علماً أنهم كانوا في الوقت ذاته يعدون الشريف حسين بأنه سيكون حاكماً على الجزيرة العربية). وقد حاول عبد العزيز آل سعود أن يجعل "الإخوان" يخضعون لأجندته هو في طريقة إدارة الدولة، لكن المتشددين في صفوفهم رفضوا تغيير قناعاتهم، ودارت حرب أهلية انتصر فيها عبد العزيز – نتيجة امتلاكه رشاشات ثقيلة زوّده بها البريطانيون كانت نادرة آنذاك تمّ بها قتل العديد من متشددي "الإخوان" المتمردين على حكمه.

أعلن عبد العزيز في العام ١٩٣٢ قيام الدولة السعودية، والتي تحوّلت فيها الوهابية، بحنكة سياسية لافتة، إلى أداة في يد الدولة. وهنا صار نظام القيم المتشدد وغير القابل للمساومة لدى الوهابيين مؤسسة من مؤسسات الدولة السعودية هدفها حماية السلطة المطلقة للملك. ولأسامة بن لادن تعليق مشهور قال فيه إن المملكة العربية السعودية أقيمت "ليس من أجل الشريعة الإسلامية بل من أجل عائلة عبد العزيز (آل سعود)".

وقّع الملك عبد العزيز في العام ١٩٣٣ اتفاقاً مع شركة "ستاندرد أويل" الأميركية، وأعطاها حقوقاً كاملة للتنقيب عن النفط واستخراجه. وبحلول العام ١٩٣٨ أيقنت الشركة – ومعها آل سعود – أنهم يجلسون فوق منجم من الذهب السائل.

عندما مات عبد العزيز في العام ١٩٥٣، توالى أربعة من أبنائه على العرش بدون أن يكون هناك دستور مكتوب، أو برلمان منتخب، أو نظام قضائي، أو أحزاب سياسية، وحفنة بسيطة من الحقوق المدنية. وهذا الوضع ما زال سائداً اليوم إلى حدّ كبير في الدولة السعودية التي فيها أكثر من ستة آلاف أمير يتلقون رواتب منذ يوم ولادتهم. وأسلوب حياة كثير من هؤلاء الأمراء وأنسبائهم وذراريهم – أكثر من ٢٤ ألفاً – يتميّز بالتباهي البالغ بالثراء الذي هناك من يعتقد أنه يمكن أن يكون قد تأتى نتيجة الفساد. وقد قال الأمير بندر بن سلطان، السفير السعودي السابق لدى الولايات المتحدة، في مقابلة تلفزيونية إن الفساد "طبيعة بشرية... إذا قلت لي إن بناء هذا البلد كلّف إنفاق ٣٥٠ بليون دولار من أصل ٤٠٠ بليون، وأنه تمّت إساءة استخدام ٥٠ بليوناً أو طالها الفساد، فأقول: نعم، وماذا يعني ذلك؟".

وبما أن عائدات النفط وصلت تقريباً إلى ٢٥٠ بليون دولار في العام ٢٠١٣، فإن ذلك يعني بالطبع أن هناك احتمالاً لأن يعيش كل سعودي مستوى حياة مريحة. ولكن الذي يحصل أن أعضاء في الأسرة الحاكمة يعيشون في ظل ثراء غير معقول، ولديهم قصور ويخوت وطائرات خاصة من نوع بوينغ ٧٤٧ مرصع أثاثها بالذهب، في حين أن ربع السعوديين كانوا في العام ٢٠١٣ يعيشون تحت خط الفقر. وكما في بقية دول "الربيع العربي"، فهنا أيضاً احتمال واضح لحصول تململ شعبي، خصوصاً إذا ما أضيف لهذا العامل عوامل أخرى مثل البطالة عن العمل في أوساط الشباب (وهي حالياً بحدود ٣٠ في المئة). ومن المفارقة أن النظام التعليمي الذي تتبعه الدولة يركّز في شكل خاص على التعاليم الوهابية، وهو ما ينتج عنه أن شرائح من الشباب يتخرجون وهم لا يصلحون لشغل وظائف سوى في مجال "الجهاد". وربما لهذا الأمر تجد "الدولة الإسلامية" تأييداً عالياً في المملكة العربية السعودية.

لقد تمّ بناء هيكلية الدولة السعودية بأسرها على مبادئ المدرسة الوهابية بحيث لا تحتاج العائلة الحاكمة من أجل تنفيذ سياساتها سوى لموافقة المؤسسة الدينية. وتشارك هيئة كبار العلماء (وهو الجسم الذي يضم رجال دين وعلماء وقضاة بارزين) في مركز صنع القرار

في المملكة، وتلعب دوراً أساسياً في النظام التعليمي والقضائي، وتستند في مواقفها على نصوص شرعية بحسب تفسيرها للقرآن والشريعة الإسلامية. وفي الواقع، يُمسك العلماء بالسلطة الكاملة على المسائل الدينية وضمان التزام المجتمع بمبادئ الأخلاق الإسلامية، وهم أسسوا في العام ١٩٤٠ "هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" التي تملك شرطتها الخاصة المخيفة أو ما يُعرف بـ"المطاوعين".

ويرأس العلماء أيضاً ثاني أهم عائلة في المملكة بعد الأسرة الحاكمة، وهي عائلة آل الشيخ، وهم أحفاد مؤسس المدرسة الوهابية محمد بن عبد الوهاب. والمفتي العام الحالي للمملكة العربية السعودية رئيس هيئة كبار العلماء هو واحد من أفراد هذه الأسرة: الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ. ويعود هذا التحالف بين آل سعود وآل الشيخ، والمعبّر عنه ليس فقط من خلال سياسة التوسع العسكري بل أيضاً من خلال "عقد دعم متبادل"، إلى قرابة ٣٠٠ سنة من الزمن، ويتم تجديده وتوثيقه جيلاً بعد جيل من خلال التزاوج بين الأسرتين. وكما كان الأمر منذ بداية المغامرة بين ابن عبد الوهاب وابن سعود، فإن هذه العلاقة التكافلية تضمن أن المؤسسة الدينية تعطي الشرعية لسلطة آل سعود وتشكّل جزءاً من الأساس الذي تقوم عليه، كما أن آل سعود في المقابل يضمنون من خلال بيروقراطيتهم التي تزداد اتساعاً أن يلتزم المجتمع السعودي الأخلاق والعادات المحافظة جداً والتي يتبناها الوهابيون، ما يعني التمسك أكثر بسلطة العلماء.

تتبنى "الدولة الإسلامية" هيكلية مماثلة، تعتمد أيضاً على المعتقدات الوهابية وتعارض علناً الديموقراطية. وإذا كانت "الدولة الإسلامية" تتبنى نفس المعتقدات الوهابية التي يتبناها آل سعود، إلا أن مآخذها على النظام السعودي هي أنه، في نظرها، يضع عباءة الدين ليخفي وليبرر كل أنواع الآفات التي يقوم بها. كما أن "الدولة الإسلامية" ترفض قبول الملك السعودي كزعيم للمسلمين، وتعتبر أن هذا المنصب يعود إلى "الخليفة" أبو بكر البغدادي المعروف أيضاً بـ"الخليفة إبراهيم".

احتاجت الشركات الغربية لكي تتمكن من استخراج النفط السعودي في شكل آمن إلى أن يكون النظام السعودي أيضاً مستقراً وصديقاً ومطواعاً. والمفارقة أن هذه القيود الوهابية الغريبة في شكل كامل ستضمن أن العائلة السعودية الحاكمة ستبقى في السلطة في حين أن الغرب يطوّر ببساطة عادة التظاهر بأنه لا يرى هذا التخلّف، ولا زيادة الفساد، ولا الانتهاكات الروتينية لحقوق الإنسان التي أبقت مستضيفيهم في الصحراء في سدة الحكم.

هذا لا يعني أنه ليست هناك معارضة في داخل المملكة، بل بالعكس تماماً. ففي العام ١٩٧٩ قاد مشايخ وهابيون متشددون بزعامة جهيمان العتيبي قرابة ٢٠٠ محتج واحتلوا المسجد الحرام في مكة، متهمين الأسرة الحاكمة بخيانة الدين بسبب انحلالهم وفسادهم.

وقد اضطرت الأسرة الحاكمة في السعودية إلى الطلب من فرنسا أن ترسل قواتها لإخراج محتلي الحرم الذين لم يستسلموا سوى بعد ١١ يوماً من المواجهات العنيفة. وقام الحكم السعودي بقطع رؤوس ٦٣ من المحتجين في إعدامات علنية كتحذير لأي شخص يمكن أن يفكر في التمرد مجدداً على الحكم.

وقد خشي السعوديون ما يُعرف بنظرية أحجار الدومينو بعد بدء ثورات الربيع العربي، وقاموا بحملة مبكرة ضد من يشتبه في أنه قد ينظّم احتجاجات. وفي هذا الإطار، يُزعم أن فيصل أحمد عبد الأحد، المنظّم المفترض لدعوة أُطلقت على موقع فايسبوك تحضّ على المشاركة في "يوم غضب" في ١١ آذار/ مارس ٢٠١١، قد قُتل على أيدي قوات الأمن السعودية قبل تنظيم الاحتجاجات (في ٢ آذار/ مارس) بعدما انضمّ إلى صفحته ٢٦ ألف شخص. ووجد خالد الجهني نفسه المشارك الوحيد (إضافةً إلى وسائل الإعلام) في تظاهرة تم تنظيمها في الرياض. وبات خالد معروفاً لاحقاً عبر مواقع الانترنت بأنه "الرجل الشجاع الوحيد في السعودية". ولجأ النظام، من جهته، إلى حظر التظاهرات وحاول ثني الناس عن المشاركة في الاحتجاجات من خلال توزيع ١٢٧ بليون دولار كمنافع على المواطنين، كمرتبات للعاطلين عن العمل، ومشاريع إسكانية وزيادة في الرواتب ومنح مالية للمحتاجين، وعلى رغم ذلك حصلت احتجاجات متفرقة قوبلت بإطلاق النار حيث سُجّل مقتل ١٧ شخصاً على الأقل في بدايات العام ٢٠١٣.

في العام ٢٠١٤، بثّ تلفزيون "بي بي سي العربي" برنامجاً وثائقياً أعدته المواطنة السعودية صفا الأحمد وكشفت فيه كيف أن ثلاث سنوات من الثورة في المنطقة الشرقية التي يقطنها الشيعة والغنية بالنفط شهدت تنامياً لكنها كانت في الوقت ذاته مخفية عن أعين الإعلام العالمي.

شراكة غريبة في سرير واحد: السعودية وأميركا

سلّطت مجلة بريطانية ساخرة الضوء على النفاق المتجذّر والفاضح الذي يميّز العلاقات الأميركية والبريطانية مع السعودية، مشيرةً إلى أن السعودية أعدمت بقطع الرأس علناً ١١٣ شخصاً خلال الشهور الـ٢١ التي فصلت بين خطف الصحافي جيمس فولي في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٢ وقطع رأسه لاحقاً بطريقة وحشية على يد شخص بريطاني من "الدولة الإسلامية" يُعرف باسم "الجهادي جون" في ١٩ آب/ أغسطس ٢٠١٤.

وكم هي التناقضات عندما تقوم مارغريت ثاتشر، رئيسة الوزراء البريطانية، وهيلاري كلينتون، وزيرة الخارجية الأميركية، بتحية القادة السعوديين عبر مصافحة يداً بيد في بلد

ليس مسموحاً فيه للنساء بقيادة السيارة أو الخروج خارج المنزل بدون محرم من أفراد أسرهن الرجال وحيث يمكن أن يكون ثمن مصافحة عابرة بين امرأة ورجل الموت رجماً!

أن تكون علاقة الصداقة هذه، المستمرة منذ ٦٠ عاماً، غير مبنية على قيم مشتركة، فهذا أمر واضح. إنها، بدلاً من ذلك، مبنية على النفط والمال والفساد.

بدأ هذا التحالف الشديد والعلاقة المتناقضة، اللذين نراهما اليوم بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الأميركية، خلال الحرب العالمية الثانية، عندما دفع الاستهلاك المحلي غير المسبوق للنفط إلى بدء سياسة تقوم على النفط في مقابل الأمن والسلاح. لم يتبادل البلدان فتح سفارات في كل من الرياض وواشنطن سوى في العام ١٩٤٦.

وواجهت الولايات المتحدة منافسة شديدة من بريطانيا لإبرام تحالفات وعقود نفطية في الشرق الأوسط. فقد كانت الشركات البريطانية قد استحوذت من قبل على حقوق نهب خيرات إيران والعراق والكويت والبحرين. وفي العام ١٩٤٣ حض هارولد آيكس، وزير الداخلية الأميركي و "مدير ملف النفط" خلال حقبة الحرب العالمية، الرئيس الأميركي فرانكلين دي. روزفلت على أن يعلن أن السعودية تشكّل مصلحة حيوية للولايات المتحدة. وعلى رغم أن السعودية كانت قد فتحت صنابير إمداداتها البترولية في العام ١٩٣٩، إلا أن الحرب أدت إلى تجميد معظم معاملاتها التجارية النفطية، وكانت الدولة السعودية ما زالت فقيرة (باستثناء الأسرة الحاكمة، بالطبع). وفتح إعلان روزفلت أن السعودية تشكل "مصلحة حيوية" لبلاده الباب أمام مساعدات مالية توازي ١٠ ملايين دولار، وشكّلت، بحسب ديفيد هولدن في كتابه تاريخ السعودية، "بداية الاستحواذ الأميركي الكبير" على المملكة.

وهكذا بدأت سياسة التودد بين ابن سعود وروزفلت. عندما عرف الملك السعودي بأن الرئيس الأميركي يهوى جمع الطوابع البريدية، سارع إلى إهدائه مجموعة نادرة من الطوابع السعودية. وعندما كتب روزفلت ليشكره على هديته، اقترح أيضاً عقد لقاء بينهما. وفي ١٤ شباط/ فبراير عام ١٩٤٥ ذهبت السفينة الحربية الأميركية "مورفي" لنقل العاهل السعودي وحاشيته في رحلة عبر قناة السويس للاجتماع بالرئيس الأميركي الذي كان قد وصل على متن سفينة حربية أخرى هي "كوينسي". ويصف صحافيون عاينوا ذلك الحدث كيف تولّت رافعة حمل ابن سعود على عرش مذهّب بين السفينتين. كان العاهل السعودي يعاني مشكلة في القدرة على الحركة، مثل روزفلت، وعندما أشار ابن سعود بعلامة تدلّ على الرضى بعدما رأى الكرسي المتحرك الذي يجلس عليه الرئيس الأميركي، قام الأخير بإهدائه كرسياً متحركاً أيضاً... بالإضافة إلى طائرة "دي سي-٣" لنقل الركاب. وعندما علم رئيس الوزراء البريطاني وينستون تشيرشل بالزيارة السرية لروزفلت من أجل إغراء العاهل السعودي، ردّ بالإصرار على أن تتولى بارجة بريطانية إعادته إلى السعودية في رحلة العودة.

وقد سجّل ابن سعود، في ملاحظاته، أن طاقم السفينة البريطانية كانوا "مثيرين للملل"، كما أن تشرشل كان "متعجرفاً وعديم الاحترام" إذ كان ينفث دخان سيجاره في وجهه، كما أنه كان يحتسي مشروبات كحولية خلال تناوله العشاء. كما لم تُعجب هدية تشرشل ابن سعود، إذ كان مقود سيارة الرولز رويس المهداة على اليمين، على الطريقة البريطانية. حاول كل من روزفلت وتشرشل إثارة قضية فلسطين الشائكة مع ابن سعود الذي لاحظ أنه في حين حاول الزعيم البريطاني أن يستأسد عليه بعرض موقفه بطريقة متغطرسة، أبدى الرئيس الأميركي في المقابل احتراماً بطريقة تقديمه رأيه أمام محاوره السعودي. هذه القصة تعبّر عن الطبيعة الساخرة التي تميّز العلاقة بين الرياض، من جهة، وبين واشنطن ولندن، من جهة ثانية. إذ أنها تتميّز بالإسراف والتفاهة في الوقت ذاته. وعلى رغم أن روزفلت توفي بعد شهرين من ذلك اللقاء، إلا أن نجاحه مع الملك عنى لاحقاً أن ابن سعود لم ينهِ كلياً العلاقات مع واشنطن ولندن عندما بدأت نكبة فلسطين عام ١٩٤٨.

ومع إعلان ملك السعودية الحرب على دول المحور، بدأ تعاون أمني مع الغرب كان ضرورياً من أجل أهدافه في الشرق الأوسط.

وقد تم ضمان إمدادات النفط من السعودية مع بناء شركة "أرامكو" في العام ١٩٤٦ خط أنابيب من الظهران إلى البحر المتوسط. وظلّت الولايات المتحدة مسيطرة على إمدادات النفط السعودية من خلال أرامكو حتى العام ١٩٨٠، عندما اشترت الحكومة السعودية ١٠٠ في المئة من أسهمها. وتُعتبر أرامكو حالياً أغنى الشركات العالمية، وتحصل على عائدات تبلغ بليون دولار في اليوم.

بدأ التعاون العسكري بين السعودية والولايات المتحدة في العام ١٩٤٧ عندما افتتح الأميركيون قاعدة جوية في الظهران وطبّقوا برنامجاً للتدريب العسكري الشامل للجيش السعودي في العام ١٩٤٩.

انتزع الملك فيصل الحكم من أخيه الملك سعود - عندما كان خارج المملكة لتلقي علاج طبي - في العام ١٩٦٤. كان فيصل "ملكاً متطوراً" من النوع الذي يفضّله الغرب ويكرهه الوهابيون. وقد استحدث التلفزيون في السعودية بعد سنة من توليه العرش، وهو ما أثار غضب عناصر محافظة في المجتمع إلى حد أن قام أحد أبناء إخوته غير الأشقاء بشنّ هجوم على محطة التلفزيون وتمّ إطلاق النار عليه وقتله من قبل رجال الشرطة. وسيدفع فيصل ثمن ذلك لاحقاً عندما قتله بالرصاص انتقاماً أحد أبناء أخيه غير الشقيق عام ١٩٧٥.

سيشهد زواج المصلحة الأميركي - السعودي مطبات عديدة خلال عقود من الزمن. فعندما نشبت حرب رمضان العربية - الإسرائيلية عام ١٩٧٣، فرض الملك فيصل حظراً على تصدير النفط للدول الغربية، ما تسبب بأزمة طاقة عالمية. ولم يُرفع هذا الحظر سوى

في آذار/ مارس ١٩٧٤ بعدما ضغطت الولايات المتحدة على إسرائيل لبدء مفاوضات مع سوريا في شأن مرتفعات الجولان. وبعد هذه الصدمة وسّعت واشنطن في شكل كبير ليس فقط علاقتها الاقتصادية مع الرياض بل أيضاً تعاونهما الأمني والعسكري.

وكما رأينا، عرفت المملكة أول تمرد علني عندما سيطر بضع مئات من الوهابيين المتشددين بقيادة الإمام المتشدد جهيمان العتيبي على المسجد الحرام في مكة في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٩. وعلى رغم إخماد هذا التمرد، إلا أن شعلة الثورة كانت يمكن أن تشتعل مجدداً وبسهولة لولا الاجتياح السوفييتي لأفغانستان في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر من ذلك العام. وأدت الدعوات إلى الجهاد ضد السوفييت، والتي روّجت لها الأسرة الحاكمة، إلى دفق في المهاجرين المنتمين إلى أوساط متشددة نحو بلاد الأفغان، ولعبت دور صمام الأمان الذي يمنع تصاعد الأزمة مع المتشددين في داخل المملكة. وقد أدخل الأميركيون السعودية فوراً في الأزمة الأفغانية، وكان السعوديون بدورهم سعداء أن يقوموا بأداء أدوار نيابةً عن الأميركيين - فهم كانوا قد شاهدوا للتو ماذا حصل لشاه إيران عندما تخلّى الأميركيون عن حليفهم وتركوه يفرّ إلى المنفى بعد اندلاع الثورة الإسلامية. وكانت شريحة كبرى ممن يُعرفون بـ"الأفغان العرب" (أو الجهاديون العرب) تنتمي في الواقع إلى المملكة العربية السعودية، ما شكّل سابقة من نوعها لجهة مشاركة السعوديين في "الجهاد" المسلّح في الخارج، وأدّى إلى نشوء ما يُعرف بـ"نواة القاعدة" التي تضم سعوديين على رأسهم بالطبع أسامة بن لادن، أشهر أبناء المملكة.

خيضت حرب الخليج الأولى بين عامي ١٩٩٠ و١٩٩١ بهدف حماية المصالح الأميركية في السعودية في المقام الأول. فقد خشي جورج بوش الأب أن يلجأ صدام حسين بعدما اجتاح الكويت إلى محاولة غزو السعودية أيضاً ما يعني أن النفط سيهيمن عليه زعيم عربي مناوئ علناً للسياسة الأميركية. وكان صدام يملك جيشاً يضم مليون جندي، بينما السعودية، على رغم كل ثرواتها، لم يكن لديها سوى جيش يضم ٧٠ ألف رجل، ونتيجة عدم كفاءة عسكرية لم يكن سوى ألف من هؤلاء منتشرين على الحدود الشمالية للمملكة مع كل من الكويت والعراق عندما غزا صدام الكويت وبدأت أزمة الخليج. ووسط حال ارتباك واضحة، رحّبت السعودية بنصف مليون جندي أميركي على أرضها. وزاد ذلك من العلاقة المتدهورة بين الأسرة الحاكمة والأصوليين الذين ثار غضبهم لما اعتبروه تدنيساً من قوات غير مسلمة لـ"بلاد الحرمين"، وهكذا بدأت موجة احتجاجات داخل المملكة. كان أسامة بن لادن واحداً من بين أشهر المنتقدين علناً للسماح بمجيء القوات الأميركية إلى السعودية. وردّ النظام على هذه الانتقادات بانتزاع فتوى على مضض من رئيس هيئة كبار العلماء الشيخ عبد العزيز بن باز يسمح فيها بالانتشار الموقت للقوات الأميركية على

الأراضي السعودية على أساس أنها جاءت للدفاع عن الإسلام.

بالنسبة إلى أسامة بن لادن والوهابيين المتشددين، ارتكب آل سعود جريمة ما وراءها جريمة ضد الإسلام. فقد تم تدنيس الربوع المقدسة في مكة والمدينة وباتت، في نظر هؤلاء، تحت "الاحتلال المزدوج الأميركي - الإسرائيلي".

وعندما لم تغادر القوات الأميركية مباشرةً بعد تحرير الكويت، أرسل بن لادن، من ضمن ١٠٩ من العلماء المسلمين والشخصيات السعودية، رسالة إلى العاهل السعودي الملك فهد عُرفت بـ"مذكرة النصيحة والإصلاح" المؤلفة من ٤٦ صفحة وتتضمن انتقادات للأسرة الحاكمة بسبب الفساد وانتهاكات حقوق الإنسان. وهنا مجدداً تمكن النظام السعودي من كسب العلماء إلى صفه لتبرير قراراته، وطلب من هيئة كبار العلماء التي تضم ١٧ من أكبر المسؤولين الدينيين في المملكة أن يعلنوا إدانتهم للمذكرة. وقد رفض سبعة من هؤلاء العلماء أن يفعلوا ذلك، فعزلهم الملك فوراً.

وفي الحقيقة، كان هناك ١٠ آلاف جندي أميركي ما زالوا منتشرين في السعودية عندما بدأت حرب الخليج الثانية عام ٢٠٠٣ ولم يغادروا سوى بعدما شنّت "القاعدة" سلسلة هجمات ضد قواعد ومنشآت عسكرية أميركية في المملكة.

وفي الوقت ذاته، كان الاختبار الأكبر للعلاقة بين السعودية والولايات المتحدة يتضخم. ففي العام ١٩٩٦ أعلنت حركة طالبان أنها باتت الحكومة في أفغانستان. وكان تنظيم القاعدة يتمركز في قندهار حيث يحظى علناً بالحماية والدعم من "طالبان". وتعرضت علاقة الرياض بواشنطن للتوتر بعدما انضمت إلى باكستان والإمارات العربية المتحدة في الاعتراف بحق "طالبان" في أن تتولى الحكم، وجرى فتح سفارات كدولة طالبان في هذه الدول.

وفي ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ تحقق أسوأ مخاوف الأميركيين عندما هاجم تنظيم أسامة بن لادن برجي مركز التجارة العالمية في نيويورك وقلب المؤسسة العسكرية الأميركية، البنتاغون. لم يكن زعيم القاعدة وحده سعودياً، بل كان هناك أيضاً ١٥ سعودياً من أصل ١٩ تولوا خطف الطائرات التي استُخدمت في هجمات ١١ سبتمبر، وعلى رغم ذلك لم تُقطع العلاقات بين الرياض وواشنطن. سحب السعوديون اعترافهم بحركة "طالبان" في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١، ووافقوا على دعم عملية القصف الأميركي لمخابئ "القاعدة" في جبال تورا بورا. وتحت ضغط كبير من الأميركيين جمّد السعوديون أرصدة شخصيات ومؤسسات وأقفلوا جميعات خيرية كانت ترسل أموالاً إلى جماعات متشددة. كما طالبت واشنطن بأن لا يتضمن المنهج التعليمي السعودي تعاليم متشددة عن ضرورة الجهاد وبأن يتم طرد ١٠٠٠ إمام انتقدوا علناً سياسات الغرب والولايات المتحدة في الشرق الأوسط. وأدّى "نجاح" هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر إلى بلوغ التأييد الشعبي لـ"القاعدة" مستويات

لم يصلها من قبل. كما بدأ مكتب التحقيقات الفيديرالي (إف بي آي) في تدريب رجال جهاز المباحث التابع لوزارة الداخلية السعودية - لكن المشكلة كانت، كما تقول بعض المصادر، أن ٨٠ في المئة من موظفي هذا الجهاز يتعاطفون مع بن لادن. وفي الوقت ذاته كان الجهاديون السعوديون الفارون من ضربات الأميركيين في أفغانستان يعودون إلى بلدهم حيث أعادوا تنظيم صفوفهم، مشكلين تهديداً داخلياً لأمن السعودية.

تولى الملك الحالي، الملك عبد الله، العرش في العام ٢٠٠٥ وبدأ اختبار الأميركيين بمغازلات مع جهات أخرى. ففي العام ٢٠٠٧ وقّعت الرياض اتفاقاً مشتركاً مع موسكو يقضي بأن تقوم شركة "أرامكو" وشركة "لوك أويل"، عملاقة صناعة الطاقة الروسية، بتطوير حقول غاز جديدة في السعودية، وفي العام ٢٠١٢ وقّعت السعودية اتفاقاً لتطوير الطاقة النووية مع الصين. وقد علّق وزير الخارجية السعودي سعود الفيصل على تحالفات بلاده في فترة ما بعد ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ بالقول إنها باتت عبارة عن "زواج إسلامي، وليس كاثوليكياً" (أي أن الانفصال فيه مسموح).

ويبدو أن الولايات المتحدة بدأت تطوير بنية عسكرية قوية ومتشابكة ومركّزة في الخليج قبل قليل من اندلاع ثورات "الربيع العربي". ففي العام ٢٠١٠ قامت الولايات المتحدة بعقد أضخم صفقة سلاح في تاريخ السعودية بقيمة ٦٠,٥ بليون دولار. وقد تمّ تبرير صفقة بيع أكثر أنواع الأسلحة تطوراً لواحدة من أكثر الحكومات فساداً بأنها تدخل في إطار "التشغيل المشترك" للطرفين. فقد كانت الولايات المتحدة تخطط لكي تتصرف في شكل متناغم عسكرياً مع السعودية في مرحلة ما من المستقبل القريب.

الخلافات العديدة بين الرياض وواشنطن خلال مسار سنوات الأزمة السورية سيُحكى عنها في الفصل الخاص بسوريا. لكن يجدر أن يُسجّل هنا أن السعودية كانت في ٢٠ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٤ واحدة من خمس دول عربية شاركت مع الولايات المتحدة في أول موجة قصف جوي تحصل على الأرض السورية، ظاهرياً بهدف تدمير "الدولة الإسلامية" ولكن، إذا ما نجح السعوديون في تنفيذ مبتغاهم، فلقلب نظام الأسد في الوقت نفسه.

الدعوة - نشر بذور الوهابية

يقوم النظام السعودي، كما رأينا، على افتراض أن الملك زعيم للمسلمين جميعاً (بوصفه وليّ الأمر). لكن لم يتفق مع هذا الافتراض وهابيون وسلفيون أصوليون مثل الراحل أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة و "الخليفة إبراهيم" (أبو بكر البغدادي) زعيم "الدولة الإسلامية". وللدلالة على مدى استماتة الأسرة الحاكمة في السعودية في الحصول على

شرعية دينية لحكمهم ربما تجدر الإشارة هنا إلى أنهم كانوا قد رجوا أسامة بن لادن أن يصدر موقفاً علنياً يعتبر فيه الملك "مسلماً حقيقياً" يطبّق الشريعة الإسلامية في مقابل أن يضاعفوا المبلغ الذي كانوا قد جمّدوه في حساباته المصرفية والبالغ قرابة ٢٠٠ مليون دولار، وهو مبلغ عائد إلى نصيبه من شركة مقاولات والده. وقد قال لي شخصياً عندما قابلته إن مستحقاته تدخل إلى هذا الحساب ولا تخرج منه. وقد حمل له هذا العرض وفد من رجال أعمال في الحجاز والسيد الغطاس زوج ابنته عندما زاره في قندهار في أفغانستان في العام ١٩٩٦.

ومن أجل تعزيز موقع الملك السعودي كزعيم للمسلمين في العالم بدأت المملكة وبقوة سياسة تصدير الوهابية، المعتمدة كأساس لنظام الحكم السعودي، إلى مختلف أنحاء العالم، بما في ذلك الجاليات الإسلامية في الغرب. وكان نشر الدعوة، أو الترويج لأفكار الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أحد الميزات الأساسية في الوهابية، وقد لعب هذا الأمر دوراً محورياً في تأمين الأراضي التي باتت تتشكل منها اليوم المملكة العربية السعودية وجلب القبائل البدوية تحت سيطرة آل سعود.

وعلى رغم شيوع تسمية "الوهابية"، إلا أن قادة السعودية وعلماءها لا يطلقون على أنفسهم صفة "الوهابيين"، بل يقولون فقط إنهم مسلمون. كما أنهم يؤكدون أنهم لا يقدمون تفسيراً مختلفاً للإيمان غير المنصوص عليه في الدين الإسلامي. لكن الواقع أن التعليم الديني في داخل المملكة كان يُصاغ، وفي شكل متزايد، لتلبية ما تمليه الحاجات السياسية للعائلة المالكة، ويركّز على ضرورة طاعة ولي الأمر (الملك). إضافةً إلى ذلك، كان مفروضاً على كل تلميذ في المدارس السعودية أن يدرس كتاب **التوحيد** لمحمد بن عبد الوهاب، وهو كتاب يعتبره كثيرون مصدراً للإسلام العنيف ومن خلاله يصبح "الجهاد" جزءاً من مفردات التخاطب اليومي بين الناس. وهذا النوع من النظام التعليمي يُنتج بشكل طبيعي شباناً متشددين فكرياً، ما يسهّل على الجماعات المتشددة مهمة التجنيد لـ"الجهاد" والحصول على تمويل له.

وقد وجدت السعودية، بعدما بدأت تتمتع بثروتها الهائلة جراء الصادرات النفطية، أن المال لا ينقصها كي تقوم بمهمة نشر الأفكار الوهابية عالمياً، وهو أمر بدأ بجد في سبعينيات القرن الماضي وما زال مستمراً حتى اليوم.

وهكذا ازدهرت المدارس والكليات والجامعات التي يرعاها الوهابيون، خصوصاً في الدول حيث ليس هناك نظام تعليمي تشرف عليه الدولة، ما جعل من المدارس التي تركّز على العلوم الدينية والممولة من السعودية بمثابة المصدر الوحيد المتوفر لتلقي العلم. وكانت المناهج التعليمية في تلك المدارس مكرسة في شكل شبه كامل للتفسير الوهابي

الصارم للإسلام، وما يترافق معه من تركيز على الانقسامات المذهبية والدعوات إلى "قتال الكفار" وإدانة "فسوق الغرب". كما كانت هناك مواد ممنوعة كلياً في مرحلة التعليم العالي، كالفلسفة. وبذلك يكون واضحاً أن هذه المدارس كانت في الغالب تخرّج شباناً (معظمهم ذكور) لا يصلحون لشغل وظائف سوى في إطار المؤسسة الدينية أو الذهاب لـ"الجهاد".

لكن قيام السعودية بكل هذه الجهود لنشر الأفكار الوهابية يمكن أن يُنظر إليه ببساطة على أنه ليس نابعاً في الحقيقة من حماسة دينية في المقام الأول وإنما نتيجة محاولة استغلال سياسية للدين. وللدلالة على صحة هذا الرأي يمكن النظر إلى الملك الراحل فهد (الذي حكم قبل الملك الحالي عبد الله) الذي بنى سمعة عالمية لا يُستهان بها بوصفه منغمساً بالملذات ومقامراً، ولكن في فترة حكمه أنفقت السعودية ٨٧ بليون دولار على ٢١٠ مراكز إسلامية، و ١٥٠٠ مسجد، و ٢٠٢ كلية، و ٢٠٠٠ مدرسة دينية في أنحاء العالم، من باكستان إلى نيجيريا، ومن البوسنة إلى الشيشان، وأيضاً في كندا والولايات المتحدة والمملكة المتحدة، من بين لائحة طويلة من البلدان.

وفي العام ٢٠١٣ نشرت صحف هندية أن السعودية أطلقت برنامجاً بقيمة ٣٥ بليون دولار لإنفاقها على المساجد والمدارس الدينية في كافة أرجاء جنوب آسيا - وهي منطقة تضم بليوناً من أصل ١,٦ بليون مسلم في العالم كله.

ويبدو الهدف السعودي من وراء هذه الحملة التبشيرية "الناعمة" أن يتم تحويل الإسلام إلى "إسلام وهابي" (بحسب التفسير الوهابي للإسلام) وجعل الأمة الإسلامية أمة واحدة حقاً يقودها آل سعود بناءً على أحقية شرعية لهم في ذلك.

ويخدم هذا الأمر، بدوره، الأجندة الأميركية في واحدة من أكثر الترتيبات المتناقضة في التاريخ. فالرغبة السعودية في السيطرة على تفسير الإسلام، وبالتالي على الأمة، تخدم هدفاً أساسياً هو تعزيز السياسة الإقليمية الاميركية، لا سيما تجاه النفط وإسرائيل. وهكذا نشأ اعتماد متبادل بحيث أن الأميركيين يحتاجون إلى السعوديين كوكيل يتولى آلية السيطرة السياسية والديبلوماسية في عموم العالم الإسلامي، بينما يحتاج السعوديون إلى الأميركيين لضمان أمنهم. ومن اللافت الإشارة هنا إلى أنه على رغم إنفاق بلايين الدولارات على أحدث الأسلحة والأنظمة الدفاعية، فإن النظام السعودي لم ينشر أسلحته هذه بعد متّكلاً على الولايات المتحدة للحفاظ على حصانته في مواجهة أعدائه، محلياً أو خارجياً. ولا شك أن صفقات التسلح مع السعودية سهّلت تكوين ثروات هائلة ومدفوعات على شكل عمولات لصانعي القرارات والوسطاء ومرتّبي الصفقات.

تأجيج الجهاد وتمويله

هناك حقيقة معروفة على نطاق واسع وغالباً ما يتم تكرارها في خصوص تمويل الغرب ودول الخليج لـ"المجاهدين" الذي قاوموا الاتحاد السوفييتي في أعقاب غزوه أفغانستان عام ١٩٧٩، وكيف انتصر المجاهدون في النهاية بعد ١٠ سنوات من المعارك المضنية. كان التفسير السائد للإسلام بين الجهاديين الأفغان هو تفسير المدرسة الديوبندية القريبة إلى حدّ كبير من التفسير السلفي – الوهابي.

كان أسامة بن لادن بمثابة الوجه الدعائي للمجاهدين العرب في أفغانستان خلال الثمانينيات، وقد ظهر في أفلام وثائقية، وكان النظام السعودي ينظر إليه على أنه مثال يحتذى به لتشجيع غيره من الشبان على اللحاق به إلى أفغانستان والمشاركة في الجهاد ضد السوفييت. وقد قامت وسائل الإعلام السعودية والمساجد في المملكة بحملة كبيرة آنذاك لتجنيد متطوعين للجهاد الأفغاني. وتشير تقديرات إلى أن ما بين ٣٥ إلى ٤٥ ألف سعودي تركوا بلادهم للالتحاق بالمجاهدين في أواخر الثمانينيات. كما ساهم السعوديون بكميات ضخمة من الأموال التي ذهبت إلى خزائن المجموعات المقاتلة التي ستتحول لاحقاً إلى تنظيم القاعدة.

وعلى رغم أن الحكومة السعودية استحدثت في السنوات الماضية بعض التشريعات المضادة للإرهاب وأعادت تأهيل جهاديين في السجون، إلا أن مواطنيها يظلون يشكلون أكثرية عددية بين المتطوعين للمشاركة في الجهاد، في حين أن الأثرياء الذين لا يدخلون القتال بأنفسهم يعوّضون عن ذلك بتقديم تبرعات سخية من أموالهم.

ولا يشكّل الدعم والتمويل المستمرين من السعودية لأكثر الجماعات تشدداً أي غموض لدى الحكومات الغربية. ففي العام ٢٠٠٩ وجّهت وزيرة الخارجية الأميركية هيلاري كلينتون مذكّرة سرية إلى كبار الديلوماسيين الأميركيين (كشفها موقع ويكيليكس) وفيها لاحظت، بأكثر العبارات هدوءاً، أن متبرعين من المملكة يشكّلون أكبر مصدر تمويل لـ"القاعدة" و "طالبان" و "لشكر طيبة" في العالم. كما أقرت بمشكلة إضافية، وهي أن الحكومة السعودية مترددة في وقف سيل هذه التبرعات.

أشارت المذكرة أيضاً إلى أن قطر والكويت والإمارات تشكّل بدورها مصادر لتمويل الجماعات المسلحة. وعندما ظهرت الجماعات الجهادية ضمن الثوار في سورية قدّمت هذه الدول بحماسة تمويلاً لنشاطاتها معتبرةً أنها تشكّل أفضل رهان على القوة التي تطيح حكم الأسد.

وكشفت وثائق أخرى نشرها موقع "ويكيليكس" أن الجهاديين الذين يسعون الى جمع

التبرعات يدخلون إلى السعودية للحج ثم يُنشئون شركات تعمل كواجهات يتم من خلالها تبييض الأموال. كما أن هناك من بين الحجاج المسافرين لأداء فريضة الحج من يحمل معه كميات كبيرة من الأموال النقدية يتبرع بها للجهاد بصفته هدفاً نبيلاً. كما تقوم جماعات متشددة بالحصول بدورها على تمويل من جميعات خيرية مرخّصة من الحكومة من خلال "ناقلي الأموال النقدية" الذين يسافرون وهم يحملون مبالغ ضخمة وينجحون بسهولة في تفادي رصدهم.

وبالمناسبة، فقد أنشأت جماعة "لشكر طيبة" الباكستانية، التي نفّذت المذبحة الرهيبة في مومباي عام ٢٠٠٨، شركة واجهة في السعودية عام ٢٠٠٥. ومن خلال ذراعها "الخيرية" المسمّاة "جماعة الدعوة"، سعت "لشكر طيبة" إلى الحصول على تمويل من متبرعين سعوديين أثرياء من أجل تمويل المدارس الدينية في باكستان، على رغم أن من المرجّح أن أجزاء ضخمة من هذه التبرعات تمّ تهريبها لتمويل عمليات التدريب على السلاح وشراء الأسلحة وتمويل الهجمات. وبحسب الاستخبارات الأميركية، تعمل جماعة "لشكر طيبة" بموازنة قدرها ثلاثة ملايين جنيه فقط في العام.

شكت مذكرة هيلاري كلينتون من تردّد المسؤولين السعوديين في المساعدة في وقف وصول أموال التبرعات إلى خزائن الجماعات الجهادية، متحدثةً عن "تحدٍّ متواصل لإقناع المسؤولين السعوديين بأن يعاملوا أرصدة الإرهابيين التي تأتي من السعودية باعتبارها أولوية استراتيجية". وانتقدت واشنطن رفض الرياض حظر ثلاث جمعيات خيرية صنّفها الأميركيون إرهابية. وقالت كلينتون في هذا الإطار: "توحي الاستخبارات بأن هذه الجماعات تواصل إرسال أموال إلى الخارج، وأحياناً تموّل التشدّد في الخارج".

وتعكس هذه الوثائق تردداً لدى شريحة من الديبلوماسيين الغربيين في المجاهرة بانتقاد أصدقائهم الأثرياء نظراً إلى المستوى العالي من التعاون في مجال الأعمال مع السعودية - بريطانيا وحدها لديها أكثر من ٢٠٠ مشروع تجاري مشترك مع السعودية. وفي المقابل، يمكن للغربيين المجاهرة بانتقاداتهم لباكستان وأفغانستان، لكنهم لا يوجّهون سوى "إرشادات" لطيفة إلى المسؤولين السعوديين والخليجيين وفقط في الغرف المغلقة. وتكشف الوثائق الأميركية أيضاً أن السفارة الأميركية في الرياض لم تبدِ اهتماماً بقضية تمويل السعوديين لتنظيم "القاعدة" بقدر اهتمامها بالمخاوف من أن يهاجم هذا التنظيم حقول النفط في المملكة.

والواقع أن الأميركيين يعرفون أن دولاً خليجية أخرى تموّل الإرهاب أيضاً، وقد أشارت كلينتون إلى قطر تحديداً بوصفها "الأسوأ في المنطقة" عندما يتعلق الأمر بالتعاون في مجال مكافحة الإرهاب.

واللافت في هذا الإطار أن الصين التي لديها مشكلتها الخاصة مع "الجهاديين" في أوساط أقلية الأويغور، "عملت جاهدة"، إلى جانب باكستان، لمنع فرض الأمم المتحدة عقوبات على "جماعة الدعوة" قبل فترة قصيرة من هجمات مومباي عام ٢٠٠٨. ويبدو، في الواقع، أن الجماعات الجهادية هي ببساطة أداة أخرى في ترسانة الخداع الذي تستخدمه القوى العظمى.

عندما بدأت الثورة السورية اعتقدت السعودية ودول الخليج الأخرى، في شكل واضح، أن "المجاهدين" سيتمكّنون بسرعة من إسقاط نظام الأسد. ولم يتردد علماء السعودية السلفيون والوهابيون في إطلالاتهم التلفزيونية، مثل سلمان العودة ومحسن العواجي والشيخ محمد العريفي، في تأييد "الجهاد" في سوريا بهدف "إزالة بشار وديكتاتوريته من الأرض"، كما قال العريفي. وفي خطابات عاطفية يتخللها ذرف دموع، كان هؤلاء الشيوخ أصحاب النفوذ، ونجوم القنوات التلفزيونية السعودية، يعملون بنشاط على تجنيد مقاتلين من أجل الجهاد في سوريا، وقد حضّوا المواطنين على أن يدعموا بالمال والسلاح أولئك الذين يجاهدون بأنفسهم. وزار العريفي في هذا الإطار بريطانيا مرات عدة من أجل تجنيد مجاهدين لسوريا، وقد نشرت الصحف البريطانية تقارير عن "نجاحاته" في هذا المجال. ومن الأماكن التي خطب فيها كان هناك مركز "المنار" في مدينة كارديف بويلز حيث كان يصلّي شابان بريطانيان: ناصر المثنّى ورياض خان. وقد سافر هذان الشابان لاحقاً إلى سوريا حيث ظهرا في شريط دعائي لتنظيم "الدولة الإسلامية".

وقد بلغ الأمر إلى درجة أن صحيفة **فاينتشال تايمز**، الرصينة والمحافظة في العادة، شنّت هجوماً لاذعاً على السعودية في ٨ آب/ أغسطس ٢٠١٤ ملقيةً اللوم في كل التقدم الذي تحقّقه "الدولة الإسلامية" على أسرة آل سعود وتصديرها الوهابية والمقاتلين الجهاديين بالجملة وتمويلها للجماعات المتشددة. وبعدما جادلت الصحيفة بأن المملكة السعودية خسرت ادعاءها بأنها زعيمة العالم السنّي، وصفت **فاينتشال تايمز** الجهادي الحديث بأنه "وهّابي يتعاطى منشطات الستيرويد".

وقدّمت مقالة **فاينتشال تايمز** أسباباً تقف وراء الموقف المتشدد الذي تتخذه السعودية عندما يتعلق الأمر بـ"الدولة الإسلامية": "بوصفها القيّمة على المدينتين المقدستين مكة والمدينة، تُعتبر (السعودية) أقرب معادل حديث للخلافة الإسلامية القديمة. ولذلك فإنها تكره التصرّفات العنيفة للدولة الإسلامية في العراق والشام بقدر ما تكره الأنواع المنافسة لها من الأصولية الإسلامية، كالإخوان المسلمين".

وهذه النقطة الأخيرة (الكره للإخوان) مساوية في أهميتها للنقطة الأولى (الكره لـ"الدولة الإسلامية") في محاولة تفكيك التعقيدات المحيطة بالسياسات السعودية وردود الفعل عليها

التي تتجلّى في السياسة الخارجية الأميركية. فقد استغرب كثير من المعلقين عندما لم تؤيد المملكة السعودية الرئيس المصري المعزول محمد مرسي، وهو إسلامي أصولي وعضو سابق في جماعة الإخوان المسلمين، ورحّبت عوض ذلك بالانقلاب العسكري الذي انتزع الحكم منه. فبالنسبة إلى أسرة آل سعود يمثّل وجود ديكتاتورية عسكرية صديقة في القاهرة ضامناً مفضّلاً لأمن المملكة في وقت تعمّ الاضطرابات منطقة الشرق الأوسط بأسرها. وكانت جماعة "الإخوان المسلمين" قد صارت القوة الإسلامية المهيمنة في عموم المنطقة في أعقاب الربيع العربي، متحديةً بذلك زعم السعودية أنها زعيمة العالم السنّي. والأخطر من ذلك بالنسبة إلى الأسرة الحاكمة في السعودية أن جماعة "الإخوان" وصلت إلى هذا الوضع بصفتها كياناً سياسياً ينشط من خلال العملية الديموقراطية.

في ١٤ تموز/ يوليو ٢٠١٤ شاهد العالم بسبات كيف أقرّ الكونغرس الأميركي "قانون تصنيف الإخوان المسلمين جماعةً إرهابية"، واضعاً بذلك هذه المؤسسة التي تأسست قبل ٩٠ سنة وتنادي بالوحدة الإسلامية والعربية، والتي وصفتها هيئة الإذاعة البريطانية بأنها "نموذج على النشاط السياسي الممتزج بالعمل الخيري الإسلامي"، في نفس القائمة الإرهابية كتنظيم "القاعدة".

إن هوس النظام السعودي بالتهديدات بأنه يواجه خطراً مصيرياً من إيران في البدء ثم لاحقاً من "الإخوان المسلمين"، جعله يقع في أخطاء لسنوات طويلة في ما يخص تنظيم "القاعدة" والآن تنظيم "الدولة الإسلامية". وكما قال السير ريتشارد ديرلوف، المدير السابق لجهاز الاستخبارات الخارجية البريطاني "أم آي ٦"، للصحافي المخضرم باتريك كوكبيرن، بأنه ليس لديه شك في أن التمويل الكبير الذي جاء وما زال من متبرعين في السعودية، والذي غضّت السلطات الطرف عنه، "لعب دوراً مركزياً في زحف الدولة الإسلامية في العراق والشام على المناطق السنّية في العراق وسوريا". ويربط كوكبيرن بين هذا الدعم غير الرسمي وبين فترة تولّي الأمير بندر بن سلطان منصب مدير المخابرات العامة، لافتاً إلى أن الأخير كان معارضاً شديداً للشيعة وكان يحضّ على تدميرهم، مثيراً نزاعات ذات طابع مذهبي في أنحاء المنطقة. وقد كان بندر مركّزاً في شكل أساسي على إسقاط النظام الديني المنافس في إيران والنظام العلوي للأسد في سوريا إلى درجة أنه لم يرَ الخطر الذي مثّله تنظيم "الدولة الإسلامية" لآل سعود أنفسهم. وقد قالت لي مصادر قريبة من "الدولة الإسلامية" إن السعودية هي هدفهم المقبل.

تولّى بندر منصبه في وقت عصيب لا مثيل له بالنسبة إلى النظام السعودي. جاءت الصدمة الأولى عندما سمحت مبادرة مشتركة روسية – أميركية للأسد بالإفلات من العقاب لاستخدامه السلاح الكيماوي في مقابل انضمامه إلى منظمة حظر الأسلحة الكيماوية في

أيلول/ سبتمبر ٢٠١٣. وفي الشهر ذاته شاهد آل سعود مصدومين كيف بدأت واشنطن ما بدا أنها سياسة مصالحة مع إيران، العدو اللدود للسعودية. كانت واشنطن تعي أن الحل السياسي في سوريا، والذي بدا ممكناً في ذلك الوقت، يعتمد على مشاركة وتعاون إيران، الحليف الإقليمي الأساسي للأسد، وروسيا، القوة العظمى التي تقف وراءه. وقد مارس الأميركيون ديبلوماسية ذكية في التحضير لمؤتمر جنيف٢ لحل الأزمة السورية. لكن حكم آل سعود شعر بالغضب جراء ما اعتبره خيانة ثلاثية من الأميركيين: عدم قصفهم الأسد ردّاً على استخدامه الأسلحة الكيماوية، سماحهم لروسيا برعاية اتفاق منظمة حظر الأسلحة الكيماوية، وتحدثهم إلى طهران. وعبّر السعوديون عن استيائهم بطريقة ميلودرامية غير معتادة منهم. ففي أيلول/ سبتمبر ٢٠١٣ رفض الأمير سعود الفيصل أن يلقي خطاب السعودية أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، وفي تشرين الأول/ أكتوبر رفضت السعودية أن تأخذ منصبها كعضو منتخب لمدة سنتين في مجلس الأمن الدولي.

وقد ترك الغضب السعودي تأثيراً في واشنطن بلا شك، وتم بنتيجته إهدار فرصة محتملة للوصول إلى حل سياسي للأزمة السورية. فقد أصرّ السعوديون على رفض حضور الايرانيين مؤتمر جنيف، كما تمسّكوا برفض أي حل يتضمن بقاء الأسد في منصبه، حتى ولو في شكل موقت. وبما أن الأسد كان ما زال يسيطر على معظم المدن السورية المهمة في ذلك الوقت، فقد كان الاصرار السعودي على تنحيه غير ممكن تحقيقه. وعندما انعقد مؤتمر جنيف في كانون الثاني/ يناير ٢٠١٤ لم ينتج عنه أي اتفاق يوحي بنجاح شهور من الاتصالات الديبلوماسية والمفاوضات البعيدة عن الأنظار.

أُعفي الأمير بندر من منصبه في نيسان/ أبريل ٢٠١٤ بعدما أيقن آل سعود أنهم هم من بات الآن هدف "الدولة الإسلامية". والتحدي الذي واجهته الرياض منذ ذلك الوقت كان، بحسب التعريف الدقيق الذي قدمه باتريك كوكبيرن، إيجاد "جمهور من الأنصار السنّة المعادين للأسد والذين هم في الوقت عينه ضد القاعدة وتجلياتها (الدولة الإسلامية في العراق والشام وجبهة النصرة)".

في أعقاب الربيع العربي دخل الشرق الأوسط في فوضى في ظل غياب قيادة مركزية في العديد من البلدان، فيما شهدت دول قوية سابقاً، مثل العراق وسوريا، تفككاً نتيجة الانقسامات المذهبية. وفي ظل هذه الأوضاع يبدو جلياً أن ادّعاء السعودية أنها زعيمة العالم السنّي إنما هو بمثابة رتق يأخذ في الاتساع، وكلما حاولت السعودية رتقه ازداد اتساعاً، كحال القول المأثور: "اتّسع الرتق على الراتق"!

وبمعزل عن الآليات السياسية التي بحوزة السعودية، فإن المملكة تملك أيضاً إمكانات في مجال الإعلام الذي حرصت على مدى سنوات طويلة على شراء تأثير كبير في وسائطه،

على رغم أن هذا التأثير يواجه تحديات متزايدة نتيجة الحريات التي يوفرها الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي.

التحكّم بوسائل الإعلام

من بين القادة العرب في القرن العشرين كان الزعيم المصري جمال عبد الناصر (الرئيس بين عامي ١٩٥٦ و١٩٧٠) أول من تنبّه للقوة الهائلة التي يتيحها الإعلام وسعى إلى استغلاله، فوضع الصحف والإذاعات ومحطات التلفزة تحت سلطة الدولة بهدف الترويج لرؤيته السياسية القائمة على فكرة علمانية تؤمن بالقومية العربية، وللتأثير أيضاً في الرأي العام. وقد تمكن عبد الناصر، من خلال الإعلام، من الوصول إلى أكثر المناطق النائية في مصر وإلى الرأي العام في العديد من الدول العربية أيضاً. ووجّه الزعيم المصري باستمرار خطابات عبر الإذاعات والتلفزيونات مستخدماً لغة بسيطة يفهمها المواطن العادي في الشارع، فارتفعت شعبيته ارتفاعاً كبيراً. وشكّلت إذاعة "القاهرة" جسراً بين عبد الناصر وشرائح واسعة من العرب الذين كانوا يتوقون إلى قيام أمة عربية تشمل بلدانهم من المحيط إلى الخليج. وكان أكثر المغنين العرب شعبيةً في تلك الفترة مصريين، مثل أم كلثوم وعبد الحليم حافظ، وشكلت شعبيتهم في العالم العربي قناة أخرى عزز عبد الناصر من خلالها شعبيته هو أيضاً. وغالباً ما كانت محطات البثّ المصرية تعرض أغان لأم كلثوم وعبد الحليم حافظ وهما يشيدان بعبد الناصر وبمسيرة "التحرير" التي يقودها. أما الإعلام المكتوب، فعلى رغم أنه وُضع تحت سلطة الدولة، إلا أن التنوع السياسي بقي مقبولاً، بحيث مثّلت جريدة **الأخبار** التيار اليميني وروز **اليوسف** التيار اليساري، في حين احتلت صحيفة **الأهرام** خط الوسط. وكان عبد الناصر يقرأ الصحافة دائماً، وكان يتأثر كما يبدو بما يقرأ.

استخدم عبد الناصر الإعلام أيضاً بهدف انتقاد زعماء عرب آخرين ولكي يثير معارضة لهم داخل شعوبهم – وكان على رأس هؤلاء آل سعود. وبعدما وضع مصر بوصفها الطليعة الثورية للحداثة والتطور في العالم العربي، شكّلت رؤية عبد الناصر الشعبية تهديداً للاستقرار المحلي لمؤسسة الحكم "المتخلفة" والمحافظة جداً في السعودية والتي وصفها عبد الناصر ليس فقط بأنها رجعية بل أيضاً بأنها تخدم أجندة "الإمبريالية" الأميركية. وكره عبد الناصر للأنظمة الملكية في المنطقة والعلاقة الوثيقة التي طوّرها مع الاتحاد السوفييتي جعلاه باستمرار على تضاد مع الملك سعود بن عبد العزيز، وبعد تنحيته، مع الملك فيصل. ورأى عبد الناصر في الحرب الأهلية الدائرة في اليمن فرصته لتوسيع منطقة نفوذه إلى شبه الجزيرة العربية، ما أقلق السعودية، فدارت حرب سعودية – مصرية بالوكالة في اليمن دعم فيها عبد

الناصر الاشتراكيين فيما دعم السعوديون مناصري الحكم الملكي. وليس غريباً أن واشنطن وحكم آل سعود كانا يتوقان إلى التخلص من عبد الناصر (الذي يُزعم أنه كان هدف محاولة فاشلة وراءها السعودية لقتله في آذار/ مارس ١٩٥٨ بإسقاط طائرته خلال هبوطها في مطار دمشق)، وهو ما تمّ في العام ١٩٧٠ بموت الزعيم المصري نتيجة أزمة قلبية.

تعلّم السعوديون درساً عن التأثير الكبير للإعلام في العالم العربي، لكنهم لم يبدأوا سوى في أواخر السبعينيات في استثمار ثروتهم الطائلة للتحكم في هذا الأداة الفعالة للتأثير في المجتمع، حيث أصدروا صحيفة **الشرق الأوسط** عام ١٩٧٨ من لندن لتكون أول صحيفة عربية عابرة للحدود وتُطبع في عدة عواصم عربية وعالمية في الوقت نفسه، وتستقطب أهم الكتاب والصحافيين العرب، وتوظف شبكة واحدة من المراسلين.

بعد غزو صدام حسين للكويت في العام ١٩٩٠ وجد السعوديون أنفسهم في موقف متعارض مع رأي الشارع العربي خصوصاً بعدما وافقوا على استقدام مئات آلاف الجنود الأميركيين إلى المملكة، وبدا آنذاك أن غالبية العرب تقف إلى جانب صدام حسين ولها موقف سلبي من النظام السعودي. وهكذا قرر الملك فهد العمل على كسب قلوب وعقول المواطنين العرب من خلال وسائل الإعلام.

وهنا أيضاً سيتم اكتشاف الازدواجية الموجودة في قلب السعودية، ولكن على عكس المشروع المستمر لتصدير الوهابية (في شكل علني مفضوح)، فإن البرنامج المخصص للإعلام سيكون أكثر دهاءً وسيستخدم الكثير من الدخان والمرايا لحجب أجندته الحقيقية والجهة التي تقف وراءه.

تمثّل المشروع الأول الأساسي في العام ١٩٩١ بإطلاق مؤسسة "أم بي سي" (ميدل إيست برودكاستينغ كوربوريشن) للوليد الإبراهيم، أخ زوجة الملك فهد. وكان لا بد من اختيار لندن مقراً لإطلاق هذه المحطة التي يقع اسمها على وزن اسم محطة أخرى عريقة في لندن هي هيئة الإذاعة البريطانية "بي بي سي" (بريتيش برودكاستينغ كوربوريشين). ثم جاء دور الأمير خالد بن سلطان، قائد القوات السعودية خلال حرب الخليج، ليستحوذ على جريدة **الحياة** اليومية، بينما عزز أبناء الأمير سلمان من قبضتهم على صحيفة **الشرق الأوسط** ومقرها لندن أيضاً. كل هذه الأمور حصلت في العام ١٩٩١.

في العام ١٩٩٤ أسس أمير سعودي آخر قناة "أوربيت" الترفيهية، في حين ظهرت في العام ذاته شبكة راديو وتلفزيون العرب "أي آر تي" الترفيهية أيضاً. والآن، تحت ستار "الليبرالية" والتصرف مثل "الغرب"، بدأت القنوات التلفزيونية الثلاث المملوكة للسعوديين تخدّر (أو تذهل أو تبهر) مشاهديها بأفلام هوليودية ومسلسلات أميركية وبرامج تلفزيون الواقع والبرامج الحوارية.

وعندما أطلقت قطر قناة "الجزيرة" في العام ١٩٩٦، تمكّنت هذه المحطة الجديدة، بصيغتها المتطورة والراديكالية والتي تبث عبر الأقمار الاصطناعية، من خرق قيود لم تكن التلفزيونات الأخرى تجرؤ على تجاوزها وهددت سيطرة السعودية على السوق الإعلامية... وأيقظت المشاهدين العرب من سباتهم. ومنيت أي محاولة سعودية لتحقيق توازن مقابل "الجزيرة" بنكسة عندما تعرضت مصداقية القناة السعودية "العربية" (وهي جزء من "أم بي سي") للتشكيك إثر رفض الرئيس الأميركي جورج بوش التحدث إلى "الجزيرة" لكنه أعطى مقابلة مطولة لـ"العربية" في ظل غليان في الشارع العربي جرّاء انكشاف مزاعم عن إساءة المعاملة والتعذيب في سجون يديرها الأميركيون في العراق. وبالمناسبة، يُطلق إسلاميون على "العربية" اسم قناة "العبرية" بسبب ما يعتبرونه انحيازاً واضحاً منها للولايات المتحدة (وبالتالي إسرائيل).

ومن المثير للاهتمام أن "العربية" رفضت بثّ أشرطة فيديو لأسامة بن لادن وأيمن الظواهري على رغم الدعم والتمويل الكبيرين لأكثر الجماعات الإسلامية تشدداً من قبل شخصيات سعودية، وهو دعم كان على ما يبدو يحظى بموافقة النظام السعودي الذي لم يحتج عليه. وكان الإعلام المملوك للسعودية يركّز في تغطيته للتشدد على التهديد الذي تمثّله هذه الجماعات داخل المملكة، علماً أن هذه الجماعات تحديداً باتت تمثّل التحدي الأساسي لنظام الحكم في الرياض. أما "الجزيرة" فقد كانت، في المقابل، منفتحة على بثّ أشرطة فيديو "القاعدة" وقامت بإجراء نقاشات حول أيديولوجية هذا التنظيم وتاريخه.

إذن، وكما رأينا، يطبّق الإعلام المرتبط بالسعودية في شكل مخفي سياسة تتحكم بتغطية الأخبار السياسية والأيديولوجية والاجتماعية، في وقت يقول عكس ذلك تماماً. ومن أجل إعطاء الانطباع بالتوازن والانفتاح، توظّف القنوات التلفزيونية السعودية صحافيين ومعلقين من مختلف الانتماءات لكنهم يكونون في النهاية مقيدين بالمال السعودي (البترودولار) ويتم استخدامهم غالباً للتصدي للتغطية السلبية في خصوص قضايا سعودية على وسائل إعلامية أخرى.

ويشير أندرو هاموند، في مقالة مثيرة للاهتمام عن هذا الموضوع، إلى أن مخالب السعودية (أو أذرعها) تُمسك أيضاً بوسائل إعلامية في دول عربية أخرى. ويعطي مثالاً قصة طبيب مصري سُجن في السعودية عام ١٩٩٤ بعدما تجرأ على الشكوى للسلطات من تعرض ابنه، كما زعم، للاغتصاب على أيدي أستاذ مدرّسه السعودي، لكن الصحف المصرية لم تغطِّ هذا الخبر خشية الإساءة إلى الرياض. كما أن الصحافيين الذين يعملون لوسائل إعلام منافسة – مثل "الجزيرة" – غالباً ما ترفض السعودية منحهم تأشيرات، على ما يُزعم، كما ترفض الشركات السعودية وضع إعلاناتها فيها أيضاً. وبالإضافة إلى ذلك، يمارس النظام

السعودي وبقوة سياسة مقاضاة من ينشر أخباراً يعتبرها مسيئة وتمثّل تشهيراً، وهو قادر بالطبع على دفع تكاليف أفضل المحامين العالميين لمقاضاة الخصوم حتى إنهاكهم مادياً، وهو أمر يضمن بالطبع أن الانتقادات غالباً ما تكون بدرجتها الدنيا (خشية مواجهة دعاوى قضائية).

خاتمة

إنّ تبنّي الحكم السعودي للتفسير الوهابي للإسلام واحتضان الإسلام بصيغته المتطرفة والمعتدلة في مواجهة الأنظمة اليسارية والقومية طوال الثمانين عاماً الماضية، وتسخير الإمبراطورية الإعلامية الجبارة لتحقيق هذا الهدف، أثّر بشكل كبير في جيلين أو أكثر من الشباب المسلم في مختلف أنحاء العالم، اتّجهوا في معظمهم نحو التشدد، مثلما أنتج جيشاً من العلماء الشباب المتشددين، استغلّ المنابر الرسمية للترويج لفكر الجهاد ضد الغرب الكافر، ونشر قيم الإسلام "الصحيح". وعندما أغلقت الدولة المنابر الرسمية في وجوههم اتجهوا إلى وسائل التواصل الاجتماعي، ووصلوا بأفكارهم إلى مختلف الأوساط الشبابية، وتحوّل معظمهم إلى نجوم يتابعهم الملايين، خاصةً على "التويتر" و"الفيسبوك". فحتى كتابة هذه السطور وصل عدد متابعي الشيخ محمد العريفي على "التويتر" أكثر من ثمانية ملايين شخص نسبة كبيرة منهم في السعودية، وعندما طالب العاهل السعودي الملك عبد الله بن عبد العزيز في خطابه بمناسبة عيد الأضحى في تموز/ يوليو الماضي العلماء بالتصدي لظاهرة "الدولة الإسلامية" لم يستجب لدعوته إلا العلماء الرسميين مثل الشيخ عبد العزيز آل الشيخ مفتي المملكة وبعض أئمة المسجد الحرام فقط.

تحاول السعودية حالياً وفي شكل يائس التصدي لـ"الوحش" الذي خلقته، لكنه بات كبيراً جداً وقوياً جداً بحيث من الصعب عليها أن تدمره.

إن تجريم الذهاب إلى الجهاد خارج المملكة وإصدار قوانين تحكم بالسجن لحوالي عشرين عاماً لمن يلتحق بالجماعات الجهادية المتشددة لم يمنع الشباب السعودي من الالتحاق بهذه الجماعات، وهناك تقديرات تقول إن ما يقرب من سبعة آلاف شاب سعودي يقاتلون حالياً في صفوف "الدولة الإسلامية"، وظهر بعض هؤلاء على "اليوتيوب" وهم يمزقون جوازات سفرهم السعودية كردّ على قوانين تجريمهم. وعلمت من مصادر وثيقة أن الشباب السعوديين هم الأكثر حماساً واندفاعاً بين أقرانهم في القتال في سورية والعراق، وأن معظم من ينفذون العمليات القتالية "الانغماسية" أو "الانتحارية" منهم.

السلطات السعودية أفاقت متأخرة على ظاهرة انخراط شبابها في "الجهاد" في سورية

والعراق، ووظفت محطات التلفزة مثل قناة "إم بي سي" لمحاربة والتشهير بالعلماء الذين يحثّون الشباب السعودي على الجهاد، ولعب الإعلامي السعودي داوود الشريان دوراً كبيراً في هذا الصدد عندما هاجم بشراسة هؤلاء العلماء في برنامج "الثامنة" الذي يقدّمه على القناة نفسها، حيث هاجم كل من الشيخ العريفي وعدنان العرعور وطالب باعتقال الأول وإبعاد الثاني من المملكة.

ووجّهت السلطات السعودية دعوات عديدة للشباب السعودي المقاتل في صفوف الجماعات الجهادية في سورية للعودة إلي بلادهم وأصدرت عفواً عمّن يعود منهم، ولكن التجاوب مع هذه الدعوات كان محدوداً جداً، بينما ازداد عدد السعوديين الذين انضموا إلى "الدولة الإسلامية" وجبهة "النصرة" في المقابل، في عام ٢٠١٤ على وجه الخصوص، وبعد الانتصارات الكبيرة التي حققتها "الدولة الإسلامية" في الموصل والأنبار وصلاح الدين والرقة ودير الزور، وبعد الغارات الأميركية التي استهدفت مواقعها في تلك المدن والمحافظات، وزادت من شعبيتها، كما بددت كل الشائعات والاتهامات التي كانت تركّز على أنها (أي الدولة) صناعة أميركية.

المصادر

- http://www.independent.co.uk/news/world/middle-east/saudis-risk-new-muslim-division-with-proposal-to-move-mohameds-tomb-9705120.html
- http://www.theguardian.com/world/2013/jan/01/saudi-arabia-riyadh-poverty-inequality
- http://eu-digest.blogspot.co.uk/2011/03/faisal-ahmed-abdul-ahadwas-saudi.html
- http://www.youtube.com/watch?v=c7zgifyiqnA
- http://www.ameu.org/getattachment/51ee4866-95c1-4603-b0dd-e16d2d49fcbc/The-Day-FDR-Met-Saudi-Arabia-Ibn-Saud.aspx

الفصل السادس

استراتيجية التوحّش

شكّلت مشاهد الأعمال الوحشية الدموية المثيرة للرعب علامة فارقة في البدء لجماعتي أبو مصعب الزرقاوي في العراق ("التوحيد والجهاد" ثم "القاعدة في بلاد الرافدين")، وبعد ذلك لجماعة "الدولة الإسلامية في العراق والشام"، والآن لـ"الدولة الإسلامية" التي تفوّقت عليها كلها بأشرطة الفيديو المنتظمة التي تعرض فيها مشاهد قطع رؤوس رهائنها بدم بارد، في ظل روايات غير مؤكدة من بلدات سقطت في أيديها تتحدث عن نساء أو إيزيديات اغتصبن وانتزعت قلوبهن من أحشائهن ثم تُركت على صدورهن.

تُعتبر هذه الوحشية الظاهرة بقوة في ممارسات "الدولة الإسلامية" عاملاً أساسياً في استراتيجية الحرب النفسية التي يتبعها هذا التنظيم، كما أنها، في المقابل، تُعتبر عاملاً أساسياً أيضاً في تكوين التحالف الذي يضم قرابة ٥٠ دولة بقيادة الولايات المتحدة والذي تشكّل لمحاربة الجهاديين في العراق وسوريا في أيلول/ سبتمبر ٢٠١٤.

لكن هذا "التوحّش" ليس بالأمر الجديد. فعلى مرّ العصور قامت جماعات من الرجال خلال أزمنة الحروب بممارسات تُعتبر، إذا ما تمّ النظر إليها، ليس فقط عملاً إجرامياً بل أيضاً على أنها مؤشر إلى جنون القائمين بها.

والواقع أن معظم الأمم والإمبراطوريات قامت على بحور من الدماء وبنتيجة أعمال عنف رهيبة وأفعال شنيعة.

وبحسب قادة "الدولة الإسلامية" ومنظّريها فإن ما يقومون به إنما هو كناية عن بناء دولة جديدة، أو بالأحرى إمبراطورية جديدة هي "الخلافة" على أراضي المسلمين. وعلينا أن لا ننسى هنا أنه كانت هناك بالفعل خلافة إسلامية تحكم بلاد المسلمين بطريقة أو بأخرى

طوال ١٣٠٠ سنة من بين السنوات الـ ١٤٠٠ الماضية، إلى أن أُلغيت الخلافة عقب سقوط الإمبراطورية العثمانية في العام ١٩٢٢. ولذلك فإن طموح "الدولة الإسلامية" لإعادة تأسيس "الخلافة" لا يجب أن يكون مدعاةً للغرابة.

يُعتبر التوحّش جزءاً أساسياً من ترسانة السلاح النفسي للجهاديين، وقد تم التعبير عنه في شكل جلي من خلال دراسة طويلة في العام ٢٠٠٤ معنونة "إدارة التوحش - أخطر مرحلة ستمر بها الأمة" من إعداد أبو بكر ناجي، أحد منظّري تنظيم "القاعدة". وتُحدد الوثيقة ثلاث مراحل في الطريق نحو إعادة تأسيس الخلافة: "شوكة النكاية والإنهاك"، ثم مرحلة "إدارة التوحش"، وأخيراً مرحلة "تأسيس الدولة الإسلامية".

سننظر في هذا الفصل إلى كيف استخدمت الجيوش الغازية "التوحش" على مدار التاريخ، وكيف تطبّق "الدولة الإسلامية" حالياً دراسة أبو بكر ناجي.

تاريخ العنف المفرط خلال الحروب

تقول "الدولة الإسلامية" إنها تقوم ببناء دولة الخلافة، وهي من أجل تحقيق هذه الغاية "تستخدم سلاح الحرب النفسية في شكل معقّد يتميّز في شكل متزايد بتصرفات مفرطة (في العنف)"، بحسب ما يقول محللون إسرائيليون. ولقد كان الإسرائيليون أنفسهم ضحايا ومنفّذي أعمال بربرية في الوقت ذاته، كما أنهم وبحق يُعتبرون المصدّر الأول للحرب النفسية والدعاية في منطقة الشرق الأوسط، وهم من استخدموا التوحّش كوسيلة لإرهاب الشعب الفلسطيني من خلال ارتكاب مجازر دير ياسين وقبية وغزة وقانا.

يعزو دونالد جي. داتون في كتابه **علم نفس (أو سيكولوجيا) الإبادة الجماعية، المذابح والعنف المفرط** الدافع الأساسي للقيام بأعمال عنف خلال الحرب إلى وجود "عاطفة قبلية... تُنتج طاقة غضب شديد وعنف إبادي - الرغبة في إبادة شعب بأسره". ويُظهر داتون بوضوح كيف أن "عملية إنتاج المذابح لا تختلف في القرن الواحد والعشرين عمّا كانت عليه في القرن الحادي عشر"... "تغيير اجتماعي متسارع... تطوير أنماط جديدة تُعرّف العنف بوصفه أمراً مقبولاً... الدفع إلى القتل مدعّماً بشعور اجتماعي ينمّ عن إحساس بالقوة وبأنها مشيئة القدر".

يذكّرنا داتون أيضاً بأن المجتمعات "المتطورة" و "المتحضرة" قادرة بالمقدار ذاته، مثل غيرها من المجتمعات، على أن تكون "متوحشة" مثل المتوحشين بالفعل، وقادرة على أن تتقبّل التصرفات الوحشية عندما يتم القيام بها بناءً على أهداف مشتركة. يشير إلى أن معظم الأميركيين عارضوا معاقبة الضابط ويليام كايلي الذي أمر باغتصاب وقتل نساء وأطفال

فيتناميين على أيدي جنوده في مذبحة ماي لاي الشهيرة. وفي فيتنام، أيضاً، قام جنود الفرقة الأميركية المجوقلة ١٠١، المعروفة بـ"قوة النمر"، بـ"اقتطاع مساحات شاسعة من أراضي فيتنام في شكل دموي، (وقاموا خلال ذلك) بالتعذيب، والاغتصاب، وجمع أجزاء من أجساد" ضحاياهم. وعندما يتصرف أشخاص بهذه الطريقة في زمن الحروب فإن التعريف الذي يُطلق عليهم هو أنهم "مجرمون مصابون باضطراب عقلي".

وبالنسبة إلى داتون فإن العنف الشديد يمكن أن يصبح أمراً عادياً في أي ثقافة "عندما تتوافر ظروف هبوب العاصفة". وبما أن هذه الظروف لا تنحصر بثقافة دون أخرى، فإن "علماء علم الأحياء الاجتماعي (سوسيو-بيولوجيست) يميلون إلى النظر للعنف الشديد بوصفه موروثاً وآثاراً متبقية في الإنسان منذ أن كان مفترساً في قديم الأزمان، إضافةً إلى كونه ناتجاً عن عقدة "ألم - دم - موت" (المرتبطة بـ) الصيد الناجح".

كما أن الدول غالباً ما تتقبّل ارتكاب الفظاعات إذا كانت تعني تحقيق أهدافها السياسية أو تعزيز سيطرتها. فيوليوس قيصر تفاخر بأن مليوناً و١٩٢ ألفاً من "الأعداء" قُتلوا خلال فترة حكمه. كما توّج الحلفاء انتصارهم على دول المحور في نهاية الحرب العالمية الثانية بإلقاء قنبلتين ذريتين فوق هيروشيما وناغازاكي في آب/ أغسطس ١٩٤٥، ما تسبّب بمقتل ربع مليون شخص في هاتين المدينتين المنكوبتين، على رغم أن الرئيس روزفلت كان قد تبلّغ قبل سبعة شهور من الجنرال دوغلاس ماكارثر في مذكرة ما زالت موجودة حتى اليوم بأن اليابانيين يعرضون استسلاماً كاملاً.

كذلك فإن العنف الشديد يمكن أن تستخدمه الحكومات التي تسعى إلى القضاء على المعارضة أو لإحباط أي عصيان يمكن أن يحصل ضدها. وعلى مدى القرن العشرين قتلت حكومات دول مختلفة ١٧٠ مليون شخص من مواطنيها بينهم ٦٢ مليون شخص قُتلوا في الاتحاد السوفييتي وحده بين العامين ١٩١٧ و١٩٨٧.

كان القرن العشرون أكثر القرون دمويةً في تاريخ البشرية، ولكن يبدو أن القرن الواحد والعشرين يتجه إلى أن يكون أكثر دمويةً من سابقه في ظل توسّع نطاق الحروب والتطوّر الكبير الذي يطرأ على أنواع الأسلحة المستخدمة في القتل. ولكن على رغم ذلك فإن اللافت أن نمط العنف الشديد والتوحّش لم يتغيّر منذ الفظاعات الموثّقة جيّداً خلال الحملات الصليبية في القرن الحادي عشر.

وعلى رغم أن مفهوم "الجهاد" كان قد بات، منذ القرن الثامن، نصاً شرعياً متفقاً عليه في الإسلام، وعلى رغم أن الرسول محمد (صلعم) كان قد استخدم بدوره السيف لإخضاع المشركين ونشر الدين الإسلامي، إلا أن المسيحيين لم يكونوا بعيدين جداً عمّا قام به المسلمون، وقد طوّر المسيحيون في روما، عاصمة الكاثوليك الروحية، مفهوم "العنف

الإيجابي" و "الحرب المقدسة" منذ القرن الحادي عشر عندما احتاج البابا إيربان الثاني إلى أن يجد وسيلة تسمح له بأن "يكون عنيفاً وفي الوقت ذاته يذهب إلى الجنة أيضاً". وصوّر إيربان الثاني "الحرب المقدسة" بوصفها مغامرة لا يقبلها الله فقط بل يؤيدها بفاعلية أيضاً.

لجأ إيربان الثاني عندما أطلق الحروب الصليبية إلى "الحطّ من الإسلام وتجريده من الإنسانية" من خلال وصفه بأنه كناية عن "مجموعة خوارج (خارجية) غريبة عن الله، متوحشة، عنيفة وقادرة على ارتكاب مستويات غير معقولة من الوحشية والبربرية" تجاه من وصفهم بأنهم أفراد "المجموعة الداخلية"، أي المسيحيين (المصدر كتاب داتون). والحقيقة أن كثيراً من الممارسات البربرية التي نسبها إيربان للمسلمين بهدف تبرير "حربه المقدسة"، مثل تشريح أجساد الأسرى وهم أحياء، إنما قام بها المسيحيون أنفسهم.

وبالنسبة إلى الصليبيين صار الذبح "وسيلة لتطهير النفس ونيل السلام الأبدي كمكافأة عن العنف الأرضي". وهذا المفهوم لا يختلف عن الجهاد العنيف الذي يشير إليه القرآن، كما أنه، بعد ألف سنة من الحروب الصليبية، ما زال يرد في أيديولوجيات الجماعات التي تحمل أفكاراً شبيهة بتنظيم "القاعدة" والتي ما زالت تشير إلى الغرب بوصفه "الغرب الصليبي". ويقدّم كل من المسيحية والإسلام رؤية لهرمجدون (أو حروب نهاية العالم)، علماً أن فكرة حلول "نهاية العالم" كثيراً ما بررت حصول تصرفات بربرية، في الماضي كما في أيامنا هذه.

كانت الحرب النفسية منتشرة خلال الحملات الصليبية وتضمّنت "عرضاً" علنياً للتهديد الذي يواجهه الخصوم: فقد كان المسيحيون يقطعون رؤوس أسراهم المسلمين ثم يُطلقونها بالمنجنيق فوق أسوار المدن التي يحاصرونها. (داتون، ص٥). أما المسلمون فقد لجأوا، في المقابل، إلى تعليق رؤوس القتلى الصليبيين فوق الأسوار كي يتمكن "أصدقاؤهم من رؤيتهم يتعفّنون".

وقد تضمّنت فظاعات الصليبيين الوصول إلى درجة أكل لحوم البشر، حيث قاموا في المعرّة (معرة النعمان بسوريا) بطهي أجساد المسلمين وأكلها (المصدر السابق، ص١٠). وقد نال الصليبيون نتيجة هذه "الرغبة في الذبح... سمعة بأنهم قساة قسوة مطلقة" ما أعطاهم أفضلية في المعارك المقبلة حيث كان أعداؤهم المحتملون يفرّون من أمامهم بدل أن يواجهوا مقاتلين عنيفين بهذا الشكل المرعب. وهذا الوضع يتكرر اليوم حرفياً على أيدي مقاتلي "الدولة الإسلامية في العراق والشام" الذين أثاروا الرعب في نفوس ألوية الجيش العراقي الأكثر عدداً بحيث رمى هؤلاء أسلحتهم وفروا ما إن سمعوا بزحف جيش الجهاديين على الموصل في حزيران/ يونيو ٢٠١٤.

ويروي أحد الذين شاركوا في الحملة الصليبية الأولى، ريمون صنجل (بحسب ما يعرفه العرب، بينما اسمه في الغرب ريمون دو سان جيل، وهو من تولوز، فرنسا)، كيف أن

"الوثنيين كانوا يُعذّبون لأوقات طويلة ويحرقون في النار حتى الموت. أكوام من الرؤوس والأيدي والأقدام كانت متجمعة في المنازل والشوارع... كانوا (أي الجنود الصليبيين) يطعنون النساء اللواتي فررن إلى البيوت، يأخذون الأطفال بأخمص أقدامهم من أحضان أمهاتم "أو من مهودهن" ثم يرطمونهم بالحائط" (داتون، ص١٠). وإضافةً إلى البعد الديني، كان الصليبيون مدفوعين أيضاً بالمغانم والجشع المادي.

القسوة المفرطة أو "التوحّش البارز" الذي مارسه الجانبان – نزع الصفة الإنسانية عن الأعداء، اغتصاب نسائهم، وإظهار القسوة – يتكرر في شكل ثابت على مر العصور إلى حد يرى فيه داتون "نوعاً من القالب العالمي الجاهز الذي يحدث بالشكل ذاته على اختلاف الزمان والمكان".

وتحفل القرون الماضية بفظاعات الحروب، من الآشوريين الذين كانوا يصفون ضحاياهم صفّاً ثم يسلخون جلودهم وهم أحياء ويقطعون أطرافهم، إلى شارلمان الذي أجبر الجنود الأعداء على القفز من مباني شاهقة. والحرب في الواقع كناية عن عمل عنفي، وبالتالي لا يجب أن نستغرب إذا ما كانت الجيوش المنتصرة قادرة أكثر من الجيوش المنهزمة على ارتكاب أفعال بدم بارد تدل على اضطراب عقلي.

بلغت أعداد قتلى "المذابح السياسية" أرقاماً غير مسبوقة في القرن العشرين، كما تنوعت الطرق التي يتم فيها إبادة المجموعات المستهدفة بالتصفية. فقد قام ستالين، وفي شكل منهجي، بتجويع ملايين الأشخاص في أوكرانيا (في محاولة إبادة تُعرف باسم "هولودومور")، وقتل ما لا يقل عن ٣٠ مليوناً من "المنشقين". كذلك قُتل نحو مليون أرمني على أيدي العثمانيين عام ١٩١٤، كما قتل النازيون ٢٠ مليوناً من الأوروبيين الشرقيين خلال الحرب العالمية الثانية، مثلما قتلوا أيضاً ملايين اليهود والمعوقين والغجر والشاذين جنسياً. أما أب الشيوعية في الصين، ماو تسي تونغ، فقد أشرف على قتل ٢٠ مليوناً ممن اتُّهموا بأنهم "برجوازيون"، في حين قام بول بوت في كمبوديا بتصفية ٢,٥ مليون شخص من "المتعلمين" ممن تم تحديدهم بهذه الصفة إما لكونهم تلقوا تعليماً أعلى من الصف السابع (غريد ٧) أو لكونهم يرتدون نظارات. وفي رواندا قتل الهوتو ٨٠٠ ألف من التوتسي خلال ثلاثة شهور فقط عام ١٩٩٤. وفي العام ١٩٩٥ قامت جيوش الصرب بذبح ٨٠٠٠ رجل وطفل من البوسنيين المسلمين في يوغسلافيا السابقة وهجّرت أكثر من ٣٠ ألفاً آخرين من بيوتهم. وفي نهاية العام ٢٠٠٩ وفي آب/ أغسطس ٢٠١٤ قتلت القوات الإسرائيلية على التوالي ١٣٠٠ شخص و٢٠٧٠ شخصاً من المدنيين الفلسطينيين في غزة، وما زالت تعتقل نحو ١٠ آلاف في السجون بلا محاكمات... اللائحة طويلة ومحزنة.

يُنتج التوحش في الحروب لائحة طويلة بفظاعات لا يمكن تصورها، وتحصل أحياناً

في شكل لا يمكن التحكم به – "نوبة هيجان" – مثلما حصل في "مذبحة نانكينغ" التي دامت ستة أسابيع وشهدت اغتصاب ربع مليون صيني وصينية من كل الأعمار (والأجناس) ثم قتلهم وتقطيع أجسادهم أو سلخها انطلاقاً من "نوبة هيجان جنسي" انتابت الجنود اليابانيين بعدما استسلم لهم الجيش الصيني عام ١٩٣٧. وغالباً ما تخلو هذه الفظاعات من نيّة سياسية (كما يحصل في حالات التطهير العرقي، أو القضاء على المعارضة، أو فرض أيديولوجية أو دين على أشخاص معينين) ويتم ارتكابها عن قصد بهدف زرع الرعب في قلوب الأعداء أو الجماعات المستهدفة وجعلها غير قادرة على المقاومة.

والتخلّص من الاشمئزاز الطبيعي الذي ينتج عن رؤية أو ممارسة الأفعال السادية يمثّل مادة تُدرّس لكثير من المجندين كما يتمرّن عليها كثير من القادة العسكريين ويتم علاجها خلال التدريبات. فعلى سبيل المثال، أُخضع الجنود اليابانيون الذين قاتلوا في الحرب العالمية الثانية عمداً لإضعاف حساسيتهم إزاء الأفعال الفظيعة وعُرض عليهم قطع رؤوس سجناء وهم أحياء. في البداية شعروا بالاشمئزاز، لكنهم مع مرور الوقت باتوا متمرسين وقوي عودهم على تحمّل الفظاعات المرتكبة على أيديهم هم وعلى أيدي رفاقهم. وقد كتب أحد هؤلاء الجنود الذي صار طبيباً في ما بعد، متحدثاً عن ممارساته خلال الحرب: "إنه لأمر رهيب أنني يمكن أن أتحول إلى حيوان وأقوم بكل هذه الأشياء. ليس هناك حقاً كلمات يمكن أن تفسّر ما كنت أفعل. لقد كنت حقاً شريراً" (تشانغ، ص٥٩).

وكما سنرى، سيعالج أبو بكر ناجي هذه المسألة في نصائحه للجهاديين.

بالإضافة إلى ذلك، يبدو أن تشريع زعيم أو حكومة – أو الله، في حالة الحروب الدينية – حق القيام بأعمال عنيفة جداً يلعب دوراً يساهم في تخفيف مستوى النهي الداخلي عن القيام بمثل هذه التصرفات الفظيعة. كما أن هذا التشريع يصل أحياناً الى درجة أنه يخلق شهية للقيام بأعمال عنيفة حتى من أشخاص لم تظهر عليهم من قبل علامات الميل إلى مثل هذه الأفعال (داتون). وغالباً ما يكون القائد هو الأكثر تشدداً في المجموعة ويساهم تأثيره (أو تأثيرها) على البقية في انتقالهم إلى مرحلة يصفها علماء النفس بأنها "انشقاق" العنف ليصير شخصية أخرى يُطلق عليها أحياناً "الشخصية البديلة" التي تتعامل مع عقل باطني معدّل (يختلف عن العقل الباطني الأساسي للشخص المعني) (داتون، المصدر السابق). وفي هذا الوضع يشعر الجندي المهاجم بنوبة هيجان شديدة بعد تلقيه الأمر بالقتل، وأحياناً تخلق هذه الحالة شخصية مزدوجة داخله بحيث يضاعف قتله إلى الدرجة السادية فيصير القتل عنده بمثابة منافسة "رياضية" كما حصل في نانكينغ عندما تنافس الجنود اليابانيون في ما بينهم في ارتكاب الفظاعات. وفي هذه الحالة الأخيرة يجادل علماء نفس بأن هناك نوعاً من المتعة لا بدّ وأنها تتأتى نتيجة للقيام بالأعمال البربرية. كما تجادل دراسة لبوميستر

وكامبل (١٩٩٩) بأن هناك احتمالاً بأن يكون للعنف جاذبية ذاتية (أو جوهرية)، اعتماداً على تقارير تروي أن رد الفعل الأولي على القتل أو إيذاء الآخرين ينمّ عن كراهية أو حزن إزاء القيام بمثل هذا العمل، لكن هذا الشعور سرعان ما يتراجع وتحلّ محله مع مرور الوقت سعادة التلذذ بإيذاء الآخرين.

ووجد ستوب (١٩٩٠)، من جهته، أن أولئك الذين يقومون بعنف سياسي – أي الذين يرتكبون مذابح أو يصبحون جلادين أو يقومون بعمليات تعذيب – إنما يتشاركون في ما بينهم بالصفات نفسها مثل التزامهم بالتسلط، وشعورهم بالانتماء إلى مجموعة من الناس تشبههم، والتقليل من قيمة الناس الذين يكونون خارج إطار هذه المجموعة التي ينتمون إليها.

وفي حالة الحروب، تحديداً، يبدو الدافع الأساسي وراء القيام بفظاعات هو الرغبة في إرهاب العدو وتأكيد التفوق عليه في القدرة على عدم إظهار الرحمة. الأميركيون أنفسهم قاموا بذلك: عملية "شوك أند أو" (الصدمة والترويع) في غزو العراق عام ٢٠٠٣. تيمورلنك بنى هرماً من ٩٠ ألف جمجمة خارج أسوار مدينة دلهي عندما كان يحاصرها. الأزتك نزعوا قلوب ضحاياهم ووضعوها فوق صدورهم. الفايكنغ كانوا يتبادلون الأنخاب بين بعضهم البعض وهم يشربون من جماجم أعدائهم (ومن هنا جاءت كلمة "سكول" أو الجمجمة التي تُستخدم محل "تشيرز"). وحتى صراعات العصابات أيضاً تتميز بأفعال عنف شديدة "واسعة الخيال" ومصمّمة كي تخلق أكبر درجة من الرعب لدى الخصم (تذكّروا قصة رأس الحصان المقطوع في فيلم "العراب").

كل هذا لا بد وأن "الدولة الإسلامية" تعرفه جيداً.

إدارة التوحش

تُعتبر الفظاعات شراً متعدد الغايات. فكما رأينا، يُمكن أن تُستخدم من أجل تصفية المعارضة أو الجماعات العرقية "غير المرغوب بها". يُمكن أيضاً أن تُستخدم من أجل إثبات الهيمنة العسكرية (كما حصل في هيروشيما وناغازاكي)، أو لتحقيق أهداف سياسية.

وفي شكل مساو، يُمكن أيضاً أن تُستخدم الفظاعات من أجل "شيطنة" العدو والتهييج ضده، تبريراً لأعمال حرب. في الحرب العالمية الأولى زوّدت الحكومة البريطانية الصحف بقصص عن جنود ألمان يفقأون أعين المدنيين، ويقطعون أيدي الصبية، ويغتصبون النساء أو يعتدون عليهن جنسياً، ويعطون أطفالاً قنابل يدوية ليلعبوا بها وتنفجر بهم، ويطعنون الرضّع بالحراب، ويصلبون الجنود الأسرى. الأساس المنطقي لهذه التسريبات قام على اقتناع بأن

مثل هذه الفظائع الرهيبة سيقنع الشبان البريطانيين بأن يتطوعوا للالتحاق بالقوات المسلحة. وكما أشار أحد جنرالات الجيش البريطاني بعد الحرب: "كي تجعل الجيوش تقاتل بعضها بعضاً من الضروري اختراع الكذب عن العدو"[1]. إضافةً إلى ذلك، تسمح مثل هذه القصص بأن تهمين مشاعر الغضب والرغبة في الانتقام على الرأي العام، وتزيد من الشهية للأخذ بالثأر.

تمثّل حادثة منشوريا مثالاً آخر على هذا الأمر. فقد قام اليابانيون بتفجير جسر لمرور السكك الحديد كي يلوموا الصينيين ويبرّروا غزوهم منشوريا. لكن تحقيقاً قامت به عصبة الأمم خلص إلى أن الغزو الياباني لمنشوريا لم يكن، بعكس ما قيل، عملاً من أعمال الدفاع عن النفس، وردّت اليابان على ذلك بترك عصبة الأمم فوراً. وكما هو معروف، أدّى الهجوم الياباني على بيرل هاربر عام ١٩٤١ إلى دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية، على رغم أن هناك أدلة مادية على أن روزفلت كان على علم بخطط الهجوم الياباني – الذي أودى بحياة ٢٤٠٣ أميركيين – لكنه سمح بحصوله من أجل زيادة تأييد الرأي العام الأميركي لخوض الحرب. وهناك من المعلقين من يقول أيضاً إن هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ "سُمح" لها بأن تحصل من أجل إرعاب الرأي العام الأميركي وكسب تأييده لـ"الحرب ضد الإرهاب"، وبالتالي تبرير الغزو اللاحق لأفغانستان، ثم للعراق، "الجائزة الكبرى" للأميركيين.

ومن أجل إنتاج عنف أكبر، غالباً ما يتم توصيف الأعداء على أنهم حيوانات كريهة، كالفئران والصراصير. ونزع الصفة البشرية (الإنسانية) عنهم يسهّل بلا شك كرههم، كما أنه يتيح للجنود بأن يقوموا بمهماتهم ضدهم بدون وجود ما يردعهم. يقول الجندي الأميركي ستيفن غرين الذي قام مع أربعة من رفاقه بعملية اغتصاب جماعي للطفلة عبير قاسم الجنابي (١٤ سنة) أمام أهلها وإخوتها قبل قتلهم: "لم أفكر في العراقيين على أنهم بشر"[2].

في تموز/ يوليو ٢٠١٤ سمّت العضو في الكنيست الإسرائيلي إيليت شاكيد الأطفال الفلسطينيين "أفاعي صغيرة"، ودعت، كما يُزعم، إلى قتل الأمهات الفلسطينيات اللواتي ينجبن هؤلاء الأطفال. فقد كتبت على "فايسبوك": "يجب أن ترحل (الأمهات) مثلما ترحل البيوت التي تربّى فيها الأفاعي. إذا لم يحصل هذا فسيتربى المزيد من الأفاعي الصغيرة هناك"[3].

---

1 suite.io/michael-streich/252q2nv

2 http://www.dailymail.co.uk/news/article-1340207/I-didnt-think-Iraqis-humans-says-U-S-soldier-raped-14-year-old-girl-killing-her-family.html

3 http://jonathanturley.org/201417/07//they-have-to-die-israeli-politicians-comments-calling-for-killing-of-mothers-of-palestinians-trigger-international-backlash/

في المقابل، يتم غالباً إخفاء ونفي الفظاعات من قبل مرتكبيها الساعين إلى تقديم أنفسهم بوصفهم "متحضرين"، "عصرانيين"، و "ديموقراطيين": على سبيل المثال موت مئات آلاف السجناء من دول المحور جراء تجويعهم عمداً في ١٩ معسكر اعتقال للأميركيين في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية، وحديثاً قتل وتعذيب سجناء على أيدي الجنود الأميركيين والبريطانيين في سجون عسكرية في العراق، بما في ذلك أبو غريب.

الدولة الإسلامية لم تكن الأولى التي استخدمت "التوحّش" كاستراتيجية تهدف إلى بثّ الرعب في نفوس أعدائها والتعاطي بشراسة مع خصومها، بغضّ النظر عن كونهم من المسلمين أو غير المسلمين. ففي حروب الردة لم يتردد الخليفة الأول أبو بكر الصديق في التعامل بدموية دون أي رحمة ضد المرتدين الذين رفضوا دفع الزكاة، حتى أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، المعروف بشدته وبأسه، عارض ذلك، وكانت مقولة الخليفة أبو بكر المشهورة: "مالي أراك شجاعاً في الجاهلية خواراً في الإسلام".

الدولة الأموية التي قامت بعد انهيار دولة المدينة في دمشق استعملت استراتيجية "التوحّش" أيضاً ضد خصومها وقتلت الآلاف منهم في العراق والشام، وكان بين ضحاياها الإمام الحسين بن علي، حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم، وتاريخ الحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن ابيه وغيرهما حافل في هذا الإطار.

ولعل تاريخ أبو العباس، المؤسّس الحقيقي للدولة العباسية، قد بزّ الجميع قبله. فقد شكّل جيشاً لمحاربة الأمويين عندما انتقل إلى الكوفة عام ٧٤٢ ميلادية، وكانت الغلبة له، وفتح العراق والشام ومصر وقتل الخليفة مروان بن محمد في معركة "بوصير" وقتل الآلاف من جنوده وأتباعه، ولم يوصف بالسفّاح عبثا بل لكثرة سفكه الدماء، خاصةً عندما دخل دمشق حيث نهبت قواته بيوت الأسرة الأموية والمقربين منها وأحرقت قصورهم ونبشت قبور خلفائهم. وعندما خلفه شقيقه وولي عهده أبو جعفر المنصور ارتكب المزيد من المجازر أثناء إخماده الثورات التي قامت ضد الدولة في المدينة المنورة والبصرة والأهواز، وكان أبو مسلم الخراساني، الذي لعب دوراً كبيراً في تأسيس الدولة العباسية، أبرز ضحاياه خوفاً من امتداد نفوذه.

وإذا كانت النظريات التي تقول إن الدولة الإسلامية هي تجديد للفكر الوهابي الذي وضعه الإمام محمد بن عبد الوهاب في صورته الأولية الأصلية مطلع القرن الثامن عشر الميلادي، فإن ممارساتها تتطابق في أكثر وجوهها مع ممارسات وإيديولوجيات الحركة الوهابية وأنصارها من حيث اتّباع أسلوب الرعب والترهيب لدفع الخصوم إلى الاستسلام أو الهرب.

ففي عام ١٨٠١ ميلادية هاجمت القوات الوهابية السعودية كربلاء العراقية وقتلوا آلاف

الشيعة (هناك من يقدّر العدد بحوالي خمسة آلاف في حينها)، أي ما يعادل نصف مليون حسب تقديرات البعض هذه الأيام، وكان من بين القتلى نساء وأطفال، ونبشوا المراقد والأضرحة بما في ذلك مرقد الإمام الحسين بن علي، حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم. وبعد ذلك بعامين دخلت قوات الملك عبد العزيز آل سعود مكة والمدينة دون قتال بسبب تأثير الخوف والرعب، وأقدم الوهابيون الذين يقاتلون تحت رايته على تدمير كل الآثار الإسلامية والمقابر والأضرحة المحيطة بالحرم المكي الشريف والكعبة المشرفة.

وتقول كتب التاريخ إن الملك عبد الله آل سعود، آخر ملوك الدولة السعودية في تلك الحقبة، الذي استلم الحكم من والده سعود بن عبد الله، اعتُقل من قبل العثمانيين وأرسل مكبّلاً إلى اسطنبول وتعرّض للإهانات والضرب والبصق وكل أنواع الإهانات في شوارعها لمدة ثلاثة أيام قبل أن يُشنق بعدها، وقطع رأسه وتحويله إلى قذيفة مدفع، ونزع قلبه ووضعه فوق صدره، حسب روايات عديدة.

الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، الذي أعاد إحياء الدولة السعودية، سيطر على مكة والمدينة عبر الجيش الإخوان الوهابي الذي أسّسه (إخوان من أطاع الله، وليس الإخوان المسلمين الحاليين) وارتكب هذا الجيش مجازر في مكة والمدينة وخاصةً في مدينة الطائف في الفترة من عام ١٩١٤ - ١٩٢٦، وبعد ذلك أباد جيش الإخوان في مجزرة غير مسبوقة برشاش أهداه إليه الإنكليز لأنهم باتوا يشكّلون خطراً ويعارضون خطواته التحديثية باعتبارها كفراً.

ولا ننسى جنكيز خان القائد المغولي الذي استخدم إيديولوجية التوحش نفسها وقتل عشرات الآلاف من أبناء جلدته، بهدف بثّ الرعب في خصومه، وبدأت القرى والمدن تتساقط أمامه دون قتال خوفاً ورعباً، ولكن هذا لم يمنعه من قتل الآلاف في بغداد بعد اجتياحها.

ويجب علينا أن لا ننسى أن التوحش، بل والمبالغة فيه، كان دائماً جزءاً رئيسياً من تاريخ العراق في الكثير من العصور، وإذا تأملنا مرحلة ما قبل "الدولة الإسلامية" وحكم حزب البعث في العراق فإننا نجد بعض التطابق في هذا المضمار. فحملة الأنفال (بالكردية كارساتي ئه نفال) التي شنّها النظام العراقي السابق برئاسة الرئيس صدام حسين عام ١٩٨٨ ضد الأكراد المتمردين في كردستان العراق كأحد مظاهر "التوحّش" في العراق، وكانت يمكن أن تتكرر بطريقة أو بأخرى لو نجحت قوات "الدولة الإسلامية" في دخول أربيل، قاد الحملة في حينها علي حسن المجيد، أمين سر مكتب الشمال لحزب البعث، والحاكم العسكري، وكان وزير الدفاع السابق سلطان هاشم القائد العسكري للحملة، وكان الهدف منها القضاء على مصدر التهديد الكردي للدولة، وسمّيت الحملة بالأنفال نسبةً للسورة رقم

٨ من القرآن الكريم التي تحثّ على الجهاد.

وقد أدّت هذه الحملة إلى مقتل الآلاف من الأكراد، وتدمير ما يقارب ٢٠٠٠ قرية، وإجبار قرابة نصف مليون كردي على الإقامة في قرى أقامتها الحكومة العراقية يسهل السيطرة عليها، واعتقال حوالي ١٨٢ ألفاً جرى إعدام أعداد كبيرة منهم ودفنهم في قبور جماعية.

ومن مظاهر العنف والتوحش في العراق أيضاً سحق القوات العراقية لـ"انتفاضة" عام ١٩٩١ التي أطلقها الشيعة في جنوب العراق (سمّيت بالانتفاضة الشعبانية) حيث شنّ هؤلاء هجمات ضد الجيش العراقي المنسحب من الكويت، وحاصروا معسكرات الجيش وقتلوا وسحلوا العديد من المسؤولين العراقيين التابعين للنظام، وشارك في هذه "الانتفاضة" أو "التمرد" بعض جنود الجيش من الطائفة الشيعية وقوات فيلق بدر التابع للمجلس الأعلى الإسلامي إضافةً إلى بعض قوات البشمرغة ومسلحون في الجنوب.

وقامت هذه "الانتفاضة" في ١٤ محافظة من أصل ١٨ محافظة هي تعداد محافظات العراق، وقد تعامل الحرس الجمهوري العراقي بقسوة شديدة في قمع هذه "الانتفاضة" ودون أي رحمة وشفقة، وكان عدد القتلى بالآلاف، وهناك تقارير تفيد أن عددهم فاق عشرات الآلاف، ولولا هذه القسوة لما صمد النظام. وجرت عمليات القمع الدموي هذه بينما كانت القوات الأميركية التي حرّض قادتها الشيعة في العراق على الثورة والتمرد يراقبون الموقف عن كثب ثم تخلّت عنهم.

ولم تكن الميليشيات الشيعية المسلحة في العراق مسالمة في تعاطيها مع خصومها، فقد مارست أعمال التوحش في أبشع صورها من قتل وتعذيب واغتيال مدعومةً بالحيش العراقي وحماية القوات الأميركية المحتلة، والأمثلة كثيرة في هذا الصدد وأبرزها إعدام الرئيس العراقي صدام حسين فجر يوم عيد الأضحى المبارك والإهانات المتشفية التي تعرّض لها وهو في طريقه إلى حبل المشنقة، والشيء نفسه يقال عن إعدامات أشقائه ومساعديه.

التأصيل الشرعي للتوحّش

وبالنسبة إلى "الدولة الإسلامية" فإن فظاعاتها إنما هي "رسائل بالدم" تقوم بها عمداً وعن سبق الإصرار، بحسب العنوان الذي اختاره قسم الإعلام الدعائي في هذا التنظيم في الإصدار الصادر عنه باسم "الحياة" لشهر تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٤ والذي تضمّن فيديو بشعاً لقطع رأس مقاتل كردي. وكما كتبت **الديلي تلغراف**، فإن "هذه دعاية (بروباغاندا) بالأفعال، وكلما كان الفعل شنيعاً كلما كانت الدعاية أقوى". ومن هنا يمكن فهم الهوس بضرب

الأعناق، الصلب، التعليق على الخازوق، من ضمن أفعال فظيعة أخرى. فكلما كان الفعل أكثر بشاعة كلما نالت جماعة "الدولة الإسلامية" مساحة أكبر في الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب، وكلما زادت قدرتها على جمع التبرعات وتجنيد الأعضاء.

والمؤكد أن "الدولة الإسلامية" ليست الوحيدة التي تقوم بمثل هذه الأفعال. فعصابات المخدرات في المكسيك، التي تُرعب حالياً مناطق الحدود مع الولايات المتحدة، تنشر صوراً مرعبة على شبكات التواصل الاجتماعي عن عنف بالغ البشاعة تقوم به من أجل تحذير خصومها من الثمن الغالي للمس بمصادر دخلها. وفي حزيران/ يونيو ٢٠١٤ نشرت عصابة كارتيل "لوس زيتاس" شريط فيديو على الانترنت لأحد أعضائها وهو يقطع رأس امرأة.

الأعمال الوحشية تمثّل في الوقت ذاته تهديداً وردعاً. فبثّ الخوف في نفس الإنسان يمثّل سلاحاً فائق الفعالية. ولذلك فإن من غير المثير للاستغراب أن العديد من الوحدات العسكرية في كلٍ من الجيشين العراقي والسوري رفضت محاربة مقاتلي "الدولة الإسلامية" حتى عندما كان الطرف الأول أكثر عدداً من الثاني. فقد كان الجنود العراقيون والسوريون، ببساطة، خائفين وغير راغبين في أن تُقطّع أوصالهم أو يحصل لهم ما هو أسوأ من ذلك من أجل أنظمة تقف على شفا الانهيار ولا تدفع رواتبهم في شكل منتظم، هذا إذا كانت تدفع لهم أصلاً.

ومن هذه الخلفية يمكن أيضاً فهم سبب تردد الغرب وحلفائه العرب، ومعهم تركيا، في الدفع بجيوش برية لقتال "الدولة الإسلامية". فإذا كانت أميركا تخشى الرأي العام الأميركي إزاء عودة جنودها في الأكفان، فكم ستكون أسوأ التداعيات السياسية إذا ما كانت الأكفان تتضمن جثثاً لجنود مقطعي الأوصال. و "الدولة الإسلامية" تغوص في عامل الخوف هذا من خلال توضيح دافعها إلى الانتقام: جعل الرهائن يرتدون الزي البرتقالي وهم ينتظرون قطع رؤوسهم، يربط على الفور بين هذا العمل البشع وبين إساءة معاملة مسلمين مسجونين على مدى سنوات بدون محاكمة في غوانتانامو.

العنف البالغ القسوة الذي تقوم به "الدولة الإسلامية" متعمّد، مقصود وعن سابق إصرار. ليس فقط كذلك، بل هو معرّف ضمن المرحلة الثانية من المراحل الثلاث لاستراتيجية إنشاء الدولة الإسلامية بحسب ما جاء في دراسة "إدارة التوحش" عام ٢٠٠٤. كاتب الدراسة هو أبو بكر ناجي أحد منظّري تنظيم "القاعدة"، ويُعتقد أن هذه الكنية تعود إلى محمد خليل الحكايمة (أبو جهاد المصري) الذي اندمج مع مجموعته التابعة لـ"الجماعة الإسلامية" المصرية ضمن تنظيم "القاعدة" وكان قريباً من أيمن الظواهري، الأمير الحالي لـ"القاعدة". وقد قُتل ناجي (الحكايمة) في ضربة جوية أميركية نفذتها طائرة بلا طيار في وزيرستان عام ٢٠٠٨.

صدرت دراسة "إدارة التوحش" في وقت كان أبو مصعب الزرقاوي يثير جدلاً بين رفاقه الجهاديين بسبب ترويجه - بل وممارسته - للعنف الشديد، حتى ضد مسلمين آخرين، كما حصل في العراق والأردن. وإذا ما نُظر إليها من هذا المنظار، قد تكون وثيقة أبو بكر ناجي محاولة، ربما، لعقلنة الفظاعات وتأكيد دورها والحاجة لها.

وبما أن كتّاب "الدولة الإسلامية" معجبون في شكل علني بالزرقاوي فإن من الافتراض المعقول أن الآراء التي عبّر عنها أبو بكر ناجي في دراسته تعبّر أيضاً عن استراتيجية أبو بكر البغدادي في العراق وسوريا، خصوصاً لجهة اعتماد ناجي على مرجعية العالم الإسلامي من القرن الرابع عشر، تقي الدين بن تيمية الذي يُعتبر أول "السلفيين الجهاديين".

يبدأ ناجي أطروحته بالقول إن "إدارة التوحش" هي مرحلة تطورية في بناء الدولة والأمة كما أنها "طبيعة إنسانية". هدفه، وهدف رفاقه المسافرين في طريقه، هو نقل "الأمة" من "مستنقع الظلمة والانحلال" الذي غرق فيه العالم بعد "سقوط الخلافة". يُطلق السلفيون - الجهاديون اسم "الجاهلية" على الدولة الوثنية التي يعتبرون أن العالم الحديث قد بلغها.

كل أنظمة الخلافة التي ظهرت في العالم الإسلامي - والقارئ يجب أن يعرف أنه كانت هناك خلافة طوال ١٣٠٠ سنة من بين الـ ١٤٠٠ سنة الماضية، قبل أن تسقط الخلافة العثمانية عام ١٩٢٢ - تم تأسيسها والمحافظة عليها بالسيف.

النبي محمد (صلعم) نفسه كان قائداً عسكرياً واستحدث الجهاد الإلزامي على جميع المسلمين. ولكن خلال السنوات الـ١٣ الأولى من دعوته (٦١٠-٦٢٣) عندما كان في مكة، كان النبي محمد يدعو إلى اللاعنف، قائلاً لأتباعه إنهم سيُكافأون في الجنة على صبرهم.

وحتى عندما بدأ مشركو قريش يُظهرون نياتهم المميتة تجاه النبي محمد (صلعم)، فإن الوحي الذي نزل عليه قال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (سورة النحل)، ولم يدعُ إلى العنف.

لكن الرسول (صلعم) وصحابته اضطروا إلى الفرار بأرواحهم وقاموا بالهجرة الأولى إلى المدينة. هذه "الهجرة" تمثّل أحد أهم التطورات الأساسية في تاريخ الإسلام، وهي التأريخ الذي يبدأ به التقويم الإسلامي (التقويم الهجري). ولذلك فلا مدعاة للغرابة لأن تكون خطابات الجهاديين كلها تتضمن تحريضاً للشباب على "الهجرة" من بلدانهم للالتحاق بـ"المجاهدين".

في المدينة، صار الرسول قائداً سياسياً وقضائياً وعسكرياً لمجتمع تعددي عاشت فيه قبائل عربية أشهرت إسلامها كما قبلت غالبية القبائل اليهودية أن تعيش في ظله كنظام سياسي. تتناول السور التي نزلت في المدينة أمور الشريعة وما هو مباح أو محرّم في الإسلام، في حين

كانت الآيات التي نزلت من قبل تتناول طبيعة الإيمان. وبينما كان جيش مكة الذي يضمّ قرابة ألف رجل مصمماً على القضاء على جيش المسلمين الذي كان يضمّ آنذاك ٣٠٠ رجل فقط، نزلت آيات من سورة الانفال متضمنة النبوءة التالية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

والآن بات مباحاً للمسلمين أن يقاتلوا: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى * لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾. وفي المواجهة التي تلت انتصر بالفعل جيش محمد الذي يضم ٣٠٠ رجل على الجيش المكي الذي يضم ألفاً في معركة بدر (عام ٦٢٤).

تحدّد سورة الأنفال المبادئ أو الأسس التي يقوم عليها الجهاد بوصفه قتالاً عنيفاً، علماً أنه من أصل ٤١ إشارة إلى الجهاد في القرآن الكريم ليس هناك سوى ١٠ لها مفهوم عسكري، بينما البقية تقدم الجهاد بوصفه ثباتاً، أو جهاداً للنفس، وبذل الوسع والمجهود والطاقة. وهناك آيات مختلفة تؤكد أن الله سبحانه وتعالى هو من يوجّه القتال، فعلى الجنود إطاعة زعيمهم الشرعي والله سيضمن النصر للصادقين حتى ولو كانت الكفة لا تميل لمصلحتهم في مواجهة أعدائهم. وتتيح سورة الأنفال أيضاً إقامة معاهدات سلام عندما يستسلم العدو وتؤكد أن أسرى الحرب لا يجب أن يُعدموا أو تُساء معاملتهم.

جاءت معركة الخندق بعد ثلاث سنوات (٦٢٧) وبعد وقت قصير من نزول سورة جديدة تتعلق بالجهاد. هنا أيضاً انتصر المسلمون وزاد العبء على أعدائهم: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى * إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى * تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ (سورة محمد، ٤) والسورة ذاتها تعد الذين يستشهدون "في سبيل الله" بأن الله سـ﴿يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (سورة محمد، ٦). وسيلاحظ القارئ بالطبع كثيراً من هذا في معتقدات وممارسات "الدولة الإسلامية" ومن قبلها تنظيم "القاعدة". ففي فتوى العام ١٩٩٦ التي أعلن فيها الحرب على أميركا حذّر أسامة بن لادن الولايات المتحدة بأن المجاهدين "ليس لهم منى سوى دخول الجنة بقتلكم... هؤلاء الشباب يختلفون عن جنودكم. مشكلتكم ستكون كيف تقنعون قواتكم بأن تحارب، ومشكلتنا هي كيف نهدئ شبابنا كي ينتظروا دورهم ليشاركوا في القتال والعمليات... شبابنا يعرفون أنه إذا لم يُقتل أحدهم فإنه سيموت وأفضل الموت هو أن يُقتل في سبيل الله". والنجاحات الهائلة التي حققتها "الدولة الإسلامية في العراق والشام" وبعدها "الدولة الإسلامية"، وتردد الغرب وتركيا في الدفع بقوات على الأرض، تعبّر بلا شك عن شيء من الصحة لهذه النبوءة المتفائلة لبن لادن.

في الإجمال، حارب النبي محمد (صلعم) خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته، في

البدء على رأس مجموعة من المجاهدين الذين نموا ليصبحوا أول جيش نظامي في العالم العربي يضم ١٠ آلاف مقاتل من بينهم وحدات الخيالة والمشاة، إضافةً إلى جهاز استخبارات بالغ الفاعلية. ويصف المؤرخون النبي محمداً بأنه كان قائداً واستراتيجياً عسكرياً عظيماً.

لم يقف العنف عائقاً أمام النبي محمد الذي فهم قوة الخوف. فقد ضمن ولاء مناصريه من خلال العقاب العلني للخونة، وكان الإعدام عقوبة من يرتد منهم عن الإسلام، كما تم اغتيال العديد من أعدائه السياسيين. ولإثارة الرعب في قلوب الكفار أعلن النبي محمد الحرب عليهم قائلاً "جئتكم بالذبح".

أنظمة الخلافة التي جاءت من بعد كلها تأسست وتمّت المحافظة عليها بالقوة العسكرية. فالخليفة الأول بعد وفاة النبي محمد كان عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن كعب التميمي القرشي المعروف أكثر بـ"أبو بكر الصديق". يدل اختيار أبو بكر ناجي كنيته هذه – وهي الكنية التي يستخدمها أبو بكر البغدادي أيضاً – على أهمية هذه الشخصية التاريخية في الإسلام، علماً أن أبا بكر كان واحداً من أكثر الناس الذين وثق بهم النبي محمد من بين صحابته. لم تدم فترة حكم الخليفة أبي بكر الصديق طويلاً فقد مات بعد سنتين فقط من توليه الخلافة. بعد الخلافة الأموية (٦٦١ – ٧٥٠) جاءت الخلافة العباسية التي بقيت في الحكم قرابة ٥٠٠ عام (٧٥٠–١٢٥٨) عندما سقطت بغداد في يد جيوش هولاكو، على رغم أن الخلافة العباسية بقيت مستمرة في أنحاء أخرى من العالم الإسلامي حتى العام ١٥١٧ (عندما أخذها العثمانيون). وقد شهدت خلافة العباسيين واحدة من أشهر المعارك في التاريخ: معركة نهر طلاس (قرغيزستان) عام ٧٥١ عندما انتصرت الجيوش العربية على إمبراطوية سلالة تانغ في الصين.

أعلن الأتراك العثمانيون أنفسهم الخلفاء الجدد ووسّعوا إمبراطوريتهم على مدى ٥٠٠ سنة أخرى حتى جاءت اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦ لتمهّد لتفكيك سوريا الكبرى وسقوط الإمبراطورية العثمانية عام ١٩٢٢. وبذلك تكون أنظمة الخلافة (إذا ما تضمّنت العثمانيين) قد استمرت بدون انقطاع لأكثر من ١٣٠٠ سنة. وانطلاقاً من هذا الواقع، فإنه حين يسخر الإعلام الغربي ويتحدى فكرة الخلافة بوصفها من "العصور الوسطى"، إلا أن الحقيقة هي أنه ليس من الغرابة في شيء – في ظل هذا الإطار التاريخي الطويل – أن يسعى الإسلاميون المتشددون إلى إعادة تأسيس الخلافة على شكل "الدولة الإسلامية" الحالية.

شوكة النكاية والإنهاك

بالعودة إلى كتاب أبو بكر ناجي، فهو يصف المرحلة الأولى من تأسيس الدولة الإسلامية

"شوكة النكاية والإنهاك"، ما يعني أن القوى العظمى سيتم إنهاكها في شكل متواصل بالتهديدات والإرهاب والعدوان. وبنظره فإن الولايات المتحدة والدول الحليفة لها ستنفجر من الداخل نتيجة عوامل عديدة منها "انهيارها الأخلاقي، انعدام المساواة الاجتماعية، الجشع، إعطاء الأولوية للمتع الدنيوية" وهكذا دواليك، ولكن أهم هذه العوامل هو الانهيار الاقتصادي المحتم الناتج عن الحروب المتواصلة: "الطريق الأكثر احتمالاً لهزيمة العدو الأقوى عسكرياً هي استنزافه عسكرياً واقتصادياً"، بحسب ما يؤكد ناجي، مثله مثل عدد آخر من منظري تنظيم "القاعدة" وصلوا إلى هذا الرأي ذاته. الاضطرابات الاجتماعية التي ستنتج عن الانهيار الاقتصادي ستضرّ أكثر بـ"العدو"، كما يقول ناجي. ويمكن أن يتذكر القراء أن هذه العملية هي نسخة طبق الأصل عن الطريقة التي انهار بها الاتحاد السوفييتي الذي تمّ استنزافه بعقد من الحرب في أفغانستان وفي الوقت نفسه استنزافه عبر الدول المتحالفة معه والتي كان عليه أن يجهد لضمان بقائها على خطه السياسي نفسه.

المرحلة الثانية التي يصفها ناجي هي مرحلة "إدارة التوحش" التي يقوم فيها الجيش الجهادي بتدمير أي شيء يقف في وجهه. الأميركيون، كما يقول، "وصلوا إلى مرحلة من التخنيث التي لا تسمح لهم بأن يكونوا قادرين على تحمّل المعارك لوقت طويل ولذلك فإنهم يعوضون عن ذلك بستار إعلامي خادع". الهدف هنا هو استفزاز الأميركيين "كي يتخلوا عن حربهم ضد الإسلام بالوكالة... والحرب النفسية في الإعلام... وإرغامهم على القتال مباشرة": هذه هي الاستراتيجية نفسها التي حددها أسامة بن لادن الذي سعى إلى هزيمة "الفيل الأميركي الثقيل" من خلال جرّه للقتال على أرض المسلمين. "الدولة الإسلامية" لم تتمكن حتى الآن من استفزاز الأميركيين إلى الحد الذي يرسلون فيه جنودهم إلى أرض المعركة على رغم أن هذا هدفها في نهاية المطاف، لكن ناجي يوحي بأن "التدخل الأميركي المباشر في العالم الإسلامي" يُضاف إليه "دعمها للكيان الصهيوني" سيضمن في نهاية المطاف هزيمة الولايات المتحدة على أيدي "حركة التجديد".

"منطقة التوحش" التي سينشط فيها السلفيون - الجهاديون هي "منطقة تخضع لقانون شريعة الغاب بشكلها البدائي". بالنسبة إلى الناس المساكين الذين لم يسعفهم حظهم أن يعيشوا سوى في ظل "الفوضى المتوحشة" فإنهم "سيتوقون إلى أحد ما يدير هذا التوحش"، وهذا "الأحد الما" هو الدولة الإسلامية، بنظر ناجي. ويجب أن نتذكر أن ناجي كتب هذه الدراسة في العام ٢٠٠٤، قبل سبع سنوات من الربيع العربي والحروب الأهلية التي تلت في سوريا والعراق والتي أدت إلى نشوء "منطقة التوحش" التي يتحدث عنها والتي يسعى الجهاديون إلى استغلالها لمصلحة مشروعهم.

لقد تم الترحيب بمقاتلي "الدولة الإسلامية" في كثير من المدن السنّية التي سيطروا عليها

في الفترة الماضية بوصفهم منقذين من الفوضى وانعدام القانون، مثلما حصل مع حركة "طالبان" عندما تم الترحيب بها في البداية في أفغانستان بعد الحرب الأهلية، وهي فترة أشرف فيها أمراء حرب متنافسون على عنف وفوضى لا يُحتملان.

"التوحش" الذي توقّعه ناجي (وأصاب فيه) يبدأ مع انهيار، أو ضُعف، الجيوش النظامية ما يسمح لـ"المجاهدين" بأن تكون لهم السيطرة في المناطق التي تتركها الجيوش بلا دفاعات. عراق صدام وسوريا الأسد كانا يملكان قبل اندلا ع الثورتين فيهما اثنين من أقوى الجيوش في العالم العربي، لكنهما الآن باتا في انهيار تام.

ويشدّد ناجي، في دراسته، على ضرورة أن يكون الجهاديون أنفسهم "متوحشين" أيضاً. في إشارته إلى قيام الخلافة العباسية، يقول ناجي إن "أحد أسباب نجاح العباسيين وفشل الآخرين هو عنف العباسيين ولين الآخرين ومحافظتهم على دمائهم".

في إشارته إلى الاشمئزاز الطبيعي الذي يشعر به معظم المتدربين أمام هول العنف الشديد، يستعيد ناجي قصة صحابة الرسول الذين "أحرقوا الناس بالنار على رغم أنه عمل بغيض لأنهم عرفوا تأثير العنف الشديد في وقت الحاجة... لم يقوموا بذلك لأنهم يحبون القتل، فهم لم يكونوا بالتأكيد أناساً فظّين. لا والله. كم كانت قلوبهم رقيقة... حقيقة هذا الدور يجب أن تُفهم من خلال شرحه للشباب الذين يريدون القتال. هؤلاء يختلفون عن العرب الذين كانوا في بداية الرسالة النبوية. فالعرب (القدامى) كانوا محاربين ويعرفون طبيعة الحروب".

وفي هذا الإطار تجدر الإشارة إلى أن أبا بكر الصديق، رفيق الرسول، اكتسب لاحقاً سمعة بأنه "عديم الرحمة في الحروب"، فقد أمر جنوده بـ"قطع الأعناق بدون رحمة أو بطء" أثناء حرب الردة. وبالنسبة إلى أبو بكر ناجي (وأفراد "الدولة الإسلامية" اليوم) "(نحن) الآن أمام أوضاع شبيهة بالأوضاع بعد وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلّم، وحدوث الردة أو مثل ما كان عليه المؤمنون في بداية الجهاد. فنحتاج للإثخان ونحتاج لأعمال مثل ما تم القيام به تجاه بني قريظة (الذبح)".

زيادة "توحّش" المجاهدين ستؤدي إلى "ارتفاع سمعة المجاهد ومنزلته" عبر "موجات من العمليات التي ستملأ قلوبهم (الأعداء) بالخوف وهذا الخوف سيكون بلا نهاية". والهدف هو الحصول على أقصى تغطية إعلامية ممكنة للفظاعات المرتكبة بحيث "تثني قلوبهم عن معارضتنا... وتجعلهم يفكرون ألف مرة قبل أن يهاجمونا". طبيعة الحرب، بحسب ما يقول، هي "لا شيء سوى العنف، الخشونة، الإرهاب، إخافة العدو وذبحه... الرقّة هي إحدى مكونات الفشل في أي عمل جهادي".

يحضّ ناجي على الإفراط في حجم العمليات، فمثلاً يجب "استخدام كمية من المتفجرات لا تؤدي فقط إلى تدمير مبنى بل تسويته بالأرض. تجعل الأرض تبتلعه كلياً. من خلال ذلك،

درجة خوف العدو تتضاعف وتتحقق الأهداف الإعلامية الجيدة". وإذا لم تُدفع الفديات من أجل إطلاق رهائن مخطوفين، يجب أن تتم "تصفيتهم بأكثر الطرق إخافةً ما سيبثّ الخوف في العدو ومؤيديه".

من خلال جعل العدو "يدفع الثمن"، يؤكّد ناجي أن هذا العدو سيصبح "ميّالاً أكثر نحو الصلح". لكن ذلك يجب أن يكون بهدف السماح للمقاتلين بـ"التقاط أنفاسهم والتقدم... (أي) توقّف موقّت في القتال بدون أي نوع من المعاهدات أو التنازلات".

بعد إشارته إلى التحالفات التي تقودها الولايات المتحدة والتي تقوم فقط على "المصلحة الخاصة" (بعكس المجاهدين الذين يتوحّدون بناءً على إيمانهم المشترك)، لا يتوقع ناجي مقاومة طويلة الأمد للدولة الإسلامية: "بالنسبة إلى إصرارهم على مواصلة الحرب، فهذا يكون فقط عندما يعتقدون أن خصمهم ضعيف ويمكن سحق إرادته. لكن عندما تكون هناك مقاومة عنيفة تقود إلى غزوات مكلفة جداً وليس لها منافع كبيرة، أطراف التحالف تبدأ بالإنسحاب واحداً تلو الآخر، مفضّلين أمنهم (الخاص) ويؤخّرون الصراع إلى حين توافر ظروف ملائمة".

وما أن يكون المجاهدون في موقع يسمح لهم بـ"إدارة" هذه المرحلة من التوحش، يكون الهدف هو تطبيق عدد من "الأهداف الأولية" التي ستبلغ ذروتها، نظرياً، بتأسيس الدولة الإسلامية (الخلافة). وهذه الأهداف هي بحسب ما يقول ناجي:

"١- نشر الأمن الداخلي.

٢- توفير الطعام والعلاج.

٣- تأمين منطقة التوحّش من غارات الأعداء.

٤- إقامة القضاء الشرعي بين الناس الذين يعيشون في مناطق التوحّش.

٥- رفع المستوى الإيماني ورفع الكفاءة القتالية أثناء تدريب شباب منطقة التوحش وإنشاء المجتمع المقاتل بكل فئاته وأفراده عن طريق التوعية بأهمية ذلك.

٦- العمل على بثّ العلم الشرعي (الأهم فالأهم) والدنيوي (الأهم فالمهم).

٧- بثّ العيون واستكمال بناء إنشاء جهاز الاستخبارات المصغّر.

٨- تأليف قلوب أهل الدنيا بشيء من المال والدنيا بضابط شرعي وقواعد معلنة بين أفراد الإدارة على الأقل.

٩- ردع المنافقين بالحجّة وغيرها وإجبارهم على كبت وكتم نفاقهم وعدم إعلان آرائهم المثبطة ومن ثم مراعاة المطاعين منهم حتى يكفّ شرهم.

١٠- الترقّي حتى تتحقق إمكانية التوسّع والقدرة على الإغارة على الأعداء لردعهم وغنم أموالهم وإبقائهم في توجّس دائم وحاجة للموادعة.

١١ – إقامة التحالفات مع من يجوز التحالف معه ممن لم يعطِ الولاء الكامل للإدارة.

خاتمة

إن الاستراتيجية والأيديولوجية التي تقف وراء المحاولة المستمرة لإنشاء "الخلافة" في قلب الشرق الأوسط حالياً، مع وجود طموحات لتوسيعها، إنما هي موضوعة منذ ما لا يقل عن عقد من الزمن، وتتصور وقوع أعمال بربرية ضخمة.

أطروحة "إدارة التوحّش" لأبو بكر ناجي منشورة منذ العام ٢٠٠٤، كما أحيل القارئ على كتابَيّ السابقين عن "القاعدة" (**التاريخ السري وما بعد بن لادن**) حيث أناقش وثيقة أخرى صادرة في العام ٢٠٠٥ وتحمل عنوان "استراتيجية القاعدة حتى العام ٢٠٢٠" والتي كتبها مكّاوي، أحد المنظرين الغامضين لـ"القاعدة" (يُحتمل أنه سيف العدل). هذه الوثيقة، التي نشرتها في **القدس العربي**، تحدّد خطة من خمس مراحل تبدأ أيضاً بـ"استفزاز الفيل الأميركي الضخم" ليأتي إلى أراضي المسلمين حيث يمكن قتل جنوده وتنتهي بإعادة إنشاء الخلافة عقب المعركة الحاسمة مع "الكفار". (**التاريخ السرّي**، ص٢٢١).

وكما يبدو أنه حصل، فقد انتزعت "الدولة الإسلامية" موقع "القاعدة" – ربما لفترة موقتة – ولكن المؤكد أن لكل من الجماعتين أهدافاً تبدو متطابقة كلياً ويمكن للمرء أن يتوقع وحدة استراتيجية بينهما في المستقبل إذا ما وافق أيمن الظواهري على تجرّع سم أداء البيعة لأبو بكر البغدادي.

إن الاستعراض العام المروّع للعنف الشديد هو جزء من خطة لبثّ الرعب والخوف في قلوب الأعداء. ولكن، كما بيّنت سابقاً، ليست "الدولة الإسلامية" فريدة من نوعها في هذا المجال.

الفصل السابع

المقاتلون الأجانب في "الدولة الإسلامية"

كانت ظاهرة "هجرة" المقاتلين الأجانب، المدفوعين بأيديولوجية دينية مشتركة والانتماء إلى هوية وطنية عابرة للحدود (هي "الأمة" في هذه الحال)، نادرة جداً حتى وقت قصير مضى، إلى درجة أنها لم يكن لها اسم محدد في العلوم السياسية.

في مفردات الجهاديين، المقاتلون الأجانب هم "المهاجرون"، المصطلح الذي أطلقه النبي محمد على المقاتلين الذين هاجروا لـ"الجهاد".

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن مفهوم الأمة يُعتبر أساسياً في أيديولوجية الجهاديين. فـ "أمة المسلمين" ليس لها حدود، كما أن الجهاديين يرفضون بشدة الحدود المصطنعة التي رسمتها القوى الاستعمارية السابقة بعد الحرب العالمية الأولى وفق اتفاقية سايكس بيكو المشؤومة عام ١٩١٦.

في تاريخ المنطقة الحديث، جاء متطوعون عرب (للتمييز بينهم وبين الجيوش النظامية) من دول عدة للالتحاق بالفلسطينيين في معاركهم ضد إسرائيل، لكن أعدادهم لم تكن كبيرة، وحتى عندما بلغت ذروتها خلال حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ فإن الرقم لم يتجاوز ١٠٠ متطوّع.

أما ظاهرة المقاتلين المسلمين المتطوعين من خارج العالم العربي ممن جاؤوا للالتحاق بـ"المجاهدين" فلم تبرز سوى خلال السنوات العشر من الحرب التي تلت الغزو السوفييتي لأفغانستان خلال حقبة الثمانينيات. وفي هذه الحال اجتمع مقاتلون جاؤوا من معظم الدول العربية مع متطوعين جاؤوا بدورهم من دول مختلفة بما فيها تركيا وباكستان وبنغلادش وإندونيسيا والفيليبين والولايات المتحدة وأوروبا. لكن لم تكن أعداد هؤلاء الأخيرين كبيرة

من ضمن ما يقدّر بـ ٢٠ ألف مقاتل غير عربي شاركوا في الجهاد الأفغاني.

وفي التسعينيات جذب الجهاد البوسني قرابة ألفي مقاتل أجنبي، في حين جاء قرابة ١٥٠٠ مقاتل إلى أفغانستان خلال الحرب الأهلية التي تلت انسحاب السوفييت عام ١٩٨٨. وقد بقي مثل هذا العدد من المقاتلين الأجانب في أفغانستان، معظمهم في إطار تنظيم "القاعدة"، إلى أن أرغمهم القصف الأميركي في أواخر العام ٢٠٠١ على التفرّق عقب معركة تورا بورا وانسحاب أسامة بن لادن.

لكن الغزو الأميركي للعراق عام ٢٠٠٣ جذب أعداداً كبيرة من المقاتلين الأجانب الذين أعادوا تنظيم صفوفهم هناك، حيث بلغ عددهم، بحسب التقديرات، قرابة خمسة آلاف مقاتل، أي ما يوازي ٥ في المئة من عناصر المقاومة العراقية. وكان معظم هؤلاء المقاتلين الأجانب منضوين تحت لواء "تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين" ولاحقاً ضمن "الدولة الإسلامية في العراق".

ترتبط الطبيعة العالمية المتزايدة لـ"الجهاد" بعوامل عدة: فهي، في البداية، يمكن أن تكون نتيجة التصدير الحماسي من قبل الحكم السعودي للوهابية عبر العالم الإسلامي، وما نتج عن ذلك من توسّع في المساجد التي تروّج للأفكار المتشددة، وللمدارس والجامعات التي تضع الجهاد بوصفه "مادة إلزامية" في إطار العلوم الدينية. كما ترتبط بالازدهار الذي شهدته الجمعيات الخيرية الإسلامية التي تولّت توفير التمويل وتسهيل الأمور اللوجستية الخاصة بالسفر: أي "الهجرة".

وخلال العقد الأخير لعبت شبكة الانترنت دوراً تجاوز في مفعوله دور بقية شبكات التجنيد ونشر الدعوة الدينية. فهناك مواقع عدة على الانترنت، بما فيها موقعا "تويتر" و"فايسبوك"، تتيح بسهولة الوصول إلى صفحات تشجّع وتعلّم وتساعد الشخص الراغب في "الشهادة". بل إن شبكة الانترنت البديلة التي تعمل في الخفاء ("الشبكة المظلمة") توفر معلومات أخطر بكثير من تلك المعروضة على الشبكة العامة العلنية، مثلما سنرى في الفصل المخصص للإتصالات.

ولا بد من القول إن أعداد المقاتلين الأجانب الذين سافروا إلى سوريا والعراق خلال السنتين أو الثلاث الاخيرة كانت غير مسبوقة، بل إنها شهدت ارتفاعاً أكبر بعد إعلان قيام "الخلافة" في حزيران/ يونيو ٢٠١٤. ويضع بعض التقديرات العدد الإجمالي للمقاتلين في "جيش الدولة الإسلامية" بحدود ١٠٠ ألف - وهو رقم سمعته أيضاً من مصادر عدة خلال زيارة أخيرة قمت بها للمنطقة. ومن بين هؤلاء أكثر من الثلث من المقاتلين الأجانب الذين جاؤوا من أكثر من ٨٠ دولة.

في المقابل، تضع التقديرات الرسمية (وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية "سي آي

إيه") عدد أفراد "جيش الدولة الإسلامية" بحدود ٣١,٥٠٠ جندي، كما أن التقديرات المقدمة عن عدد المقاتلين الأجانب من بين هؤلاء تبدو بدروها أرقاماً متحفظة. وعوض الاعتماد على هذه التقديرات، ربما على المرء أن ينظر إليها بوصفها "نسبية" وليست أرقاماً محددة. وبناءً على ذلك، يمكن الرجوع إلى التقسيم الأخير الذي قدمته محطة "بي بي سي" لأعداد المجاهدين الأجانب والذي أظهر أن ما لا يقل عن ٢٥ في المئة منهم جاؤوا من الغرب. ومن بين العرب شكل التونسيون الغالبية (٢٥ في المئة)، وبعدهم السعوديون (٢٢ في المئة)، ثم الأردنيون (٢٠ في المئة)، والمغاربة (١٥ في المئة). لكن الـ "بي بي سي" تقول، في المقابل، إن ٣ في المئة فقط جاؤوا من تركيا، في حين أن معظم المصادر التي تحدثت إليها خلال زيارتي للمنطقة في أيار/ مايو ٢٠١٤ - والتي قابلت فيها أيضاً برلمانيين أتراكاً - سمعت منها أن هناك ما لا يقل عن ٢٠٠٠ تركي ضمن صفوف "الدولة الإسلامية" في العراق والشام. أما بالنسبة إلى المقاتلين الغربيين فقد شكل الفرنسيون الغالبية (٦ في المئة) وبعدهم البريطانيون (٤,٥ في المئة).

شبكة تأسست مع مرور الوقت

يعود كثير من "النجاحات" الحالية التي حققتها "الدولة الإسلامية" إلى نضوج بذور زُرعت قبل فترة طويلة، كما أن التأييد العابر للحدود الوطنية الذي تحصل عليه "الدولة" ليس أيضاً بالأمر الاستثنائي. فعلى مرّ عقود أسّس المقاتلون الأجانب الذين هاجروا للمشاركة في الجهاد في أكثر من منطقة شبكات معقّدة لتقديم الدعم المتبادل، وساهموا في تقوية الحركة الجهادية ككل (على رغم الانقسامات المتأصلة والخلافات الداخلية التي تعصف بها) وتوسيع دائرة المجنّدين والذين يتولّون استقطابهم. وتحتل مجموعات الجهاديين الأجانب مكانة مميزة ضمن هذه الشبكات العابرة للانتماءات الوطنية.

يُشكّل الإسلاميون الشيشان مثالاً جيداً على ذلك. فعلى رغم أن بلدهم يقع جغرافياً على مسافة لا يُستهان بها من الشرق الأوسط (تفصل دولة جورجيا، الجمهورية السوفييتية السابقة، عن شمال تركيا)، إلا أنهم يتشاركون في حمل أيديولوجية الجهاد العالمي التي يروّج لها تنظيم "القاعدة" و"الدولة الإسلامية". في العام ١٩٩٤ شنّ الانفصاليون الشيشان حربهم الأولى من أصل حربين خاضوهما ضد موسكو من أجل نيل الاستقلال، وسرعان ما أخذت ثورتهم منحى إسلامياً - فغالبية الشيشانيين بقيت على انتمائها إلى الإسلام السنّي، بينما الدولة التي كانت تحكمهم - أي الاتحاد السوفييتي الماركسي، الملحد - كانت ترغب في التخلص من الأديان كافة. وفي خضم الحرب الشيشانية هاجر جهاديون من دول

عديدة إلى الشيشان، وكانت "الكتيبة الإسلامية" التي ضمّت عرباً ومقاتلين أجانب آخرين من بين أكثر المجموعات القتالية فاعلية خلال القتال ضد الروس.

وعندما انتهت الحرب البوسنية عام ١٩٩٥، والتي جذبت أيضاً أعداداً كبيرة من الجهاديين الأجانب، انتقل كثير من هؤلاء المقاتلين إلى الشيشان عوض أن يعودوا إلى بلدانهم. وقد عرف الإعلاميون العرب آنذاك من مصادرهم أن أعضاء في جماعات جهادية مصرية - بينها "الجماعة الإسلامية" و "جماعة الجهاد" - كانوا ينتقلون إلى الشيشان عوض أن يطلبوا اللجوء السياسي في أوروبا. وقد أسّس كثير من المقاتلين أسراً نتيجة زواجهم بنساء بوسنيات أو بلقانيات أو من البلدان الواقعة بين قارتي أوروبا وآسيا (أوراسيا). وبالإضافة إلى وجود غرض أيديولوجي مشترك، ارتقت هذه الزيجات ذات الطابع العالمي فوق شبكات الارتباط القبلي، وأوجدت روابط عميقة بين مجتمعات جهادية مختلفة في أنحاء الشرق الأوسط وأوراسيا، امتداداً إلى مناطق مختلفة من العالم.

وفي الواقع، كانت صلة "القاعدة" موجودة منذ البداية مع الجهاديين في الشيشان. فـ "منظمة الإحسان العالمية" شكّلت بمثابة واجهة استُخدمت لنقل الأموال إلى المقاتلين في الشيشان، كما أن عضو "القاعدة" سعيد الإسلام المصري كان يعمل في مكتبها في غروزني حتى العام ١٩٩٨.

وقد ردّ الشيشانيون الجميل بأحسن منه وشاركوا مع المجاهدين في معارك أخرى، مثل أفغانستان والعراق. وعلى الأقل هناك بين المعتقلين في غوانتانامو ثلاثة من شمال القوقاز أُسروا في أفغانستان عام ٢٠٠١، كما أن صحيفة التايمز كتبت في تقرير لها من العراق عام ٢٠٠٣ أن "الأميركيين... قبضوا على شيشانيين يحاربون مع وحدات الفدائيين قرب بغداد".

في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٧ أعلن دوكا عمروف، الرئيس السابق لجمهورية بشكيريا الشيشانية (الاسم التاريخي للشيشان) المعلنة من طرف واحد، قيام "إمارة القوقاز الإسلامية" التي أصبح أميرها الأول.

ويمكن بسهولة العثور على صلة بين "القاعدة" و "إمارة القوقاز الإسلامية"، إذ غالباً ما ينقل موقع "القوقاز" التابع للإمارة مواقف القادة الأيديولوجيين لـ"القاعدة" وتصريحات الناطقين باسم حركة "طالبان". كما أن الموقع يروّج لـ"المنجزات" الضخمة التي تحققت على أيدي "الدولة الإسلامية في العراق والشام" ثم على أيدي "الدولة الإسلامية".

ويرى تنظيم "القاعدة" - وربما الآن "الدولة الإسلامية" - في "إمارة القوقاز" معبراً مهماً إلى شرق أوروبا (ومن المفترض إلى أوروبا كلها أيضاً) وقد روّج لتوسّع الجهاديين في منطقة القوقاز. وفي هذا الإطار أعلن موقع "أنصار المجاهدين" المرتبط بـ"القاعدة" إطلاق حملة

لتأييد مقاتلي "إمارة القوقاز" في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٠، وأشار إلى "انتشار الجهاد في تترستان وبشكيرستان" وحضّ على ظهور "جيل جديد" من العلماء (يفترض أنه يقصد بذلك أن الأيديولوجية الجهادية المتّبعة في آسيا الوسطى ليست بالمستوى الذي يُرضي مطلق الدعوة وبالتالي "القاعدة"). وقد نشأت بالفعل جماعة من الجهاديين التتر والبشكير أعلن عنها على الموقع ذاته، وأطلقت على نفسها اسم "ولاية ايدل - أورال" (اسم جمهورية لم تعمر طويلاً مركزها قازان وتضم التتر والبشكير والتشوفاش). وفي المقابل وسّعت "إمارة القوقاز" نفوذها تدريجياً وباتت اليوم تضم سبع ولايات بينها الشيشان وأوسيتيا الشمالية وداغستان.

كما أن الصلة بين "إمارة القوقاز" وبين تنظيم "القاعدة" و "حركة طالبان" يمكن أن تكون موجودة أيضاً من خلال ما يوحي به تورّط الشيخ الراحل أنور العولقي وعدد من الجهاديين الشيشان في هجومين تمّ إحباطهما وكان يفترض أن تقوم بهما خلايا نائمة مرتبطة بـ"القاعدة" في أوروبا عامي ٢٠١٠ و٢٠١١. وقد استُخدم موقع "أنصار المجاهدين" من أجل جمع أموال وتجنيد أشخاص لمصلحة مجموعة كانت تنوي شن هجوم على هدف تابع لحلف شمال الأطلسي (ناتو)، إضافةً إلى مهاجمة متسوقين لعيد الميلاد في بلجيكا عام ٢٠١٠ (مجموعة "شريعا فور بلجيوم"). وعندما تم توقيف أفراد هذه المجموعة تبيّن أنها تضم بلجيكيين وهولنديين وألماناً وإسباناً ومغاربة وسعوديين وثلاثة شيشانيين. وفي نيسان/ أبريل ٢٠١١ تم تفكيك خلية أخرى في جمهورية التشيك ضمّت شيشانياً واثنين من داغستان ومولدوفيين وبلغاراً. وقال بعض الرجال الموقوفين للمحققين إنهم تلقوا تدريبات في معسكرات في باكستان.

وهناك أيضاً صلة أخرى من خلال "الحركة الإسلامية في أوزبكستان" التي تقاتل إلى جانب "طالبان" في كل من أفغانستان وباكستان وتشترك معهما في معسكرات التدريب الموجودة في باكستان. ففي آذار/ مارس ٢٠١١ أصدرت "الحركة الإسلامية في أوزبكستان" شريط فيديو رحّبت فيه بانضمام "إمارة القوقاز" إلى "الجهاد العالمي"، مشيرةً إلى أن "في جماعتنا العديد من الإخوة الذين تدربوا أو قاتلوا على أرض إمارة القوقاز".

وإضافةً إلى كل ذلك، فإن هناك أيضاً صلة محتملة من خلال دوغر صفديت (عبد الله الكردي) الذي يُعرف بـ"بن لادن الشيشاني" الذي جنّد ودرّب ونسّق تحركات الجهاديين الأجانب في القوقاز. وقد قتلته أجهزة الأمن الروسية في منطقة غدانسك بعد أربعة أيام فقط من مقتل أسامة بن لادن في باكستان عام ٢٠١١، وربما كان قد زاره في أبوت آباد في الشهور التي سبقت مقتله، كما قيل.

في مقابلة معه نُشرت على موقع الجماعة في آب/ أغسطس ٢٠١١، وضع دوكر عمروف

أمير "إمارة القوقاز" منظمته في شكل صارم في إطار التحالف العالمي الذي تقوده "القاعدة". وقال: "نحن جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية... من يهاجم المسلمين أيّاً كان عدو لنا، عدو مشترك لنا". وفي المقابلة ذاتها أضاف عمروف، وكأنه يقرأ الغيب، مشيراً إلى احتمال توسّع التمرد الجاري في العراق: "جهاد حقيقي يتطور في العراق، والإمارة أعلنت هناك".

عندما ظهر تنظيم "الدولة الإسلامية في العراق والشام" أرسل له عمروف أموالاً ومقاتلين من أجل مساعدته. وعندما حصل الانقسام بين "النصرة" و "الدولة الإسلامية في العراق والشام" وقفت "إمارة القوقاز" إلى جانب "الدولة". والآن هناك العديد من قادة كتائب المقاتلين الأجانب في صفوف "الدولة الإسلامية" يقودها شيشانيون بينهم عمر الشيشاني.

وقد مات دوكر عمروف مسموماً في أواخر العام ٢٠١٣ وحلّ محله علي أبو محمد على رأس "إمارة القوقاز".

وقد ساهمت "النجاحات" التي حققتها "الدولة الإسلامية" في العراق وسوريا في إنعاش جماعة "إمارة القوقاز" بدورها. وقد نظرت كل من موسكو وواشنطن برعب متنام إلى قوس انعدام الاستقرار الذي يرتبط بالإسلاميين والذي ينتشر عبر الشرق الأوسط الكبير ومناطق الحدود بين آسيا وأوروبا. ويكمن أحد أسباب هذا القلق في ارتدادات العودة المحتملة إلى القوقاز للمقاتلين الشيشانيين الذين التحقوا بـ"الدولة الإسلامية". ففي الماضي كان يعيق هؤلاء نقص المال لتمويل عمليات التدريب والتحرك والحصول على السلاح، لكنهم الآن بات في إمكانهم أن يعودوا ومعهم ما يكفي من الأموال التي يحتاجونها من الثروة المتراكمة التي تحققها خزينة "الدولة الإسلامية".

مشاركة تونسية ليبية مغاربية

جذبت الحرب الأهلية الجزائرية، التي اندلعت في العام ١٩٩٢ عقب إلغاء الانتخابات التشريعية، أعداداً كبيرة من الجهاديين الأجانب. ولقد وصل عدد المتمردين الإسلاميين إلى ٢٨ ألفاً في أوج الأزمة، وكان بينهم عدد كبير من "المتطوعين" الأجانب الذين أرسل بعضهم تنظيم "القاعدة". وقد أنتجت المشاركة المشتركة في المعارك في هذا البلد واحداً من أقوى "فروع" تنظيم "القاعدة" مع جذور عميقة تتجاوز الحدود الإقليمية. فكما هو معروف، نشأ "تنظيم القاعدة ببلاد المغرب الإسلامي" نتيجة اندماج "الجماعة السلفية للدعوة والقتال" بتنظيم أسامة بن لادن عام ٢٠٠٧.

ومن المنطقة المغاربية يظهر العنصر التونسي بقوة في هيكلية تنظيم "الدولة الإسلامية". فثورة العام ٢٠١١ والانتصار الانتخابي اللاحق للإسلاميين ساهما كما يبدو في إعادة إحياء

التشدد الإسلامي في هذا البلد (تونس). ونفس الشيء ينطبق على ليبيا التي لها تاريخ أطول في النشاط الجهادي. فقد أنتجت ليبيا واحداً من أعظم "الشهداء" في الحركة الإسلامية ممثلا بعمر المختار الذي قاد تمرداً إسلامياً ضد المحتلين الإيطاليين من العام ١٩١٢ ولمدة ٢٠ عاماً تقريباً إلى أن اعتُقل وعُذّب وأُعدم شنقاً على رغم أنه كان في السابعة والثلاثين من العمر.

في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٤، وبعد شهور من القتال العنيف، أعلنت جماعة ناشطة في مدينة درنة بشرق ليبيا قيام "إمارة إسلامية" وأعلنت ولاءها لزعيم "الدولة الإسلامية" أبو بكر البغدادي، علماً أن هناك جماعات إسلامية عديدة تنشط في الشرق الليبي ولعل أبرزها جماعة "أنصار الشريعة" التي يُلقى باللوم عليها في حادثة مقتل السفير الأميركي كريستوفر ستيفنز في قنصلية بلاده في بنغازي في أيلول/ سبتمبر ٢٠١٢ (وتنفي "أنصار الشريعة" هذه التهمة).

ولليبيين تعاطف واضح مع الأيديولوجيات المتشددة، علماً أنهم وفروا ما وصفته برقية ديلوماسية مسرّبة عام ٢٠٠٨ بأنه "نبع من المقاتلين الأجانب الليبيين لمصلحة القاعدة في العراق"، إضافةً إلى أن عدداً من أبرز قادة هذا التنظيم هم ليبيون أيضاً.

لم أفاجأ في الواقع عندما وصفت تقارير صحافية من بنغازي بحراً من "أعلام القاعدة" يتم التلويح بها احتفالاً بسقوط معمر القذافي. كانت هذه الأعلام في الحقيقة أعلام "الدولة الإسلامية في العراق" – أو الرايات السود التي ترفعها "الدولة الإسلامية" حالياً وتحمل نصف الشهادة (لا إله إلا الله) وفي دائرة بيضاء أسفلها عبارة (الله رسول محمد) – أو (محمد رسول الله) معكوسة.

والميليشيات الليبية، الإسلامية وغير الإسلامية، مسلحة تسليحاً جيداً بعدما حصلت على ما تشاء من ترسانات الأسلحة المتطورة التي تركها النظام الليبي المنهار. وقد استفاد "تنظيم القاعدة ببلاد المغرب الإسلامي" فوراً من هذه المخزونات من السلاح التي تم نقلها عبر الصحراء (إلى مالي مثلاً)، كما أن تقارير ميدانية من سوريا والعراق تتحدث عن أسلحة عليها علامات ليبية تنتشر بين الجهاديين هناك.

وفي ظل وجود "تنظيم القاعدة ببلاد المغرب الإسلامي" في الجزائر ودول الساحل، والنشاط القوي لـ"بوكو حرام" في نيجيريا، فإن قيام دولة إسلامية في ليبيا سيكون بمثابة كابوس أمني للدول الغربية القلقة أصلاً من ظاهرة الانجذاب المتزايد للأفارقة إلى تنظيم "القاعدة".

وسواء رأينا أم لم نرَ تحقق مثل هذا السيناريو الخطير، إلا أن المرجّح أن استمرار عدم الاستقرار الذي تشهده ليبيا سيجعل منها مركزاً لنشاط الجهاديين لسنوات في الفترة المقبلة.

وعلى رغم وقوعها في شرق أفريقيا بعيداً عن مركز ثقل الجهاديين، في البدء في منطقة

الحدود الأفغانية - الباكستانية والآن من خلال "الدولة الإسلامية" في العراق والشام، إلا أن "حركة الشباب" في الصومال كانت منذ فترة طويلة تتميز بعضويتها التي تتجاوز حواجز الانتماء الوطني.

ففي فترة عزها، بين العامين ٢٠١١ و٢٠١٢، وكنتيجة لأشرطة الفيديو الدعائية لـ"حركة الشباب" والتي دعت فيها المقاتلين إلى "الهجرة" للالتحاق بها في الصومال، يقول مختصون في شؤون المنطقة إن حركة "الشباب" استقطبت أكثر من ٢٠٠٠ مجند أجنبي بينهم عدد كبير من الدول العربية ومن دول أفريقية أخرى وحتى من باكستان. كما أن بينهم أعداداً لا بأس بها من الغربيين بما في ذلك سامنثا ليثوايت أو "الأرملة البيضاء" (أرملة جيرماين ليندسي المشارك في الهجمات على وسائل النقل العام - باص وثلاث محطات لمترو الأنفاق - في لندن عام ٢٠٠٥).

وتنعكس نسبة المقاتلين الأجانب في "الشباب" من خلال تشكيلة مجلس شورى الحركة - من أصل ٨٥ عضواً هناك ٤٢ من غير الصوماليين. ومن بين هؤلاء محمد أبو فايد، وهو سعودي مسؤول عن الشؤون المالية، وأبو موسى مومباسا الباكستاني الأصل ويتولى قيادة جهاز الأمن في "الشباب".

ومن بين القادة العسكريين البارزين في "الشباب" مواطن أميركي يدعى عمر همامي أو "أبو منصور الأميركي" من ولاية ألاباما. وعمر من مواليد العام ١٩٨٤، أبوه سوري مسلم وأمه مسيحية معمدانية من الجنوب الأميركي. حقق عمر نتائج جيدة في دراسته وكان يأمل أن يصبح جراحاً، لكن الغزو الأميركي للعراق ألّبه ضد وطنه، وبدأ يستكشف الجذور الثقافية لوالده واعتنق الإسلام. سافر إلى كندا حيث تزوج صومالية - كندية وسافر معها - في عمر ٢٢ سنة - إلى الصومال. وأكدت شقيقته لصحيفة **نيويورك تايمز** أنها تلقّت رسائل منه عبر موقع "فايسبوك" تؤكد أنه في الصومال. لكن عمر اختلف لاحقاً مع قادة في حركة "الشباب" وتم اغتياله في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٣.

وهناك قرابة مليوني صومالي يعيشون في المهجر وقد جرت محاولات حثيثة لتجنيد أفراد منهم في "الشباب" سواء للقتال أو لتشكيل "خلايا نائمة" في الدول التي يقيمون فيها. وفي الولايات المتحدة هناك ١٠٠ ألف صومالي، وقد أشارت تقارير عديدة إلى محاولات تجنيد تحصل في صفوفهم خصوصاً في منطقة مينيابوليس - سانت بول (حيث تعيش أكبر جالية صومالية في الولايات المتحدة) وفي مينيسوتا حيث التحق ٢٠ شاباً بـ"الشباب" وانتقلوا إلى الصومال.

والمملكة المتحدة تستضيف، من جهتها، الجالية الصومالية الأكبر في أوروبا وفيها قرابة ٢٥٠ ألف صومالي يقيمون في شكل شرعي. ويقدّر مسؤولو الجالية الصومالية أن

أكثر من مئة رجل وامرأة عادوا إلى الصومال للالتحاق بـ"الشباب". وأشارت تقارير إلى نسب مماثلة تركت الجاليات الصومالية في السويد والدنمارك وأستراليا وكندا وألمانيا من أجل الالتحاق بـ"الشباب". وعلى رغم أن هذه الأرقام متدنية، إلا أنها مهمة خصوصاً وأنها تشير إلى مشكلة مستمرة ولم تنته بعد.

وتعتقد أجهزة الأمن أن هؤلاء المقاتلين الأجانب يمكن أن يشكّلوا خطراً عندما يعودون إلى بلدانهم في الغرب. ففي العام ٢٠١٢ قال مدير جهاز الأمن البريطاني (أم آي ٥) جوناثان إيفانز: "إنها مسألة وقت فقط قبل أن نرى إرهاباً في شوارعنا مُستلهماً من أولئك الذين يقاتلون اليوم إلى جانب الشباب".

وكان تنظيم "القاعدة" قد أرسل سابقاً عدداً من قادته البارزين إلى الصومال لتطوير تنظيم جماعة "الشباب"، بما في ذلك "أمير" منطقة القرن الأفريقي فضل عبد الله محمد الذي صار القائد العسكري في "الشباب"، قبل أن يُقتل في حزيران/ يونيو ٢٠١١. وهناك أيضاً عيسى عثمان عيسى المولود في كينيا وهو عضو مخضرم في "القاعدة" ويُتّهم بالمشاركة في مؤامرة تفجير سفارتي أميركا في شرق أفريقيا عام ١٩٩٨ في نيروبي ودار السلام. وهو موجود في الصومال للمساعدة في عمليات التجنيد. ومن القادة الآخرين السعودي محمد أبو فايد، مدير عمليات التدريب، والباكستاني أبو موسى مومباسا. ويتولى السوداني محمود المهاجر مسؤولية تجنيد "المفجّرين الانتحاريين" لمصلحة "الشباب".

وثمة تقارير عن العديد من المقاتلين الأجانب من أصل صومالي يقاتلون حالياً إلى جانب "الدولة الإسلامية" بعدما انتقلوا من القرن الأفريقي موقتاً نتيجة النجاح الذي تحققه عمليات القصف الأميركي بطائرات الدرون ضد معاقل "الشباب" في الصومال.

وتنتشر جماعات إسلامية راديكالية في العديد من أجزاء القارة الأفريقية، من مالي إلى موريتانيا، فيما تشكّل جماعة "بوكو حرام" في نيجيريا أكبر وأخطر الجماعات المتشددة التي تشبه "الدولة الإسلامية" في العراق والشام ببطشها وتطرفها. ولعل السيناريو الأخطر هو أن هذه الجماعات المختلفة في أفريقيا والمغرب العربي والإسلامي قد توحّد طاقاتها وتنضوي تحت لواء "الدولة الإسلامية". وكمؤشر إلى إمكان حصول هذا الأمر، أعلن زعيم "بوكو حرام" أبو بكر شيكاو، في آب/ أغسطس ٢٠١٤، أن جماعته باتت جزءاً من "الخلافة الإسلامية".

مكتب خاص بالجهاديين

شكّل الغزو الذي قاده الأميركيون للعراق عام ٢٠٠٣ فرصة مناسبة لإطلاق دعوة بصوتٍ

عالٍ من أجل مجيء جحافل الجهاديين الأجانب إلى الشرق الأوسط.

ومن الواضح أن الغرب لم يكن متحضراً لشدة المقاومة التي اندلعت في العراق في الوقت الذي كان الرئيس جورج دبليو بوش يعلن الانتصار على صدام حسين. كان تنظيم "القاعدة" سريعاً في استغلال الفرصة المتاحة من أجل "الجهاد" ضد المحتلين، وهكذا بدأ المقاتلون الأجانب في التدفق على جبهة القتال الجديدة. ولا شك أن قيادة "القاعدة" كانت تواقة لمقاتلة القوات الغربية على أراضي المسلمين، وفق الاستراتيجية الطويلة الأمد التي طوّرها أسامة بن لادن في أواخر التسعينيات. كما أن "الدولة الإسلامية" نفسها تحدّت الأميركيين أيضاً أن يتجرأوا على المجيء للقتال في سوريا والعراق. فردّاً على قرار الولايات المتحدة شنّ ضربات جوية ضدهم في آب/ أغسطس ٢٠١٤، أصدرت "الدولة الإسلامية" شريط فيديو على نسق أفلام هوليوود بعنوان "لهيب الحرب" تظهر فيه دبابات أميركية يتم تفجيرها على أيدي المقاومة العراقية، والرئيس أوباما وهو يشرف على انسحاب القوات الأميركية من العراق عام ٢٠١٠.

وتُسلّط الضوء على ظاهرة الجهاديين الأجانب وثائق "ملفات سنجار" التي سجّل فيها مجلس شورى المجاهدين تفاصيل عن المتطوعين الجدد الذي جاؤوا إلى العراق للالتحاق بـ"القاعدة" عام ٢٠٠٧. وتُظهر الوثائق حقيقة أن "الدولة الإسلامية في العراق" - التي نشأت لإصلاح الضرر الذي ألحقته بالمقاومة العراقية تجاوزات "تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين" بقيادة أبو مصعب الزرقاوي - كانت بالفعل جماعة عراقية إلى حدّ كبير إلا أن قيادتها كانت تضم شريحة كبيرة من غير العراقيين، كما أن عدد الجهاديين الأجانب في صفوفها كان مرتفعاً. فقد بلغ عدد هؤلاء بحسب "ملفات سنجار" ٥٩٥ شخصاً جاؤوا لقتال القوات المحتلة للعراق خلال فترة ثمانية أشهر فقط (عام ٢٠٠٧).

كما تكشف وثائق سنجار التي تحمل ختم مجلس شورى المجاهدين درجة مفاجئة من البيروقراطية لدى فرع "القاعدة" في العراق. فكل ملف من الملفات الـ ٥٩٥ يحمل صورة الشخص المتطوع و "معلومات شخصية" عنه تتضمن تسجيل اسمه، وكنيته، وعنوانه، ورقم هاتف قريبه (لإبلاغه في حال وفاته)، وتاريخ ميلاده، والمهمة التي يتوقع أن يقوم بها ضمن صفوف "القاعدة"، والأغراض ذات القيمة التي سيتركها في عهدة التنظيم، واسم الشخص الذي جنّده، ومن سهّل سفره إلى العراق.

وهذه الوثائق لافتة لأسباب عدة: فهي تكشف الموطن الذي جاء منه المتطوعون لـ"القاعدة"، أعمارهم، وطريقة دخولهم العراق. وبحسب ما تبيّن هذه الوثائق، فقد جاء ٤١ في المئة من المتطوعين (٢٤٤) من المملكة العربية السعودية، و(١١٢) من ليبيا. وكانت أعداد الذين جاؤوا من سوريا (٤٩) واليمن (٤٨) والجزائر (٤٣) مرتفعة أيضاً.

قبل اكتشاف سجلات سنجار لم يكن معروفاً أن الليبيين يشاركون بهذه الأعداد الكبيرة في التمرد العراقي، وفي الواقع فإن نسبتهم مقارنةً بعدد سكان ليبيا هي الأعلى مقارنةً ببقية مجموعات الجهاديين الأجانب في العراق - بلغت نسبة الليبيين ١٧ في المليون بينما بلغت نسبة السعوديين ٨ في المليون. وبلغ وصول الجهاديين الليبيين إلى العراق ذروته بين أيار/ مايو وتموز/ يوليو ٢٠٠٧، ما يعكس ربما التقارب المتنامي الذي كان يحصل آنذاك بين "القاعدة" وتنظيم "الجماعة الإسلامية المقاتلة" والذي توّج بانضمام جزء من "المقاتلة" إلى فرع "القاعدة ببلاد المغرب الاسلامي" في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٧.

وكما رأينا، يشكّل الليبيون إحدى مجموعات الجهاديين الأجانب الكبرى في "الدولة الإسلامية". ويُذكر، في هذا الإطار، أن مهدي الحاراتي الليبي - الإيرلندي الذي كان نائباً لعبد الحكيم بلحاج (الأمير السابق لـ"الجماعة المقاتلة") عندما كان قائد "المجلس العسكري" لثوار طرابلس، كان من أوائل الليبيين الذين انتقلوا لـ"الجهاد" في سوريا في حزيران/ يونيو ٢٠١٢، بعد شهور قليلة من انتصار الثوار الليبيين في حربهم ضد القذافي.

وعلى رغم أن القيادة العامة لـ"القاعدة"، وحتى حركة "طالبان"، تخسران بلا شك حرب التجنيد لمصلحة "الدولة الإسلامية" الأكثر نجاحاً منهما، إلا أن إقليم القبائل في باكستان كان قد أصبح بمثابة مغنطيس أو عنصر جذب للجهاديين الأجانب قبل مقتل أسامة بن لادن، مواصلاً الموضة الرائجة التي تجذرت في العراق والمتمثلة بهجرة المقاتلين الأجانب إلى ساحات المعارك الخارجية. وكانت الوجهة الأساسية التي التحق بها هؤلاء "المهاجرون" في منطقة القبائل هي "القاعدة" أو "طالبان" بنسختيها الأفغانية أو الباكستانية.

وفي هذا الإطار انتقل آلاف المقاتلين الأجانب من معظم الدول العربية وشمال أفريقيا وأوزبكستان والشيشان وغرب الصين وحتى من أوروبا وأميركا إلى منطقة القبائل الباكستانية، حيث تحركوا على جانبي الحدود الأفغانية - الباكستانية. وبحلول العام ٢٠٠٨ أشارت تقارير إلى أن هناك في منطقة القبائل ٤٠٠٠ مقاتل من مواليد بريطانيا ومئات الأتراك، في ظاهرة غير مسبوقة.

في أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٩ أوردت التلغراف تقريراً أشار إلى "قرية ألمانية" بكاملها تعيش وسط مقاتلي حركة "طالبان" الباكستانية في وزيرستان. وفي "وصية وشهادة" الانتحاري همام خليل البلوي (الذي نفذ التفجير المشترك لـ"القاعدة" و"طالبان" الأفغانية والباكستانية ضد معسكر تشابمان لوكالة الـ "سي آي إيه" في خوست)، تحدث هذا الجهادي الأردني عن "المهاجرين الذين يستضيفهم بيت الله محسود" زعيم "طالبان" الباكستانية، مؤكداً بذلك أن هذه الجماعة ترحب بجهاديين أجانب ضمن صفوفها. فعلى عكس كثير من الجماعات الجهادية التي تركّز إلى حد كبير على الساحة المحلية (مثل "طالبان" الأفغانية)،

فإن "طالبان" الباكستانية دأبت منذ سنوات على تصدير مقاتلين لشنّ هجمات في الخارج، وقد أعلنت مسؤوليتها بالفعل عن التفجير الفاشل بسيارة مفخخة في ساحة "تايمز سكوير" في نيويورك في أيار/ مايو ٢٠٠٩ وقالت إنها درّبت محمد مراح الفرنسي الذي أطلق النار وقتل سبعة أشخاص على مدى أيام في تولوز بجنوب فرنسا.

وفي تموز/ يوليو ٢٠١٣ أعلنت حركة "طالبان" الباكستانية أنها أرسلت مقاتلين أجانب إلى سوريا، وقال قائد بارز في صفوفها لوكالة رويترز: "عندما احتاج إخوتنا إلى مساعدة أرسلنا (لهم) مئات المقاتلين بالاشتراك مع أصدقائنا العرب".

لماذا تجذب "الدولة الإسلامية" هذه الأعداد من المقاتلين الأجانب؟

إضافةً إلى المقاتلين الذين ترسلهم جماعات تحمل فكراً مماثلاً لفكر "الدولة الإسلامية" كان هناك دفق ثابت للأشخاص الذين يتركون بلدانهم - قرابة ٨٠ دولة - للذهاب إلى سوريا، وغالباً عبر حدودها الطويلة مع تركيا. وتوحي الأدلة الظاهرية بأن غالبية هؤلاء المتطوعين الجدد الآتين من الخارج - لا سيما في الفترة التي تلت بدء الولايات المتحدة حملتها الجوية ضد "الدولة الإسلامية" في سوريا والعراق في صيف ٢٠١٤ - تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٢٠ سنة وليست لديهم خبرة سابقة في ساحات القتال. ولعل المفاجئ هنا أن المجنّدين الآتين من الخارج يتضمنون عدداً كبيراً من الشابات - وكثير منهن نشأ في دول الغرب - اللواتي يسافرن إلى سوريا للزواج من مقاتلين جهاديين وإنجاب أطفال يشكلون الجيل الجديد في "الدولة الإسلامية".

وتتولى "الدولة الإسلامية" تدريب بعض النساء على القتال، في ظل تزايد ظاهرة استخدام أعداد منهن كـ "قنابل بشرية" (وهو أسلوب أطلقه أبو مصعب الزرقاوي خلال سنوات المقاومة العراقية). كما أن "الدولة الإسلامية في العراق والشام"، التي سبقت إعلان قيام "الدولة الإسلامية"، أسست كتيبتين خاصتين بالنساء عام ٢٠١٣ أطلقت عليهما اسم "الخنساء" و "أم ريان". وتنتشر الكتيبة الأولى (الخنساء) بوصفها شرطة نسائية تتولى ضمان ارتداء النساء الحجاب الشرعي في الأماكن العامة.

وقد ازدادت نسبة التجنيد لمصلحة "الدولة الإسلامية" ما إن بدأت الطائرات الأميركية تُسقط أولى قنابلها على العراق. ومثلها مثل كل الجماعات الجهادية تملك "الدولة الإسلامية" حضوراً واسعاً وقوياً عبر شبكة الانترنت، كما أن لها حضوراً مماثلاً على صفحات مواقع التواصل الاجتماعي. وتنشر "الدولة الإسلامية" على موقع "يوتيوب" أشرطة إنشادية حماسية بهدف جذب المناصرين، كما أنها تنشر وقائع المعارك وتقدم "المجاهدين" على

الجبهات لحظة بلحظة على حسابات تابعة لها على موقع "تويتر".

لكن "الدولة الإسلامية" لم تقصر نشر ترويجها لفكرها على شبكة الانترنت فقط. فعلى عكس جماعات أخرى تُقارن بها، مثل "القاعدة"، نزل ناشطو "الدولة الإسلامية" إلى الشوارع عارضين أفكارهم، في مؤشر إلى ثقتهم الفائقة بأنفسهم. وقد فوجئ متسوقون في شارع أكسفورد اللندني الشهير في آب/ أغسطس ٢٠١٤ برؤية شبان ملتحين، طويلي الشعر ويرتدون الزي الأسود، وهم يوزعون "جوازات سفر" لـ"الدولة الإسلامية" ويعلنون "بشرى سارة" أن دولة "الخلافة" قد قامت. وقد تضمّنت ورقة "جواز السفر" - التي بعث بها أحدهم إلى غرفة أخبارنا في ١٢ آب/ أغسطس - سبعة "أوامر" على كل المسلمين في بريطانيا أن يلتزموا بها: ١- إعلان البيعة للخليفة (أبو بكر البغدادي أو "الخليفة إبراهيم")، ٢- طاعة الخليفة وفق ما تحدده تعاليم الشريعة، ٣- نصح الخليفة إذا ما قام بتصرف خاطئ، ٤- الدعاء لله أن يساعد الخليفة ويرشده السبيل الحسن، ٥- الهجرة - أولئك الذين يستطيعون الهجرة عليهم أن يهاجروا، ٦- تثقيف المسلمين وغير المسلمين عن الخلافة، ٧- التصدي لأي أخبار كاذبة أو ملفقة تستهدف "الدولة الإسلامية".

ولم يقتصر هذا الترويج لـ"الدولة الإسلامية" على العاصمة البريطانية، بل امتد إلى مناطق كثيرة حول العالم. فقد شوهدت جماعات من الناشطين في شوارع مدينة بيشاور الباكستانية يوزعون منشورات مؤيدة لـ"الدولة الإسلامية". كما بات علم هذا التنظيم (الذي كان أيضاً علم "الدولة الإسلامية في العراق والشام" من قبل) مشهداً مألوفاً خلال المسيرات والتظاهرات في العديد من دول العالم الإسلامي. وفي تموز/ يوليو ٢٠١٤ شاهدت بنفسي، خلال مسيرة في لندن للتنديد بالهجمات الإسرائيلية الأخيرة على قطاع غزة، مجموعات من الشبان يسيرون تحت راية "الدولة الإسلامية". كما شاهد زملاء صحافيون في باريس أعلاماً عدة لـ"الدولة الإسلامية" رُفعت خلال احتجاجات مماثلة جرت في العاصمة الفرنسية.

وقد بات رفع شعار "الدولة الإسلامية" ورايتها محوراً للحشد السياسي والاجتماعي - الثقافي، أكثر مما هو علامة تُعبّر عن موقف ديني.

والحقيقة أن الأيديولوجيا المتشددة والعنف المفرط والصدامي الذي تقوم عليه "الدولة الإسلامية" إنما هو واقع مطبّق منذ عقود، كما باتت المفردات التي يستخدمها هذا التنظيم، ربما، بمثابة شيء "عادي" في العالم الإسلامي، وحتى في الدول الغربية نفسها.

ولعل ما يساعد في تقوية الأفكار التي تروّج لها "الدولة الإسلامية" أن أوضاع كثير من دول العالم الإسلامي لم تتحسّن في أعقاب "الربيع العربي". فقد شاهد الشبان المسلمون بأم العين فشل "الربيع"، وكيف تمّت، مثلاً، إضاعة الثقة بالمشروع الديموقراطي على أيدي العسكريين الانقلابيين الذين أطاحوا الرئيس الإسلامي المنتخب شرعياً محمد مرسي، وكيف

أن الثورة العلمانية لم تنتج سوى الفوضى واستمرار الفساد وغياب العدل. وبما أن نظريات المؤامرة والشعارات المعادية للغرب تزدهر في ظل أجواء الخيبة والمرارة، فإننا نرى شعارات رفض الغرب والديموقراطية والليبرالية والعلمانية كلها ماثلة في مفردات المتشددين.

وقد أنتج العنف المتشدد ثقافة شبابية صغيرة لكنها مهمة في العالم العربي، وحتى في الغرب. ففي الغرب تحديداً حيث يعاني الشبان المسلمون من التهميش والتحيّز ضدهم، خصوصاً في مجتمعات المدن الكبرى، فإن التمتع بشهادة أن الشاب "جهادي" يكاد يكون مماثلاً لما كان يشعر به أفراد العصابات عندما يحصلون على شهادة العضوية في عصابة ما. لكن بالنسبة إلى الجهاديين، الشعور بالانتماء إلى مجتمع من الإخوة المتضامين، لديهم نفس المعتقدات والأهداف، والشهرة ذاتها، وأنهم مجموعة أصدقاء جاهزين "لخوض المعركة" ... كلها عوامل تساعد في تصحيح التوازن المختل لدى هؤلاء الشبان في عالمهم الغربي.

وفي عالم تسيطر عليه ألعاب الفيديو، وشاشات السينما، وأجهزة التواصل الاجتماعي، لم يعد كافياً القبول بالعادي فقط. ويترافق هذا البحث عن الأشياء غير العادية مع شعور بملء الفراغ الروحي، حيث يمتطي الجهاديون أحصنة أو دبابات، يلوحون برشاشات الكلاشنيكوف، ويصلون خمس مرات في اليوم. وإذا ما تم النظر إلى أناشيدهم الدينية التي تروّج للجهاد، وشعورهم الطويلة، ومظاهرهم المثيرة، ورغبتهم في الموت من أجل قضيتهم، وشجاعتهم في المعارك، والأهم من ذلك كله نجاحات مقاتلي "الدولة الإسلامية" على الأرض، فإن ليس من الصعب فهم جاذبية الجماعات الجهادية للناس الذين ليست لديهم تجارب سابقة. كما أننا لسنا بحاجة إلى قفزة خيالية حتى نفهم كيف تتساوى جاذبية الجهاديين (في نظر الشبان المسلمين) مع جاذبية الأبطال السياسيين المتميزين من الماضي (مثل تشي غيفارا) أو حتى نجوم أغاني البوب أو أبطال لعبة كرة القدم.

لكن هنا أيضاً توجد قضية عادلة. فبالنسبة إلى كثيرين، تُعتبر "الدولة الإسلامية" هي الأكثر جاذبية من بين الجماعات المتصارعة من أجل السلطة في سوريا لأنها لا تحارب الأسد فقط (الذي يذبح ويرهب مواطنيه منذ انطلاق الثورة العام ٢٠١١) بل أيضاً الغرب. وإضافةً إلى ذلك، هناك الإطار المذهبي الذي بنته "القاعدة" على مدى عقد من الزمن تقريباً. ففي هذا الإطار يُلقى على الشيعة في العراق اللوم نتيجة المحن التي يعانيها السنّة. وقد اكتشف الأميركيون، متأخرين كما يبدو، أن حكومة رئيس الوزراء الشيعي السابق نوري المالكي، بسياساتها التي تحصر السلطة في يدها وحدها وتقصي الآخرين، إنما تقوم بإثارة عش الدبابير السنّي المسلّح، ولذلك أيّدت إزاحته من السلطة وأصرت على حكومة وحدة تمثل كل مكونات الشعب العراقي في مسعى منها لإطفاء شعلة الحرب الأهلية المذهبية. لكن

النار كانت قد اشتعلت بالفعل في هذه الشعلة، ولم ينجح السياسيون العراقيون في تقديم المصلحة العامة على مصالحهم الذاتية.

وفي ظل وجود الكثير من خيبات الأمل والإخفاقات في العالم العربي، فإن الجهاديين يمكن النظر إليهم بوصفهم "يقومون بشيء ما" لمعالجة مكامن الخلل في مجتمعاتهم. وعلى رغم أن هذا مفهوم سياسي، بالطبع، إلا أن نظرة المتشددين للعالم تعني أنه يتضمن أيضاً التخلص من الفساد والانحطاط والفسوق والمادية، وبالطبع العودة إلى الدين "الحقيقي"، أي التفسير السلفي للإسلام.

وبالإضافة إلى تأثيرها القوي، من خلال الحضور الذي تحافظ عليه على شبكة الانترنت، تعمل "الدولة الإسلامية" أيضاً على التجنيد ونشر الأفكار الراديكالية من خلال المساجد وعلى هامش المناسبات الاجتماعية وكذلك من خلال الجماعات التي تمثّل الجاليات المسلمة.

وفي حين تحاول معظم الحكومات إسكات الأئمة الجهاديين، فإن شخصيات مشهورة تمكنت، على رغم ذلك، من حض المسلمين على اللحاق بـ"الجهاد" في سوريا. من بين هؤلاء الخطيب التلفزيوني الناري الشيخ القرضاوي الذي حضّ تكراراً "المجاهدين" على الهجرة إلى سوريا منذ بدء الثورة فيها. وفي بريطانيا قال الإمام أنجم تشاودري في نقاش تلفزيوني إن المسلمين البريطانيين الذين يسافرون إلى سوريا والعراق هم مثل اليهود البريطانيين الذين يسافرون للقتال إلى جانب دولة إسرائيل. كما صدرت مناصرات لـ"الجهاد السوري" من شخصيات عديدة في العالم العربي، مثل الإمام اللبناني مازن المحمد والإمام الموريتاني أبو المنذر الشنقيطي، وحتى الرئيس المصري المنتخب محمد مرسي. وبالنسبة إلى الشبان المسلمين، فإن صدور مثل هذا الحضّ عن شخصيات محترمة، سواء كانت دينية أو مدنية تتولى مناصب في السلطة، يعطي دفعاً قوياً يعزز ميلهم إلى "الهجرة".

وأدّت الفوضى التي عمّت سوريا والعراق، وما نتج عنها من فراغ أمني، إلى تسهيل السفر إلى ساحات الحرب في هذين البلدين. إذ بات يكفي شراء تذكرة سفر بطائرة أو رحلة بباص إلى تركيا كمحطة أولى، للوصول إلى ساحة القتال، علماً أنه إلى وقت قريب كانت تركيا تسهّل، كما يُزعم، انتقال المقاتلين الأجانب عبر حدودها المترامية مع سوريا. وفي كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٣ تحدث مراسل لتلفزيون "بي بي سي نيوز" إلى شخص يدير "بيتاً آمناً" في الريحانية على حدود تركيا مع سوريا، حيث أكد هذا الرجل أن هناك مئات من هذه البيوت الآمنة على طول الحدود حيث يمكث فيها المقاتلون لليلة أو ليلتين قبل دخولهم إلى سوريا أو قبل ركوبهم رحلة بطائرة عائدين إلى بلدانهم. وبحسب ضيف المقابلة، فقد نزل

١٥٠ مقاتلاً في بيته خلال الشهور الثلاثة فقط التي سبقت إجراء المقابلة، وكان من بينهم ٢٠ بريطانياً. ويتوافق هذا الكلام مع أدلة تتردد عن أن هناك شبكة من البيوت الآمنة على جانبي الحدود يؤوي فيها المجنّدون الجهاديون الجدد الذين يتم استقطابهم. ولا شك أن تركيا صعّبت هذا الوضع اليوم، لكن من الواضح من كثافة أعداد القادمين إلى سوريا والعراق أن وصولهم ليس مستحيلاً. وبالطبع دخل أجانب آخرون إلى سوريا عبر الأردن ولبنان، وليس فقط عبر تركيا.

ومنذ إعلان الخلافة في حزيران/ يونيو ٢٠١٤، اعتقد مثاليون ومتشددون أن هذه حقاً بداية عملية تأسيس دولة إسلامية وأرادوا أن ينخرطوا فيها. وفي كثير من الحالات يترك الشبان عالم البطالة عن العمل، والملل، وعدم المساواة، وانعدام الفرص. أما في العالم النامي فيمكن إضافة غياب القانون والقمع إلى وصفة السخط هذه.

وبالنسبة إلى ما يقارب من ٢٥ ألف جهادي جاؤوا من دول الغرب، لا يجب أن يغيب عن بالنا عامل تنامي اليمين المتطرف في أوروبا كحافز لهجرة الشبان المسلمين إلى دولة "الخلافة". ففي المملكة المتحدة وفرنسا واليونان حصلت أحزاب من الفاشيين الجدد على عدد كبير من المقاعد في انتخابات البرلمان الأوروبي عام ٢٠١٤. وتروّج هذه الأحزاب لنزعة عنصرية تجاه المسلمين في أوروبا والذين يقدّر عددهم بنحو ١٠ ملايين، كما يُسجّل تنام في هجمات الإسلاموفوبيا ضد المساجد ومراكز الجاليات المسلمة والمؤسسات الإسلامية وحتى المسلمين أنفسهم. وفي المقابل، ارتفع التطرف لدى المسلمين في الغرب أضعافاً مضاعفة.

وربما ما هو أكثر أهميةً أن "الدولة الإسلامية" ممولة في شكل جيد وقادرة على أن تدفع رواتب لجنودها – وقد سمعت من مصادر بالغة الإطلاع أن الراتب المعتاد للجندي في "الدولة" يبلغ ٦٠٠ دولار، في حين أن المقاتلين المتمرسين وأصحاب "الاختصاصات" (مثل الضباط السابقين في جيش صدام حسين) يحصلون على رواتب أعلى. وإضافةً إلى ذلك فإن لـ"الدولة الإسلامية" هيكلاً أمنياً وسيطرة على مساحات شاسعة من الأراضي تضم مئات المدن والبلدات والقرى. وكل ذلك يجعل في الإمكان بناء حياة عائلية للأفراد الذي يلتحقون بـ"الدولة الإسلامية" ويريدون أن يعيشوا في كنفها.

وتفيد تقارير أن كثيراً من المقاتلين الآتين من الخارج يجلبون معهم أطفالهم، وأحياناً بدون زوجاتهم غير المتحمسات لـ"الخلافة". وفي هذا الإطار سُجّل أن مواطناً فرنسياً أخذ معه طفلته البالغة ثلاث سنوات في آب/ أغسطس ٢٠١٤، في حين تم توقيف آخر في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٤ خلال انتقاله عبر المغرب مع ابنتيه البالغتين سنتين و٤ سنوات وهم في طريقهم للالتحاق بـ"الدولة الإسلامية". وربما يدخل في هذا الإطار

سعي "الدولة الإسلامية" إلى تجنيد فتيات وشابات من أجل الاعتناء بالأطفال الذين يأتون بدون أمهاتهم.

وأخيراً هناك ظاهرة ما يُعرف بـ"زوجات الجهاديين" التي انشغلت بها وسائل الإعلام الغربية في الشهور الماضية وتناولت فيها قصصاً عن شابات مراهقات تركن دول الغرب من أجل الالتحاق بـ"الخلافة" والزواج من جهاديين.

الفصل الثامن

الدولة الإسلامية ضد القاعدة... الأخوة الأعداء

أثار إعلان أبو بكر البغدادي قيام "الدولة الإسلامية" وتنصيب نفسه خليفة لهذه الدولة وأميراً للمؤمنين ضجةً كبرى في العالم الإسلامي ومنطقة الشرق الأوسط خاصة، لما لهذا الإعلان المفاجئ من جوانب وتفسيرات عقائدية ودينية وتبعات سياسية في الوقت نفسه، لأن هذه "الدولة الإسلامية" تقام على بقعة جغرافية وسط عاصمتي أهم إمبراطوريتين إسلاميتين هما الإمبراطورية الأموية في دمشق والعباسية في بغداد، فجناحا "الدولة الإسلامية"، أي محافظات الوسط والشمال والغرب في العراق (نينوى، صلاح الدين، الأنبار) وشرق سورية وبعض أطرافها الشمالية الغربية (الرقة، دير الزور ومناطق في حلب وجوارها) جاءت لأول مرة ومنذ مئة عام لتزيل الحدود بينهما كما كان عليه الحال قبل عدة قرون، وتحقيقاً عملياً لما فشلت فيه الحركات القومية والعلمانية مثل حزب البعث الذي أقام سلطتين في كل من سورية والعراق تحولتا إلى سلطتين متعاديتين رغم الإيديولوجية التوحيدية الواحدة.

وينسى الكثيرون في ظل الجدل الكبير الدائر حالياً فقهياً وسياسياً واجتماعياً حول "مفاجأة" إعلان الدولة هذه أن الملا عمر أقام إمارة إسلامية في أفغانستان عام ١٩٩٦ حملت اسم إمارة طالبان ونصب نفسه أميراً للمؤمنين، وقدم له الشيخ أسامة بن لادن زعيم تنظيم "قاعدة الجهاد" البيعة، واعترفت بإمارته ثلاث دول هي المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة وباكستان، ولكن ظل نفوذ هذه الإمارة محدوداً داخل حدود أفغانستان، ولم يؤخذ بالجدية المتوقعة في أوساط العلماء المسلمين وخاصةً في منطقة الشرق الأوسط، لأن أفغانستان تظل دولة هامشية في نظر الكثير من هؤلاء العلماء، ولأن

هذه الدولة أو الإمارة ارتبطت بتنظيم "القاعدة" الذي يوصف بـ"الإرهاب" من قبل خصومه والأنظمة الرسمية العربية، علاوةً على أميركا والدول الأوروبية، وربما أيضاً لأن عمر إمارة طالبان لم يزد عن خمس سنوات (١٩٩٦-٢٠٠١)، وجرى تدميرها وتشتيت حكومتها أثناء الغزو الأميركي لأفغانستان بعد هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠١.

أردنا الإشارة إلى إمارة طالبان هنا ليس بهدف المقارنة فقط وإنما لإبراز الفارق الكبير بين الاهتمام العالمي والإقليمي بين الأولى والثانية لصالح "الدولة الإسلامية" مع أن هناك العديد من القواسم المشتركة وأبرزها تشكيل تحالف دولي لمحاربتهما والعمل على القضاء على وجودهما وخطرهما.

في عام ٢٠٠٠ قدم الشيخ أسامة بن لادن "البيعة" أو "الولاء" للملا محمد عمر كأمير للمؤمنين، قابلاً بمرجعيته وسلطته ومعه كل أتباعه عناصر تنظيم "القاعدة"، ومعلناً أنه سيكون جندياً في جيش الملا عمر. واتصل ذراعه العسكري الأيمن أبو حفص المصري في شهر نيسان/ أبريل عام ٢٠٠١ طالباً مني أن أتوجه الى أفغانستان للقاء الشيخ أسامة بن لادن، والأهم من ذلك إجراء مقابلة مع الملا عمر لأن تنظيم "القاعدة" يريد تقديمه إعلامياً بطريقة حديثة وعلمية إلى العالم بأسره كأمير للمؤمنين، وحصلتُ فعلاً على تأشيرة دخول من السفارة الباكستانية في لندن، ولكنني تراجعت عن الذهاب إلى أفغانستان لإدراكي مدى خطورة هذه الرحلة على حياتي، واحتمال أن أكون مراقباً من قبل أجهزة المخابرات الأميركية والبريطانية بحكم التنسيق الأمني بينها وبين نظيراتها الباكستانية التي قد ترصد تحركاتي في أفغانستان، وتصل إلى الشيخ بن لادن وتقوم باغتياله وأنا معه.

كان لافتاً أن ردّ الدكتور أيمن الظواهري، زعيم تنظيم القاعدة، الحالي على إعلان أبو بكر البغدادي دولته الإسلامية وتوليه أمر خلافتها، تأكيد تقديمه البيعة للملا عمر كأمير للمؤمنين في تموز/ يوليو عام ٢٠١٤، وبعد ذلك ببضعة أسابيع. والأهم من ذلك أن تنظيم "القاعدة" أصدر رسالة إخبارية على "الانترنت" تحمل اسم "النفير" وخصصت العدد الأول منها لتجديد البيعة لـ"أمير المؤمنين المجاهد الملا محمد عمر حفظه الله" والتأكيد في الوقت نفسه على أن تنظيم "القاعدة" وجميع فروعه جنود وسط جنوده، ولذلك من المتوقع أن تحتدم المنافسة بين أمير المؤمنين في أفغانستان والخليفة أبو بكر البغدادي. فانسحاب القوات الأميركية من العراق مع نهاية عام ٢٠١١ وما تبعه من فوضى أدى الى تمهيد الطريق لقيام الدولة الإسلامية في العراق، واكتمال الانسحاب الأميركي من أفغانستان بنهاية عام ٢٠١٦ سيمهّد حتماً لعودة الإمارة الإسلامية في أفغانستان بقيادة الملا عمر. فالرئيس باراك أوباما أكّد أن تطورات الأوضاع في العراق لن تؤثر مطلقاً على خططه للانسحاب من أفغانستان. ومن المفارقة أن صيف عام ٢٠١٤ شهد تصعيداً في الأعمال العسكرية لحركة

طالبان ضد الاحتلال الأميركي لأفغانستان، وحققت الحركة تقدماً كبيراً في مدينة قندهار والمناطق المحيطة بالعاصمة كابول.

الملا محمد عمر بدأ التخطيط فعلاً لإعادة ترسيخ إمارته في أفغانستان فعلاً وإضفاء طابع "إسلامي أممي" عليها، وهذا توجه جديد انعكس في توجيهه خطاباً إلى "الأمة" والعالم الإسلامي في تموز/ يوليو عام ٢٠١٤ طالب فيه بالتحرك بفاعلية ضد إسرائيل وحماية الفلسطينيين من هجومها على قطاع غزة، مما يعطي رسالة بأن اهتماماته لم تعد محصورة داخل الحدود الأفغانية مثلما كان عليه الحال طوال السنوات العشرين الماضية تقريباً.

إذا استمرت الخلافات بين أنصار الإمارة وأنصار الخلافة والجدل الفكري والفقهي بين العلماء في الجانبين حول أيهما يتمتع بـ"الشرعية" وتتمثل فيه الشروط المطلوبة، فإن هذه الخلافات قد تؤدي إلى إضعافهما وربما انهيارهما في نهاية المطاف. أما إذا جرى تجاوز هذه الخلافات وإيجاد حلول لهما، واندماجهما تحت مظلة واحدة، وأمير أو خليفة واحد، سواء بالتوافق أو بالدمج القسري (بالقوة)، فإنه سيترتب على ذلك قيام قوة إسلامية عظمى تسيطر على كل أو معظم منطقة الشرق الأوسط لعقود قادمة.

آدم يحيى غدّان أحد أبرز المنظرين والمتحدثين باسم تنظيم "القاعدة" والأميركي المولد لخّص أهداف "الجهاد الأممي" بقوله: "هذه حرب لا تعرف ولا تعترف بالحدود الدولية ولا بميدان واحد للمعركة". ومن المؤكد أن "الدولة الإسلامية" نجحت في إزالة أحد الحدود الدولية (بين سورية والعراق)، وتتطلع لإزالة حدود أخرى.

عامل الزرقاوي

المعركة الايديولوجية المندلعة بين حرس القاعدة القديم بقيادة أيمن الظواهري والدولة الإسلامية ومنظريها لا تقل أهميةً عن نظيرتها العسكرية (الصِدام بين جبهة النصرة التي تمثل القاعدة والدولة الإسلامية في ميادين القتال في مناطق سورية عديدة) حيث يحاول كل معسكر توسيع دائرة نفوذه وأنصاره.

يمكن العودة بجذور الصراع الايديولوجي إلى أفغانستان، وعام ٢٠٠٠ على وجه التحديد، عندما ظهر على السطح بقوة شاب أردني من مدينة الزرقاء، وينتمي إلى قبيلة بن حسن أحد أكبر القبائل الأردنية، إن لم تكن أكبرها، اسمه أبو مصعب الزرقاوي (أحمد فاضل نزال الخلايلة) المولود في ٣٠ تشرين أول/ أكتوبر عام ١٩٦٦ (اغتيل في ٧ يونيو/ حزيران ٢٠٠٦). وجاء هذا الظهور لافتاً بسبب تطرفه ودمويته واختلافه عن محيطة الذي كان يسيطر عليه أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة المدعوم من حركة طالبان.

الزرقاوي قضى عقداً في السجون قبل انتقاله إلى أفغانستان بسبب أنشطته الإسلامية المتشددة متأثراً بمعلمه وأستاذه وقدوته الشيخ أبو محمد المقدسي الذي تعرف عليه في المعتقل، وتتلمذ على يديه، حيث يعتبر المقدسي من أكبر منظري المدرسة الجهادية الأصولية في الشرق الأوسط.

السلطات الأردنية ارتكبت خطأ استراتيجياً عندما وضعت كل المعتقلين الإسلاميين المتشددين في سجن واحد، وكانت أولى "ثمرات" هذا الخطأ التقارب الكبير بين هؤلاء وتحويل لقاءاتهم إلى اجتماعات تنظيمية ايديولوجية، لعب الشيخ المقدسي دوراً كبيراً في معظم الأحيان في تأطيرها فكرياً وايديولوجياً بمحاضراته ودروسه الدينية، وتكوينه وتلميذه الزرقاوي وآخرون أول "إمارة إسلامية" داخل السجن.

الشيخ المقدسي شخص هادئ في حديثه، يتحلى بأدب جمّ، تماماً مثل الشيخ أسامة بن لادن، وعندما جرى الطلب من الإسلامين المعتقلين اختيار أمير لهم في السجن اختاروا أبو مصعب الزرقاوي مقدمينه على أستاذه المقدسي، ربما لأنه قوي الشكيمة، مندفع، يفضل أسلوب مواجهة السلطة، وعاطفيته الجياشة، وصموده الأسطوري تحت التعذيب، وبنيانه الجسماني القوي حيث استخدم الصخور الثقيلة يومياً لبناء عضلات جسمه.

الزرقاوي توجه إلى أفغانستان فور الإفراج عنه بعفو ملكي حيث التحق بمعسكر "القاعدة" في قندهار الذي يعتبر الأكثر تجهيزاً في المجالات العسكرية والتدريبية وإيواء الوافدين والمقيمين معاً، وفاجأ هذا القادم الجديد لاحقاً برفضه تقديم البيعة للأمير أسامة بن لادن، وأعلن أنه بصدد تأسيس معسكر تدريب خاص به في مدينة حيرات بعيداً عن أكبر معسكرين لـ"القاعدة" في جلال آباد وقندهار.

الخلافات العقائدية، إلى جانب الخلافات الشخصية، كانت واضحة بينه وبين قيادة القاعدة المتمثلة في بن لادن ونائبه الظواهري حيث ينتمي الطرفان إلى مدرستين عقائديتين مختلفين، فبينما ينتمي الشيخان بن لادن والظواهري إلى المدرسة التي تقول إن مشاكل العالم الإسلامي يمكن حلها بوقف التدخل الغربي في شؤونها وإزالة الأنظمة العربية الفاسدة والكافرة، يرى أبو مصعب الزرقاوي وأتباعه أن الأمة الإسلامية لا يمكن أن تسترد عظمتها إلا بتطهير نفسها وصفوفها من المنافقين والكفار والعلمانيين و"المعتدلين" السنّة وأبناء الطوائف الأخرى مثل الشيعة والعلويين والإسماعيليين والدروز والمسيحيين وغيرهم، وأي هجوم على هؤلاء جميعاً وتصفيتهم يعتبر عملاً مشروعاً.

نقطة خلافية ظهرت على السطح لاحقاً، تعكس حجم الخلافات أيضاً، وأظهرت تصادماً في الرؤى بين الزرقاوي وأميره أسامة بن لادن تتمحور حول هجمات الحادي عشر من سبتمبر التي استهدفت وزارة الدفاع الأميركية (البنتاغون) ومركز التجارة العالمي

في نيويورك. الزرقاوي عارض هذه الهجمات بشدة، ليس من منطلق التعاطف مع الضحايا الأميركيين، ولكنه كان يريد أن يركّز على مسألة تطهير صفوف المسلمين من الكفار والمنافقين وأبناء طوائف أخرى لا يعتبرهم مسلمين، والحفاظ على القواعد العسكرية لـ"القاعدة" في أفغانستان، وجاء هذا الموقف من منطلق فهمه، وقناعته، بأن الرد الأميركي على هذه الهجمات سيكون مدمّراً، ولهذا فرّ إلى إيران بعد الهجمات مباشرةً عبر باكستان مع مجموعة من أقرب المقربين والموالين له.

في كتابي الأخير، **ما بعد بن لادن: القاعدة، الجيل التالي**، حذرتُ من أن هذا الجيل القادم سيكون أكثر تطرفاً وأكثر عنفاً من الجيل الذي سبقه، ولهذا لم يكن مستغرباً أن تؤكد أدبيات "الدولة الإسلامية" ومعها كبار قادتها، بما في ذلك الخليفة أبو بكر البغدادي، "أن الشيخ أبو مصعب الزرقاوي هو أميرها الأول". وكان لافتاً أن الجيل القديم المؤسس للقاعدة لم يوافق في معظمه على قيام "الدولة الإسلامية".

السلطات الإيرانية لم تشعر بالارتياح لوجود الزرقاوي على أراضيها، كما أنه في الوقت نفسه لم يرد أن يجعل من إيران مقراً له ويقبل بشروط مضيفيه الصعبة في عدم الإقدام على أي عمل سياسي أو عسكري طالما بقي على الأرض الإيرانية، ولهذا قرر الرحيل إلى شمال العراق. وهناك روايتان في هذا الصدد، الأولى للملا كريكار تقول إن السلطات الإيرانية هي التي أبعدته، بينما تقول الثانية إنه قرر المغادرة بنفسه لأنه يريد مواصلة العمل العسكري وفتح فرع لتنظيمه هناك، ونرجّح الرواية الثانية التي سمعناها من أحد المقربين منه.

أبو مصعب الزرقاوي دخل شمال العراق مثلما أسلفنا سابقاً عام ٢٠٠٢، أي قبيل الغزو الأميركي بما يقرب من العام، ووجد الملاذ الآمن في المناطق التي يسيطر عليها جماعة أنصار الإسلام، والفضل في ذلك يعود إلى مجموعة من الجهاديين الأردنيين والفلسطينيين الذين كان يعرفهم من قبل ورحّبوا به والمجموعة التي معه أفضل ترحيب (الملا كريكار أسّس حركة أنصار الإسلام في ٢٠٠١/١٢/١٠).

بعد غزو القوات الأميركية العراق واحتلاله في آذار/ مارس عام ٢٠٠٣ كان الزرقاوي في المكان المناسب ومستعداً لقيادة الجهاديين ضدهم، ولكن في غمرة ذلك انفجر جدل جديد بينه وبين قيادة "القاعدة". فالزرقاوي كان يؤمن بأن القادة الميدانيين الذين يقودون الأعمال العسكرية الجهادية في الجبهات ضد المحتل الأميركي يجب أن يتمتعوا بصلاحيات أوسع واستقلالية أكبر من قادة "القاعدة" المتقدمين في السن والمتواجدين على بعد آلاف الكيلومترات في مخابئهم في جبال هندكوش في أفغانستان، وهذا الموقف تبنّاه أيضاً، ولكن في فترة لاحقة، أبو بكر البغدادي وفجّر خلافاً بينه وبين الدكتور أيمن الظواهري وأدى الى قطيعة بينهما. وقد انحاز الشيخ المقدسي إلى الدكتور الظواهري ووجهة نظره وأعلن بطلان

الأرضية الشرعية والفقهية لقيام الدولة الإسلامية إلى جانب أمور أخرى لها صلة.

في شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام ٢٠٠٤، وبعد ثمانية أشهر من المفاوضات والرسائل المتبادلة، اضطر الزرقاوي مكرهاً على الانضمام تحت لواء تنظيم "القاعدة"، وغيّر اسم جماعته من "التوحيد والجهاد" إلى تنظيم "القاعدة في بلاد الرافدين"، ولم يقدّم "البيعة" أي الولاء للشيخ أسامة بن لادن فعلياً إلا في حزيران/ يونيو عام ٢٠٠٥، وبعدها وجّه الدكتور الظواهري، ومعه عطية الله عبد الرحمن الليبي، والأخير أحد أبرز منظري ومفكري تنظيم "القاعدة" وقادتها البارزين، رسالة حازمة له، أي للزرقاوي، انتقدا فيها إعداماته العلنية القاسية للأسرى الأجانب وتطبيق الحدود الشرعية بطريقة مبالغ فيها على العراقيين، اعتقاداً منهما أن مثل هذه الممارسات من الممكن أن تحدث رد فعل سلبي في أوساط الحاضنة السنية العراقية وتتخلى عن دعمها للتنظيم بالتالي، وهذا ما حدث لاحقاً لهذه الأسباب، وأسباب أخرى، وتجلى ذلك بوضوح في انضمام الآلاف من الشباب السنّي والعشائري إلى قوات الصحوات التي أسّسها الجنرال ديفيد بترايوس، قائد القوات الأميركية، في العراق لاحقاً.

أدرك الزرقاوي، مثله مثل قادة "الدولة الإسلامية" الحاليين، أن "الإرهاب النفسي"، أو بالأحرى "التوحش" مثلما يفضلون تسميته، سلاح لا يقل أهميةً لدى الجهاديين من الكلاشينكوف وترسانة الأسلحة الأخرى، وقد قال في بيان شهير له: "إن نصف المعركة يجري في ميدان الإعلام"، وتبنّت "الدولة الإسلامية" النظرية نفسها وأسّست ذراعاً إعلامياً على درجة عالية من الكفاءة والتأثير من حيث خدمة أهدافها. وسنفرد فصلاً خاصاً لهذا الموضوع في الكتاب.

ومن المفارقة أن أبو مصعب الزرقاوي قدم البيعة للشيخ أسامة بن لادن عبر رجل الدين عمر عثمان أبو عمر المعروف باسم "أبو قتادة" الذي كان يقيم في حينها في لندن (جرى تسليمه إلى الأردن عام ٢٠١٣)، لأن الزرقاوي لم يكن يعرف المكان الذي كان يختبئ فيه زعيم تنظيم "القاعدة" في حينها، وأكّد الشيخ أبو قتادة هذا الأمر لي أثناء زيارته لي في مكتبي في صحيفة **القدس العربي** دون ترتيب مسبق، لأنه كان محظوراً عليه، بمقتضى قانون الإفراج المؤقت عنه، أن يقوم بأي ترتيبات زيارات مسبقة إلا بأخذ إذن الشرطة، التي وضعت "سواراً" إلكترونياً أسفل ساقه اليمنى لرصد تحركاته وأماكن تواجده.

وأسجّل هنا أن الشيخ "أبو قتادة" الذي واظبتُ على إرسال اشتراك مجاني له من صحيفة **القدس العربي** طوال فترة اعتقاله، والعديد من زملائه المعتقلين الآخرين، مثل أبو الحمزة المصري وخالد النفران وعادل عبد الباري، كان من أظرف الشخصيات الإسلامية التي قابلتها معشراً وأخفّها ظلاً، وكان طويلاً مهاباً، يحب الشعر ويحفظ الكثير من المعلقات وعيون القصائد العربية، خاصةً للمتنبي، مثلما يتابع الشعر الحديث، وإن كان لا يفضّله وينتقد شعراءه.

مخططات الزرقاوي وطموحاته للانفصال عن تنظيم "القاعدة" وتأسيس تنظيمه "الخاص" لم تفارقه أبداً، ولكنه، ومن منطلق براغماتي صرف، أراد الاستفادة من اسم "القاعدة" وشعبيته لجذب المزيد من المقاتلين إلى صفوفه، من العالم الإسلامي خاصةً، مثلما كان بحاجة للإمدادات المالية من التنظيم وذراعه الإعلامي القوي وشبكة دعمه اللوجستية العملياتية، وهذا هو السبب الكامن وراء ازدهار تنظيم "القاعدة في بلاد الرافدين" ولو لفترة زمنية محدودة بلغت ذروتها قبل اغتيال الزرقاوي عام ٢٠٠٦، وبعد تقديمه "البيعة" للشيخ بن لادن.

ولأن قيادة تنظيم "القاعدة" الأم كان مختفياً عن الأنظار ويدير الفروع بـ"الريموت كونترول"، فمن الطبيعي أن تنحو قيادة فرع العراق نحو الاستقلالية أكثر فأكثر تدريجياً، والسيطرة على المقاتلين من خلال تحكمها بالمال والسلاح. ومثل هذا الولاء لقيادة القاعدة في بلاد الرافدين في منتصف العقد الأول من العام ألفين البناء الأولي للبنى التحتية لتنظيم "الدولة الإسلامية"، وانتقال القيادة كلياً من "القاعدة" الأم إلى هذه "الدولة الإسلامية".

الجهاديون السوريون عادوا إلى بلادهم للانخراط في قتال النظام بعد بدء "الثورة المسلحة" ضد النظام الحاكم في دمشق، بعد أن تقلصت مساحة الأرض التي تسيطر عليها الدولة الإسلامية بفعل تشكيل قوات "الصحوات" من أبناء العشائر وتسليحها وتمويلها من قبل الجيش الأميركي في عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨، وقررت قيادة نقل "الإمارة" إلى الجانب الآخر من الحدود، أي الى سورية.

الدكتور الظواهري نشر وثيقة في أيلول/ سبتمبر عام ٢٠١٣ تحمل عنوان "الخطوط العامة للعمل الجهادي" تمثل إعادة مراجعة للمرحلة السابقة وتعكس تحفظاته التي أبداها في ردّه تجاه ممارسات الزرقاوي عام ٢٠٠٥. والهدف الحقيقي من هذه المراجعة، وما ورد فيها من انتقادات وتحفظات، هو إيصال رسالة إلى الدولة الإسلامية في العراق والشام وقائدها أبو بكر البغدادي. ومن أبرز ما جاء في هذه الوثيقة عدم مهاجمة أبناء الطوائف الإسلامية الأخرى سواء عسكرياً أو لفظياً، ولكن يجب وعظهم في الوقت نفسه عن الإسلام الحقيقي وأسسه ومنطلقاته وتعاليمه، وإعطاؤهم الفرصة للعودة إلى صفوفه. وأكّد في الوقت نفسه أن تنفيذ تفجيرات في الأسواق والأماكن العامة أمر غير مقبول لأن ضحايا هذه الهجمات والتفجيرات هم من المسلمين، وحثّ على احترام القيادة، ولا يجب قتالهم أو قتلهم إلا في حال إقدامهم على عمل عسكري ضد المسلمين أو المجاهدين.

وبينما لم يستمع الزرقاوي لنصائح وتوجيهات رؤسائه في تنظيم القاعدة الأم في حينها حول منطلقاتهم الإيديولوجية وقلقهم الاستراتيجي، أخذ بنصيحة الدكتور الظواهري بضرورة تأسيس بنية تحتية عملياتية عسكرية قوية، ولوعيه التام بأخطار الاقتتال في أوساط

الجهاديين وانعكاساته على مشروعهم الجهادي، قرر توحيد صفوفهم تحت مظلة قيادية تنظيمية واحدة تحمل اسم "مجلس شورى المسلمين"، وكان هذا المجلس بدوره أول "طوبة" في تأسيس "الدولة الإسلامية" تنظيمياً.

اغتيال أبو مصعب الزرقاوي في حزيران/ يونيو عام ٢٠٠٦ من قبل طائرة حربية أميركية كان نتيجة مباشرة لثقته الزائدة بالنفس. فبينما كان كل من الشيخ بن لادن والدكتور الظواهري يحرصان أشد الحرص على أن تكون خلفية تصوير أي فيديو مسجّل يلتقط لهما فرادى أو مجتمعين لا تدلّ مطلقاً على مكان وجودهما، كأن يضعا بطانية في الخلف عن تسجيل خطاباتهما، لتضليل أجهزة المخابرات التي تطاردهما وتراقب تحركاتهما، وعدم إعطاء أي معلومات عن مكان تواجدهما، فإن الفيديو الأخير للزرقاوي الذي صوّره يقلد "رامبو" في الفيلم الأميركي الشهير ويطلق النار من مدفع رشاش (بمساعدة صديق له) بعد خروجه من مخبئه الآمن، وفي مكان خلاء مفتوح، أعطى الخبراء الأميركيين فرصة ذهبية نادرة للتعرف على تحركاته وبالتالي اغتياله.

في شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام ٢٠٠٦ قام أبو حمزة المهاجر، خليفة الزرقاوي (مصري الجنسية)، بتسليم قيادة التنظيم إلى أبو عمر البغدادي، وجرت تسميته، أي البغدادي، زعيماً للدولة الإسلامية في العراق التي جرى إعلانها في الوقت نفسه. ولأن "البيعة" في الإسلام تعطى من شخص إلى آخر مباشرةً وجهاً لوجه، فإن الرجلين لم يقدماها لا للشيخ بن لادن ولا للدكتور الظواهري لاحقاً بعد تزعّمه للتنظيم إثر اغتيال شيخه لاحقاً، وبعد اغتيال الزرقاوي لم تعد الدولة الإسلامية في العراق تابعة لتنظيم القاعدة الأم، نظرياً وشرعياً، وأصبحت "مستقلة" في السنوات الثماني الماضية.

إن تسمية المنظمات المنضوية تحت المظلة الايديولوجية لتنظيم "القاعدة" باتت القضية الأهم موضع الجدل والنقاش، ذلك أن ممارسات الزرقاوي وتفجيراته وتطبيقه الصارم للشريعة الإسلامية وحدودها في المناطق الواقعة تحت سيطرته أعطت فرصة لخصومه لتشويه صورته وتنظيم "القاعدة" وقادته بشكل عام. وبعد هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر في أميركا، وتفجيرات مدريد (٢٠٠٤) ولندن (٢٠٠٥)، جرى ربط اسم "القاعدة" في الغرب بـ"الإرهاب" والتطرف.

في عام ٢٠١١ قرر فرع تنظيم القاعدة في باكستان تشكيل تنظيم موازٍ في باكستان أطلق عليه اسم "أنصار الشريعة" واكتشف أن هذا الاسم لقي استقبالاً حسناً وتعاطفاً كبيراً من قبل السكان، مما زاد من عملية التجنيد في صفوفه في أوساط الشباب.

الوثائق التي جرى العثور عليها في مجمع مدينة أبوت آبات الباكستانية، حيث اغتيل الشيخ بن لادن، كشفت أنه سجّل نقاطاً في دفتر مدوناته ورسائله تقترح تغيير اسم "القاعدة"

إلى أسماء أخرى مثل "طائفة التوحيد والجهاد" و"جماعة وحدة المسلمين" و"حزب توحيد الأمة الإسلامية" و"جماعة تحرير الأقصى" و"جماعة إعادة الخلافة الراشدة".

تغيير اسم التنظيم الذي تبنّاه الزرقاوي (القاعدة في بلاد الرافدين) إلى اسم "الدولة الإسلامية في العراق"، واختيار العراقي أبو عمر البغدادي أميراً لهذه الدولة، شكّل تجاوباً مع رغبة الشيخ بن لادن في التخلص من الإرث القديم الذي دفع الغرب لربط "القاعدة" بالإرهاب، وإعفاء الأعضاء الجدد من تبعاته القانونية في حال اعتقالهم أو كشف أنشطتهم في عواصم أو مدن أوروبية وأميركية.

لتوضيح هذه المسألة، ولتجنّب أي اضطراب، يمكن تسجيل التسميات والتغييرات التي سبقت الاستقرار على الاسم الحالي "الدولة الإسلامية". في الأعوام من ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٤ كانت التسمية "التوحيد والجهاد" (بقيادة الزرقاوي)، وفي الفترة من ٢٠٠٤ إلى ٢٠٠٦ تغيّر الاسم إلى "القاعدة في بلاد الرافدين" (بقيادة الزرقاوي أيضاً)، وفي عام ٢٠٠٦ تغير الاسم إلى "مجلس شورى المجاهدين" (بقيادة الزرقاوي)، وفي الفترة من ٢٠٠٦ إلى ٢٠١٣ جرى اعتماد اسم الدولة الإسلامية في العراق بقيادة أبو عمر البغدادي (اغتيل عام ٢٠١٠) وتولى قيادة الدولة بعده أبو بكر البغدادي حتى يونيو/ حزيران عام ٢٠١٤ حيث تغير الاسم إلى "الدولة الإسلامية"، وأعلن أبو بكر البغدادي، في خطبة في المسجد النوري الكبير أثناء ظهوره للمرة الأولى وإلقائه خطبة الجمعة، نفسه خليفة للمسلمين وطالب أنصاره بتقديم البيعة له.

بعد نجاح قوات الصحوات في تقليص نفوذ "الدولة الإسلامية" في العراق وإبعاد معظم عناصرها الجهادية من المدن والبلدات السنّية في ما كان يطلق عليه المثلث السنّي، تراجع العنف في العراق، وقرر معظم مقاتلي "الدولة" في الهجرة إلى ميادين قتال أخرى، وبدأ هؤلاء يظهرون في أفغانستان حيث كان القتال ضد القوات الأميركية والبريطانية المحتلة في ذروته.

انتقال مقاتلي الدولة الإسلامية إلى أفغانستان وانضمامهم إلى صفوف زملائهم في حركة طالبان كان واضحاً من خلال نقل خبراتهم التي لم تكن معروفة سابقاً في ميادين القتال، مثل القنابل الموقوتة والعفوية المزروعة على جانبي الطرق وتفجيرها عن بعد، وهي العبوات التي تعلّم رجال الدولة الإسلامية في العراق كيفية تصنيعها وزرعها على أيدي ضباط الحرس الجمهوري في زمن صدام حسين الذين انضموا إلى التنظيم. وهنا تجدر الإشارة إلى أن مقاتلي الدولة الإسلامية في العراق قاتلوا لأول مرة إلى جانب زملائهم في تنظيم "القاعدة" المركزي، وتحت مظلة الطالبان. حيث أفادت تقارير إخبارية أن سعد بن لادن، أحد أبناء القائد المؤسس للقاعدة، كان من ضمن الذين غادروا العراق إلى أفغانستان.

في نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٨ أشاد الدكتور الظواهري بتنظيم الدولة الإسلامية في العراق وبطولات رجالها في ميادين القتال حيث كانت تتعرض في حينها لضغوط وحرب تصفية من ثلاث جهات، الأولى الجيش الأميركي، والثانية الجيش العراقي وقوات أمنه، والثالثة قوات الصحوات، وحثّ الأمة "على مساعدة المجاهدين في العراق وعلى رأسهم تنظيم الدولة الإسلامية"، واعتبر هذه المساعدة "من صميم واجبات الأمة في مثل هذا الوقت من تاريخها". وتنبأ الدكتور الظواهري في شريط صوتي مسجل بثته مؤسسة "السحاب"، الذراع الإعلامي للتنظيم، في آب/ أغسطس عام ٢٠٠٨، "باندحار قوات الصحوات"، وقال إن "نجاحاتها" تأتت من خلال دعم القوات الأميركية لها ولقوات الأمن والجيش العراقي"، وقال "إن الأميركان سينسحبون مهزومين في نهاية المطاف أمام ضربات المقاومة، وسيتركون هذه الصحوات تواجه مصيرها على أيدي المجاهدين".

واللافت أنه حتى عندما كانت علاقة تنظيم القاعدة المركزي مع الدولة الإسلامية في العراق وقيادتها جيدة، فإن شروخاً إيديولوجية بين الجانبين كانت ظاهرة للعيان.

الفصل التاسع

إعلام التوحش وأهدافه

ربما نجحت "الدولة الإسلامية" في السيطرة، وفي زمن قياسي، على مساحات شاسعة من الأراضي في سورية والعراق، وأزالت الحدود بين البلدين، وغرست فيهما اللبنة الأولى في طريق بناء "خلافتها" الإسلامية، مثلما نجحت في الاستيلاء على أطنان من الأسلحة الحديثة والعتاد العسكري من مخازن الجيشين العراقي والسوري، وعززت رصيدها المالي بأكثر من نصف مليار دولار كانت مودعة في خزائن البنك المركزي العراقي في البصرة. ولكن النجاح الأكبر، في رأينا، يتمثل في أذرعها الإعلامية الجبارة التي لعبت دوراً كبيراً في إيصال رسالتها، وإرهاب أعدائها، ووضعها على الخريطتين الإقليمية والدولية بقوة وفي زمن قياسي.

إعلام الدولة الإسلامية أظهر كفاءةً وقدرةً وحداثةً غير مسبوقة وتفوق على إمبراطوريات إعلامية كبرى غربية وعربية، بل وبات إعلام تنظيم "القاعدة" الأم، الذي شغل العالم بأشرطته وبياناته طوال العشرين عاماً الماضية، يبدو بسيطاً ومتواضعاً.

التقنيات الحديثة التي تستخدمها الدولة الإسلامية وكتائبها الإعلامية لا تقل أهميةً عن الصواريخ والدبابات والعمليات الانتحارية والمتفجّرات، بل تفوقها، لأنها تحقق نجاحات كبيرة في الحرب الأهم وهي "حرب العقول" المستعرة هذه الأيام.

ومن يتابع وسائط التواصل الاجتماعي، من "يوتيوب" و"فيس بوك" و"تويتر"، يدرك جيداً معنى ما نقول في هذا المضمار، فالجيش الالكتروني التابع للدولة بات يسيطر سيطرة شبه تامة على هذه الوسائط.

هذا الجيش الالكتروني هو الذي لعب الدور الأبرز في حذف اسم "داعش" وفرض تسمية "الدولة الإسلامية" على معظم أجهزة الإعلام العالمية والمحلية، وكان "جنوده"

يرسلون رسائل على مواقع التويتر والفيس بوك يلفتون نظر كل من يستخدم هذه الوسائط إلى الاسم الجديد، وضرورة اعتماده، ويصل الأمر بتحذير بل تهديد كل من يكرر اسم "داعش" الذي يبغضه التنظيم وأنصاره بغضاً شديداً ويعتبرونه إهانة. وقد التزمت جميع وكالات الأنباء العالمية والصحف الكبرى في أميركا وأوروبا بالاسم الجديد، أي "الدولة الإسلامية" واختصاره بـ(IS) باللغة الإنكليزية، ولم تعد وكالتا "رويترز" و"وكالة الأنباء الصحافة الفرنسية"، المصدر الرئيسي للأنباء في الوطن العربي والعالم، تستخدمان الاسم القديم "داعش" مطلقاً.

شخصياً تلقيت رسائل غاضبة على حسابي في التويتر لأن صحيفتي رأي اليوم كانت في بعض الأحيان تستخدم اسم "داعش"، ومن عدة حسابات، وفي فترة زمنية محددة، مما يؤكد أن هذه الرسائل جاءت بناءً على تعليمات من "وزارة إعلام الدولة الإسلامية".

ولم يعد يقتصر استخدام هذه "التسمية، أي "داعش"، إلا على بعض الوسائل الإعلامية العربية التي تشارك بشكل فعال في الحرب ضد الدولة الإسلامية وتؤيد التحالف الأميركي الذي يريد تدميرها والقضاء عليها كلياً باعتبار تطرفها الخطر الأكبر على المنطقة وأمنها واستقرار الأنظمة الحاكمة فيها.

وحاولتُ في أحد مقالاتي أن أردّ على الهجمات الشرسة ضد مستخدمي اسم "داعش" بالقول إنه ليس سيئاً مهنياً، فهو اختصار للاسم الطويل "الدولة الإسلامية في العراق والشام" ويسهّل عمل وسائل الإعلام والمكتوبة منها بالذات، فمن غير المنطقي أن توضع أربع كلمات في العنوان، وأشرتُ الى اختصار اسم الولايات المتحدة في ثلاثة أحرف (U.S.A) والأمم المتحدة في حرفين (UN) والأمثلة كثيرة، وربما تكون هذه الاعتراضات وراء التسمية الجديدة والدارجة حالياً، أي "الدولة الإسلامية".

وبمناسبة الحديث عن الأسماء والتسميات لا بدّ من التأكيد على أن الشيخ أسامة بن لادن لم يختر "القاعدة" كاسم للتنظيم، وإنما اسم "الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والنصارى"، وأعلن ذلك في مؤتمر صحافي عقده مع قادة عدة فصائل جهادية إسلامية عام ١٩٩٨ من بينهم الدكتور أيمن الظواهري (الجهاد الإسلامي – مصر) ورفاعي طه (الجماعة الإسلامية – مصر). ولكن الشيخ بن لادن اعتمد تسمية "القاعدة" الذي اختارته وسائل الإعلام الأميركية والأوروبية وأضاف إليها كلمة "الجهاد" وأصبح الاسم "قاعدة الجهاد" لقناعته بأن الاسم الثاني بات أكثر شهرةً ومن الصعب استبداله.

الدولة الإسلامية تعوّل كثيراً على الإعلام للترويج لايديولوجيتها الإسلامية المتشددة وبثّ أخبار غزواتها في العراق وسورية لإيصالها إلى أتباعها في مختلف أنحاء العالم، ويقدّرون بالملايين، وتستخدم تقنيات هي الأحدث في العالم وتضاهي أفلام هوليوود وكبريات

محطات التلفزة العالمية في جودتها الإنتاجية.

ويقول فيليب سمايث، الباحث المتخصص في الجماعات الجهادية في جامعة ميريلاند الأميركية، في دراسة أعدها ونشرت مؤخراً حول إعلام "الدولة الإسلامية" إنه لاحظ ارتفاعاً ملحوظاً في أنشطة التنظيم الإعلامية على وسائل التواصل الاجتماعي في شهري حزيران/ يونيو وتموز/ يوليو عام ٢٠١٤، أي بعد إحكام سيطرته على الرقة ودير الزور واستيلائه على مدينة الموصل ثاني أكبر المدن العراقية.

ويرى جي. ام. بيرغر، رئيس تحرير "انتل واير دوت كوم"، الذي يتابع أنشطة الجهاديين على وسائل التواصل الاجتماعي لسنوات أنه وصل إلى نتيجة مفادها أن هناك آلاف الحسابات على موقع "التويتر" تتبع الدولة الإسلامية سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وقسّم هذه الحسابات إلى ثلاثة أنواع: الأول يصنّف أصحابها أنفسهم بأنهم متشددون إسلاميون (أي أعضاء في التنظيم)، والثاني يعتبرون أنفسهم يقفون في خانة المناصرين والداعمين لفكر الدولة الإسلامية دون أن يكونوا من المنتمين إليها، والثالث من المتعاطفين الذين يؤكدون أنهم ليسوا أعضاء فيها أو على صلة بها رسمية أو غير رسمية، حتى يتجنبوا الملاحقة الأمنية من أجهزة الاستخبارات المتعددة التي تتابع هذه المواقع وترصدها وأصحابها.

ويقول بيرغر إن هذه الحسابات تقوم بتبادل المعلومات وإعادة نشرها (ريتويت) على مواقعها على نطاق واسع لتصل إلى أكبر قدر ممكن من القراء، وبكل اللغات. ويذهب بعض المتابعين إلى درجة أبعد عندما يقوم بإعادة إرسال بعض المعلومات والأفلام والبيانات، خاصةً تلك المتعلقة بقطع الرؤوس أو إعدام الرهائن، الى حسابات حكومية، أميركية وأوروبية، أو مؤسسات إعلامية، وحتى بعض المشاهير.

وهناك عدة أهداف من وراء هذا التركيز على الإعلام وإنفاق الملايين على "الكتيبة" التي تتولى إدارته، أولها الترويج لإيديولوجية الدولة الإسلامية باعتبارها تجسّد الإسلام الحقيقي في صورته التي جسّدها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه وصحابته وآل بيته، و"استفزاز" الولايات المتحدة الأميركية والدول الغربية الأخرى ودفعها إلى التورط في التدخل عسكرياً، وتجنيد الشباب الإسلامي المحبط في صفوف الدولة الإسلامية خاصةً الشباب الذي يعيش في الغرب، وهذا ما يفسّر كثرة الأنشطة التي تصدر بلغات إنكليزية وفرنسية وألمانية، طبعاً إلى جانب العربية.

هناك عدة أذرع إعلامية "ضاربة" للدولة الإسلامية تشكّل العمود الفقري لجيشها الالكتروني وكتائب التوحش الإعلامية التي تعتبر المظلة التي ينضوي تحتها كل هذه الأنشطة الإعلامية، ويمكن حصرها في "مركز الحياة الإعلامي" الذراع المتخصص في مخاطبة الغرب بلغات متعددة، مركز "الفاروق"، مركز "الفرقان"، مركز "اليقين" ومركز "الاعتصام".

وجميع هذه المراكز تنتج أشرطة وأفلام وثائقية، وتصدر رسائل إخبارية، وتبثّ أخباراً وصوراً على "الانترنت" و"انستغرام" و"تويتر" و"يوتيوب" و"فيس بوك"، وتدير محطات راديو.

تجنيد الشباب الغربي أولوية

ويحتل مركز "الحياة" الإعلامي المكانة الأبرز من بين كل المراكز الأخرى، ليس لأنه مخصص للناطقين بغير العربية فقط وإنما لأنه يركّز كل اهتماماته على جذب الشباب المسلم في الدول الغربية، بهدف التأثير عليهم، ومن ثم تجنيدهم. واللافت أن الأفلام والمواد الإعلامية التي ينتجها ترتقي إلى مستوى نظيراتها في محطات عالمية ذات مهنية عالية، مثل "سي إن إن" و"بي بي سي" و"سي بي إس" وغيرها. ويحتل علم الدولة الإسلامية بالأسود والأبيض الركن الأعلى من شاشة المركز وأفلامه وموادّه التي تصدر في عدة أشكال و"فورمات"، فبعضها ومضة إخبارية أو تسجيلية لا تزيد مدتها عن دقيقة واحدة، أو عدة دقائق، والبعض الآخر أشرطة وثائقية تقارب مدتها الساعة.

ويصدر مركز "الحياة" مجلة دابق بعد لغات أجنبية، وتتميز بفخامتها وتحقيقاتها القوية. و"دابق" هي بلدة سورية شهدت معارك طاحنة ضد الروم، وتنبأ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فيها بهزيمة الإمبراطورية الرومانية وانهيارها.

ووصف كولن كلارك الخبير في مؤسسة راند الأميركية للأبحاث مجلة دابق بأنها "متجر يتوقف فيه الزبون مرة واحدة، للعثور على كل ما يريده وكل ما له علاقة بتنظيم الدولة الإسلامية".

ويعتبر فيلم "لهيب الحرب"، الذي يبلغ طوله ستين دقيقة، الذي أصدره مركز "الحياة"، أكثر الأفلام الوثائقية رعباً، فقد تضمّن رؤوساً مقطوعة جرى غرسها في قمم قضبان حديدية تشكّل سوراً لأحد المنازل، وأعمال تدمير ونسف لمساجد تضم أضرحة وقبور ومقامات لبعض الصالحين المسلمين، باعتبارها تتنافى مع السلفية الإسلامية المتشددة، وأعمال صلب، وجلد نساء سافرات، ورجم أخريات زانيات.

ولعل أكثر ما في هذا الشريط رعباً تصوير جنود سوريين أسرى من الفرقة ١٧ أُسروا في مدينة الرقة وهم يحفرون قبورهم بأنفسهم قبل تنفيذ حكم الإعدام فيهم. وظهر في الشريط جندي سوري كان الأكثر حماساً في الحفر، وقال أمام الكاميرا "إن الله مع الدولة الإسلامية، فقد استولى مقاتلوها على قاعدة الفرقة ١٧ في ثوانٍ معدودة بسبب بأسهم وإقدامهم، رغم أن تعداد جنود الفرقة ١٧ كان أكثر من ٨٠٠ جنديٍ وضابط بينما لم يزد مقاتلي الدولة

عن عشرات". والحقيقة أن قوات الدولة الإسلامية، وقبلها قوات الجيش الحر والنصرة، حاصرت قاعدة "الفرقة ١٧" في محافظة الرقة عدة أشهر قبل سقوطها، واستولت عليها قوات الدولة الإسلامية بعد عدة أسابيع من القتال المكثّف.

على أي حال، الجندي السوري الذي نافق الدولة الإسلامية في الشريط وامتدحها جرت تصفيته ودُفن في القبر الجماعي نفسه، ولم يفده نفاقه مطلقاً.

وتنظيم الدولة الإسلامية لم يكتفِ بإنتاج أفلام الرعب والترهيب، فقد حاول في أشرطة أخرى أن يقدم نفسه بصورة إنسانية مثل إفطار مقاتليه يوم عيد الفطر مع الأطفال، وتوزيع "آيس كريم" عليهم، ولعبة الكترونية، وأشرطة وثائقية عن إدارتهم لأساليب الحياة في المناطق التي يسيطرون عليها للإيحاء بأن الأمن مستتبّ وأن السكان راضون عن هذه الإدارة.

البراعة في الإنتاج والتصوير والإخراج تنعكس في الغالبية العظمى من الأفلام التي تبثّها الدولة وأذرعها الإعلامية على "يوتيوب" وغيرها، مما يؤكد وجود كفاءات عالية تقف خلفها، وسلسلة الأفلام الوثائقية التي حملت اسم "صليل الصوارم" التي سجّلت ووثقت عمليات التنظيم العسكرية في جبهات القتال هي أحد أبرز الأمثلة في هذا الصدد. وأحد المصادر أكد لي أن بعض هذه الكفاءات من جنسيات غربية اعتنقت الإسلام وانضمّت إلى صفوف الدولة، وبعضها من الشبان المسلمين الذين عاشوا في الغرب وتخرجوا من جامعاته.

ومن شاهد عمليات إعدام الصحافيين الأميركيين جيمس فولي وستيفن سوتلوف، وبعدهما طريقة إعدام الناشطين البريطانيين في أعمال الإغاثة آلن هننغ وديفيد هينز، يدرك جيداً أن هناك أدمغة خبيرة في الحرب النفسية والتأثير الإعلامي. فقد جرى إلباسهم جميعاً البدلة البرتقالية على غرار تلك التي كان يرتديها معتقلو تنظيم "القاعدة" في قاعدة غوانتانامو الأميركية، ووقف إلى جانب كل واحد منهم أحد مقاتلي تنظيم الدولة الإسلامية ملثّماً وحاملاً سكيناً حاداً، كان أحدهم يتحدث بلغة إنكليزية بلكنة لندنية، وبعد تلقين الضحية الكلمات الانتقادية لحكومته التي تخلت عنه وضحّت به، بإرسالها الطائرات لضرب مواقع الدولة الإسلامية، جرى ذبحها وفصل رأسها عن جسدها، ووضع الرأس على صدر الجثة. والهدف من هذه الأعمال البشعة والمثيرة للرعب هو الترهيب ودفع سكان المدن التي يزحفون إليها إلى الفرار، تماماً مثلما فعل جنود الجيش العراقي الذين كانوا يتواجدون في ثكناتهم العسكرية في مدينة الموصل قبل اقتحامها من قبل قوات الدولة الإسلامية.

وتخوض الولايات المتحدة الأميركية ودول غربية أخرى، من خلال الوحدات الخاصة بمكافحة الإرهاب في أجهزتها الأمنية، حرباً الكترونية شرسة ضد الدولة الإسلامية وأذرعتها الإعلامية، وتنعكس هذه الجهود في عنوانين رئيسيين: الأول إغلاق مواقع الدولة على أجهزة التواصل الاجتماعي من خلال التنسيق مع الشركات المالكة لها، وشنّ حملات إعلامية

الكترونية مضادة تبرز أخطار هذا التنظيم ومخططاته الوحشية، ومحاولة زرع أخبار وتقارير "مفبركة" أو غير دقيقة مثل القول إن أبو بكر البغدادي عميل أميركي تم تجنيده وزرعه بين المقاتلين في سجن أبو غريب، أو نشر خبر يقول إن السيدة هيلاري كلينتون اعترفت في كتابها **الخيارات الصعبة** أن أميركا هي التي أسست تنظيم الدولة، واضطرت السيدة كلينتون إلى نفي ذلك كلياً. وبثت إحدى القنوات الأميركية لقطة لأحدهم يمارس الجنس مع أنثى الحمار وقالت إنه من "الدولة الإسلامية"، وهذه اللقطة صورتها طائرات من مسافة بعيدة جداً. ولكن يبدو أن النجاح في الميدانين يبدو محدود الأثر بدليل تعاظم وجود الدولة الإسلامية وأنشطتها على هذه المواقع، وتناسل حساباتها بشكل مرعب مثل إعداماتها، حتى أن الدولة الإسلامية أقامت موقعاً باسم "مسلم بوك" موازياً لموقع "فيس بوك"!

معركة إعلامية خاسرة

حكومات عربية حاولت بدورها إغلاق المواقع والحسابات التابعة للدولة الإسلامية أو المتعاطفة معها، مثل الحكومة العراقية التي فرضت رقابة مشددة أيضاً على الانترنت، ولكن هذه الرقابة وحجب المواقع لم تحقق نجاحاً، فآلاف الأشخاص تجاوزوا هذا الحظر وتجنبوا الرقابة من خلال اللجوء إلى برنامج تور (Tor)، وأفادت تقارير شبه رسمية أن عشرة آلاف شخص استخدموا هذا البرنامج في غضون أيام معدودة.

مصطفى البسام، أحد أبرز "الهاكرز" العراقيين والعضو السابق في مجموعة "بلاك هات" (Black Hat)، أقام موقعاً على الانترنت باللغة العربية لمساعدة العراقيين على تجاوز الحظر والرقابة الحكومية على الانترنت من خلال تحميل برنامج "تور" واستخدامه بالتالي.

وقال السيد البسام في حديث لموقع "ديلي دوت" إن هذه الرقابة الرسمية مضحكة، خاصةً أن الحكومة العراقية التي تفرضها تدعي أنها ديموقراطية وتحترم الحريات، وجاءت على حساب جثامين مئات الآلاف من العراقيين الذين ضحوا بحياتهم من أجل إطاحة حكم ديكتاتوري.

السلطات العراقية حجبت موقع "تور" لكن النشطاء سارعوا بوضع "لينكات" لمواقع مماثلة بديلة تكسر الحجب، وما زالت هذه الحرب مستمرة بين هذه السلطات والشباب العراقي حتى كتابة سطور هذا الكتاب.

على شبكة "تويتر" و"فيس بوك" تتواصل حرب مماثلة، ففي كل مرة تحجب إدارة الموقع بعض الحسابات يتم استبدالها بسرعة بحسابات جديدة وبأسماء مختلفة، ومعظمها أسماء مستعارة، والقاسم المشترك بين أكثريتها استخدام صورة علم الدولة الإسلامية. ويقوم

مقاتلو الدولة في أحيان كثيرة بالتغريد مباشرةً من ميادين المعارك، ويدخلون في جدل حاد مع خصومهم ومنتقديهم تصل في بعض الأحيان إلى سباب وشتائم وألفاظ نابية وتخوين.

السيد فادي سالم، الباحث المتخصص في وسائل الإعلام العربية والمقيم في إمارة دبي، قال: "إن ردود الفعل الفورية من حكومات دول الشرق الأوسط على قوة وسائل التواصل الاجتماعي تتمثل في محاولات السيطرة والحجب وفرض الرقابة قدر الإمكان"، وأضاف: "وعدد قليل من هذه الحكومات اعتبر هذه الوسائل فرصة لا خطراً"، وذلك أثناء حديثه لوكالة "أسيوشيتد برِس" على هامش مؤتمر حول الإعلام الالكتروني عُقد في دبي ربيع عام ٢٠١٤.

الحكومة المصرية قطعت شبكة "الانترنت" يوم انطلاق الثورة المصرية، يوم ٢٨ كانون الثاني/ يناير عام ٢٠١١، التي أطاحت الرئيس حسني مبارك، في محاولة لمنع تأثير الناشطين المصريين على شبكات التواصل الاجتماعي. كما فعلت السلطات السورية الشيء نفسه في المناطق التي تسيطر عليها قوات المعارضة المسلحة. وحجبت السلطات السعودية ملايين المواقع الالكترونية سواء لأسباب أخلاقية (مواقع الجنس) أو لأسباب سياسية، وخصصت "إدارة خاصة" لهذا الغرض في جامعة الملك عبد العزيز في جدة يعمل فيها أكثر من ألف موظف، ولكن تأثير جميع خطوات الحجب هذه جاء محدوداً للغاية، بل بالعكس أعطى نتائج عكسية سلبية على هذه الحكومات.

الدكتور عبد العزيز الملحم، المتحدث باسم وزارة الإعلام والثقافة السعودية، قال في تصريحات صحافية نشرتها عدة صحف محلية: "من الصعب شنّ حرب على الأفكار على شبكة الانترنت"، وأضاف: "عندما نتحدث عن محاولة مراقبة أو السيطرة على وسائل التواصل الاجتماعي فإنها مثل محاولة السيطرة على الهواء". ولكن السلطات السعودية اتّبعت وسائل أخرى للسيطرة على هذه الوسائل، عندما أصدرت قوانين تعاقب بالسجن لحوالي ١٥ عاماً على كل من يتعرض لأمن الدولة أو يبثّ تغريدات تنتقد النظام الأساسي للحكم وتطالب بتغييره أو تعديله أو المطالبة بإصلاحات سياسية أو التعرض لقيادة الدولة ورجال الدين أو التشكيك في العقيدة. وجرى فعلاً سجن عدة أشخاص بسبب تغريدات على "تويتر".

إدارة "فيس بوك" قالت إن لديها ٧١ مليون مستخدم نشط في منطقة الشرق الأوسط. وتشكّل نسبة الشباب بين عمر ١٥ و٢٩ سبعين في المئة من عدد المستخدمين في المنطقة، حسب ما جاء في دراسة أعدتها كلية دبي للإدارة الحكومية ونشرتها قبل عامين.

وترى السيدة إليزابيث ليندر، مدير العلاقات الحكومية والاقتصادية في شركة "فيس بوك"، أن الشيء الأهم هو أن تكون هناك، ويجب عدم ترك "الانترنت" والبعد عنه، بل ينبغي

الدخول إليه واستخدامه، حسب ما قالت في مقابلة مع "أسيوشيتد برس" أثناء مشاركتها في مؤتمر حول وسائل الاتصال الاجتماعي عقد في إمارة دبي.

الحكومة الأميركية عملت بهذه النصيحة ودخلت إلى وسائل التواصل الاجتماعي بقوة، ونشرت العديد من التغريدات والتسجيلات والأفلام لمحاربة تنظيم الدولة الإسلامية. أما الحكومة الإسرائيلية فخصصت افيخاي أدرعي، الذي يجيد اللغة العربية، متحدثاً باسمها للتواصل مع المشتركين العرب على "الانترنت" و"تويتر" و"فيس بوك"، وبلغ عدد متابعيه، ومعظمهم عرب، على "تويتر" حوالي ١٠٧ آلاف متابع، ويدافع من خلال حسابه عن السياسات الإسرائيلية وجرائم حرب الجيش الإسرائيلي التي ارتكبها أثناء عدوانه الأخير على قطاع غزة (صيف عام ٢٠١٤).

بغداد في عين العدسة

وركزت الحملات الإعلامية لأذرع "الدولة الإسلامية" لأسابيع وأشهر عديدة على العاصمة العراقية بغداد، في محاولة مكثفة ومدروسة لبث الرعب في نفوس سكانها تمهيداً لاقتحامها، حيث نشرت صورة ممنتجة على "الفوتو شوب" لمقاتل من الدولة الإسلامية في بغداد يقول: "قادمون يا بغداد". حتى أن الكاتب ام. جي. بيرغر، الخبير في الحركات الإسلامية المتشددة، كتب مقالاً في مجلة **ذي أتلانتيك** (*The Atlantic*) المعروفة قال فيه: "كان عدد التغريدات حول هذا المقطع ضخماً، بحيث أن أي بحث عن كلمة بغداد على "التويتر" ستولد هذه الصورة وتدفعها إلى القمة، بما يحق الهدف منها وهو ترهيب السكان".

ويقول مارتن تشارلوف مراسل صحيفة **الغارديان** في بغداد: "إن الخوف من اجتياح بغداد أمد تعمّق بسبب حملات الترهيب على مواقع التواصل الاجتماعي".

وتقنية "البوسترات" تستخدم بطريقة فاعلة ومؤثرة واحترافية من قبل كتائب الدولة الإعلامية، فإلى جانب بوستر "بغداد... نحن قادمون"، هناك "بوستر" آخر يخاطب الشباب المسلم بقوله: "لا تموت سوى مرة واحدة... لماذا لا تجعلها شهادة؟" ولا ننسى "البوستر" والشعار الأشهر "باقية وتتمدد". ويعتبر موقع "انستغرام" لبثّ الصور وتبادلها الوسيلة الأكثر تفضيلاً لنشر هذه "البوسترات" بالنسبة إلى الدولة الإسلامية لإيصالها إلى أكبر قدر من المتلقين على طول العالم وعرضه.

"الدولة الإسلامية" تبدو أفضل حظاً من تنظيم "القاعدة الأم" ومؤسسيه الأوائل، وشيخه أسامة بن لادن على وجه الخصوص. فقد كان التنظيم في بداياته الأولى يعتمد على قناة "الجزيرة" الفضائية لبث أشرطته التي تحمل رسائل إلى أتباعه والوسائل الإعلامية

العربية والدولية، وتعرضت هذه الأشرطة إلى عمليات مراقبة في الأيام الأخيرة وحذف بعض المقاطع تجاوباً مع ضغوط أميركية وأوروبية. أما تنظيم الدولة فقد بات مستقلاً بالكامل في أنشطته الإعلامية ولم يعتمد على أحد من أجل إيصالها لأتباعه على طول العالم وعرضه بفضل وسائط التواصل الاجتماعي و"يوتيوب" على وجه الخصوص.

صحيح أن أصحاب هذه الوسائط بدأوا يفرضون رقابة على بعض مواقع الدولة الإسلامية وأنصارها، ويحذفون الكثير من التغريدات، ويمنعون بث بعض الأفلام الدعائية، ويغلقون حسابات على "تويتر" و"فيس بوك"، ولكن الصحيح أيضاً أن خبراء التنظيم كشفوا عن قدرات متقدمة جداً في تجاوز كل وسائل المنع هذه من خلال إيجاد البدائل وبسرعة فائقة.

الحرب الالكترونية بين الدولة الإسلامية وخصومها الكثر ستستمر بالتوازي مع الحرب العسكرية ضدها التي تشنها الولايات المتحدة على رأس تحالف "خمسيني" ضدها، وتستخدم فيها أحدث الطائرات والمعدات القتالية. وهي حرب قد تستمر لسنوات وربما لعقود، ومن الصعب التنبؤ بنتائجها.

الصورة النمطية السائدة حالياً حول هياكل الدولة الإسلامية ومقاتليها ليست صحيحة في معظم جوانبها، خاصةً تلك التي تصوّرهم على أنهم، أو معظمهم، من أصحاب الذقون الطويلة الرثة وغير المتعلمين، فمن الواضح أن صفوفها تضم أدمغة متقدمة في جميع المجالات التقنية والعسكرية والعلمية والسياسية والاستراتيجية، وفي مجال الإعلام خاصة.

الحرب الالكترونية الإعلامية ستتطور وتشتد ضراوةً مع تقدم أدواتها، وهي الأدوات التي تتحدث بشكل مضطرد، وبمعدل كل ستة أشهر، ولا نتردد في القول إن "الدولة الإسلامية" تتفوق في هذه الحرب على أعدائها، حتى الآن على الأقل، وأصبحت تمسك بنسبة كبيرة من خيوطها وتوظفها في خدمة أهدافها في الترهيب وبثّ الرعب في أوساط خصومها.

الفصل العاشر

الغرب والإسلام: لعبة خطرة

حاولت الدول الغربية على مدى قرون أن تستغل الإسلام من أجل خدمة مصالحها السياسية الخارجية. في حالة بريطانيا يعود هذا الاستغلال إلى أيام الإمبراطورية العثمانية. وفي التاريخ الأكثر حداثةً حاول التحالف الأميركي – البريطاني التودد إلى المتشددين الإسلاميين في أفغانستان والعراق وليبيا وسوريا، قبل أن ينقلب عليهم. في هذا الفصل سنجادل أن السياسات اللاأخلاقية للولايات المتحدة وبريطانيا، التي ستقودهما إلى تقديم الدعم والتسليح لجماعات مختلفة من أجل تحقيق مكاسب عسكرية أو سياسية أو ديبلوماسية قصيرة الأجل، ساهمت مباشرةً في صعود تنظيم "الدولة الإسلامية" من خلال إضعاف القوى العلمانية والليبرالية والديموقراطية في العراق وسوريا، وهي القوى التي من المفترض أن تكون الحليف الطبيعي لهما.

دعم الخلافة

كانت الإمبراطورية العثمانية التركية لقرون من الزمن أكبر كيان إسلامي موحّد عرفه التاريخ، وضمّت معظم شمال أفريقيا وجنوب شرقي أوروبا والشرق الأوسط. وبدءاً من القرن السادس عشر، لم تكتفِ بريطانيا بمناصرة الإمبراطورية العثمانية، بل ذهبت إلى حد دعم وتأييد مؤسسة الخلافة وحق السلطان في تولي منصب الخليفة، أو زعيم الأمة الإسلامية. وفي وقتنا الحالي يتم اتخاذ موقف معاكس من سعي أعداء الغرب، أي "القاعدة" ووريثتها "الدولة الإسلامية"، إلى إعادة الخلافة ودعوة الأمة الإسلامية إلى التوحّد تحت سلطة الخليفة

الجديد المعيّن من طرف واحد: أبو بكر البغدادي.

كانت سياسة الدعم البريطاني للخليفة العثماني - وهي سياسة معروفة بـ"المسألة الشرقية" - مدفوعة فقط بالمصلحة الذاتية: في البدء كي تشكل أراضي الخلافة العثمانية منطقة عازلة في مواجهة منافسي بريطانيا الاستعماريين الإقليميين، أي فرنسا وروسيا، ولاحقاً، بعد استعمار الهند، أمّنت أراضي الخلافة العثمانية طريقاً تجارياً آمناً لبريطانيا مع الشرق.

والواقع أن هذا الدعم لم يقتصر على المواقف الديلوماسية والتصريحات التقليدية التي تنمّ عن علاقات الصداقة. ففي حرب القرم (١٨٥٤-١٨٥٦) حاربت بريطانيا إلى جانب الإمبراطورية العثمانية ضد روسيا، وانتصرت.

لم يتم إيجاد حل لهذه الصيغة - دعم بريطانيا للعثمانيين - المحيّرة والمستمرة منذ ٤٠٠ سنة سوى مع اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤. وعندما ساند محمد الخامس الألمان في الحرب، ترددت بريطانيا في موقفها خشية خوفها من خسارة النفوذ الذي يمارسه الخليفة على أكثر من ١٥ مليون مسلم، وكان مبررها أن من يسيطر على شخص الخليفة يسيطر بدوره على الإسلام السنّي. وقررت لندن أن قيام ثورة عربية تزيح محمد الخامس سيساعدها في إعادة منح دور الخليفة إلى شخص موثوق به وحليف مطواع: الحسين بن علي شريف مكة والمتحدر من سلالة الرسول كما يُقال. وظّف البريطانيون النزعة العنصرية لجمع التأييد للثورة، ولعبوا على وتر شعور العرب بملكيتهم للإسلام الذي انطلق بالطبع من مكة والمدينة. وجاء في إعلان بريطاني صدر عام ١٩١٤: "ليست هناك أمة بين المسلمين قادرة الآن على الإمساك بالخلافة الإسلامية سوى الأمة العربية". وانطلاقاً من هذا الإعلان بعثت بريطانيا برسالة بهذا المعنى إلى الشريف حسين ملمحةً فيها إلى أنه "ربما (حان الوقت) كي يتسلم عربي أصيل النسب الخلافة في مكة والمدينة"، علماً أن المدينة المنورة كانت بالفعل مركز الخلافة الأولى بعد وفاة الرسول. وكان البريطانيون هنا، مجدداً، مستعدين لحماية الخلافة بحدّ السيف، إذ وعدوا بـ"ضمان الربوع المقدسة (مكة والمدينة) في مواجهة أي عدوان خارجي".

إنها، بلا شك، فكرة غريبة أنه قبل مئة سنة فقط كان القائمون بـ"الحرب ضد الإرهاب" الحالية يعدون بإعادة الخلافة الإسلامية إلى العالم العربي... وأن يدافعوا عنها عسكرياً.

اندلعت الثورة العربية عام ١٩١٦، في السنة ذاتها التي تم فيها توقيع اتفاقات سايكس - بيكو المشؤومة لتقاسم الأراضي التي وُعد بها الشريف حسين بين البريطانيين والفرنسيين. الخيانة، التلاعب، والمصلحة الذاتية كانت ولا تزال اسم اللعبة عندما يتعلق الأمر بالتدخلات

الغربية في شؤون الشرق الأوسط.

استمرت الثورة العربية الكبرى سنتين ولعبت دوراً محورياً في سقوط الإمبراطورية العثمانية. وفي الوقت ذاته، الذي جرت خلاله هذه الثورة، كان الجيش البريطاني وقوات حليفة له، بينها قوات عربية غير نظامية، تحارب الجيش العثماني في إطار مواجهات الحرب العالمية الأولى.

وقد برزت شخصية محورية في تلك المواجهات هي شخصية توماس إدوارد لورانس – المشهور أكثر باسم "لورانس العرب" بسبب علاقة الولاء التي تمكن من نسجها مع الشريف حسين وابنه الأمير فيصل. ونتيجة هذه العلاقة الوثيقة مُنح لورانس لقب الابن الفخري للأول (الشريف حسين)، كما حارب في كثير من المعارك تحت قيادة الثاني (فيصل) وصار لاحقاً مستشاره. وعندما عرض العثمانيون ١٥ ألف جنيه مكافأة على رأس لورانس، لم يغرِ هذا المبلغ عربياً واحد لخيانته. لكن، للأسف، هذا التصرف النبيل والمحترم من العرب لم يتم الرد عليه بمثله. ففي مذكرة للاستخبارات البريطانية عام ١٩١٦ وصف لورانس الأجندة الخفية وراء تشجيع قيام الثورة العربية: "العرب أقل استقراراً من الأتراك. إذا ما تمّ التعاطي معهم بالطريقة الصحيحة فإنهم سيبقون في حالة فسيفساء سياسية، منقسمين، غيورين، لديهم إماراتهم، غير قادرين على أن يكونوا متلاحمين... غير قادرين على القيام بتحرك منسّق ضدنا". وفي مراسلة أخرى شرح لورانس قائلاً: "عندما اندلعت الحرب أضيف أمر عاجل هو تقسيم الإسلام... اختير (الشريف) حسين بسبب الشرخ الذي سيحدثه في الإسلام. بعبارة أخرى: فرّق تسد".

لكن "ذوق" الغرب في الإسلاميين لم يرسُ على مذهب معين. ففي العراق الخاضع آنذاك للحكم البريطاني "روّجت لندن أحياناً إما للقادة الدينيين السنّة أو الشيعة من أجل (ضمان) استمرار سيطرتها على الأرض".

أمن النفط والسياسة الخارجية الغربية

دعونا نتقدم بالتاريخ إلى الخمسينيات والستينيات، وهي حقبة كان النفط فيها قد بات عاملاً أساسياً في أجندات السياسة الخارجية للغرب. مجدداً تم وضع مبدأ "فرّق تسد" موضع التطبيق. فقد سجّلت مذكرة من الحكومة البريطانية عام ١٩٥٨: "مصالحنا تقع... في بقاء المناطق الأساسية الأربع لإنتاج النفط (السعودية والكويت وايران والعراق) تحت سلطات سياسية منفصلة" (أي أن لا تتوحّد هذه الدول). وبنتيجة مثل هذه السياسة سلّح الغرب طرفي حرب العراق وإيران اللذين كادا أن يدمران بعضهما

بعضاً في الثمانينيات، ثم في حرب الخليج الأولى (لمنع العراق من ضم الكويت) بين عامي ١٩٩٠ و١٩٩١.

إضافةً إلى ذلك، كانت الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والقوى الأوروبية الأخرى تشعر بقلق شديد من الوحدة الممكن أن تحققها القومية العربية، وهي حركة شعبية جداً كان نجمها الزعيم المصري الراحل جمال عبد الناصر وحلفاؤه الأقوياء في العراق وسوريا. فقد كانت فكرة إمكانية أن تتوحد هذه الدول الثلاث الضخمة إقليمياً واليسارية التوجه على الصعيدين السياسي والعسكري، خصوصاً في مواجهة إسرائيل، بمثابة الكابوس للقوى الغربية التي قامت بكل شيء يمكنها القيام به من أجل إحباط مثل هذا الاحتمال.

ومن أجل إيجاد قوة توازن في مواجهة تصاعد موجة القومية العربية، بدأ الغرب يدعم الاتجاهات الإسلامية داخل كل دولة من هذه الدول - خصوصاً أفرع جماعة الإخوان المسلمين - وعمل جاهداً في الحقل الديلوماسي من أجل إيجاد علاقات قوية ومتينة مع الأنظمة الملكية الإسلامية المؤيدة للغرب في المملكة العربية السعودية ودول الخليج الأخرى والأردن، وهي علاقات صمدت حتى يومنا هذا وما زالت مصدراً لكثير من المشاكل المعاصرة في الشرق الأوسط، مثلما سنرى.

يتمثّل التعبير الأكثر شدةً للإسلام الراديكالي السنّي في الوهابية السعودية التي بدأت الرياض نشرها عبر سلسلة من المنظمات الدولية ومن خلال منظمة "الدعوة الإسلامية العالمية". وفي العام ١٩٦٢ أشرفت السعودية على تأسيس "رابطة العالم الإسلامي" التي وُظّف في أجهزتها عدد كبير من أعضاء جماعة "الإخوان المسلمين" الذين يعيشون في المنفى.

لكن علاقة الغرب (والأنظمة الملكية في الخليج) مع "الإخوان المسلمين" كانت دائماً غير ثابتة وتعتمد كلياً على المصالح الذاتية. وسأعالج هذا الأمر بالتفصيل بعد قليل، لكن دعني أذكّر القارئ أنه في الفترة التي سبقت والتي تلت "الربيع العربي" ضد حكم حسني مبارك كانت الولايات المتحدة وبريطانيا تدعمان عملياً "الإخوان المسلمين" بوصفهم الكيان السياسي المعارض صاحب التجربة والأكثر صدقية (وربما الوحيد). لكن هاتين الدولتين، مدفوعتين بالمملكة العربية السعودية، غيّرتا موقفهما فجأةً في العام ٢٠١٤ وأعلنتا جماعة "الإخوان المسلمين" بوصفها "إرهابية" بعد محاكمة قادتها على أيدي الحكم المصري الجديد العلماني التوجّه والذي يقوده الجيش الذي نفّذ انقلاباً على الرئيس الإسلامي محمد مرسي في حزيران/ يونيو ٢٠١٣. ولا شك أن مصر بقيادة السيسي، قائد الانقلاب على مرسي، ستكون صديقاً

أفضل لإسرائيل، وستقمع بوحشية، مثل السعودية، أي محاولة جديدة للثورة، معطيةً بذلك للحكم في الرياض دعماً معنوياً في معركته من أجل البقاء. وكما سنرى، فإن البراغماتية السياسية السعودية تتطور وفق العلاقة الوثيقة للمملكة مع كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، وهي الآن - السياسة السعودية - واحدة من أهم الدوافع القوية للفوضى في الشرق الأوسط، بما في ذلك تداعيات ظهور "الدولة الإسلامية في العراق والشام".

الشيوعية: "العدو الرقم واحد الأول"

منذ الخمسينيات تلقت جماعة "الإخوان المسلمين" الدعم والتمويل من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (سي آي إيه). وعندما قرر عبد الناصر القضاء على الجماعة في مصر، ساعدت وكالة الاستخبارات المركزية قادتها على الهجرة إلى السعودية حيث تم دمجهم ضمن المدرسة الوهابية المطبّقة في المملكة، وصعد كثير منهم إلى مراكز تتمتع بنفوذ واسع. وفي حين منعت السعودية بحزم إنشاء أي فرع تابع لجماعة "الإخوان" في المملكة نفسها، إلا أنها شجعت ودعمت مالياً هذه الجماعة في أنحاء العالم العربي. وأحد أبرز قادة الجهاد الأفغاني (١٩٧٩-١٩٨٩) المدعومين من الغرب كان عضو جماعة "الإخوان المسلمين" المتعلّم في القاهرة برهان الدين رباني، زعيم تنظيم "جماعتي إسلامي" (الجماعة الإسلامية).

شعرت الولايات المتحدة، وبشكل أقل بريطانيا، بالقلق من تصاعد المد الشيوعي الذي تم توصيفه على أنه "عدو الحرية" - وهو الوصف الذي سيتم تطبيقه لاحقاً على المتشددين الإسلاميين. وفي المعايير الجغرافية - السياسية غطّى الاتحاد السوفييتي، عقب نهاية الحرب العالمية الثانية، سُدس مساحة الكرة الأرضية، وكان قوة عظمى قادرة على خوض صدام مدمّر مع الولايات المتحدة. كما كانت الولايات المتحدة قلقة أيضاً من التحالفات المستقبلية للصين بعدما سيطر الحزب الشيوعي على السلطة في بكين عام ١٩٤٩. وحتى على الصعيد الداخلي شكّلت الشيوعية (ونسيبتها الأقل نفوراً "الاشتراكية") تهديداً سياسياً للغرب، نظراً إلى حملها مفهوم الثورة الحتمية التي تبنّاها ملايين الأميركيين والأوروبيين في أعقاب الحرب والذين كانوا يسعون إلى مجتمع عادل وأكثر حرية وأكثر مساواة. وبمفهوم السياسة الخارجية، شاهد الغرب برعب الشعبية المتزايدة للشيوعية والاشتراكية في الشرق الأوسط - كانت فكرة قيام أنظمة عربية ثورية مؤيدة للسوفييت غير مقبولة بتاتاً للغرب لأسباب عديدة أهمها

التهديد الذي سيشكله مثل هذا الأمر على أمن إمدادات النفط.

بالنسبة إلى الغرب، مثّل الإسلام الراديكالي مصدر التوازن الأكثر احتمالاً في مواجهة القومية العربية، وكما رأينا، ضد الشيوعية الآن.

في وصفه للأبحاث التي قام بها خلال إعداد كتابه **علاقات سرية: تواطؤ بريطانيا مع الإسلام الراديكالي**، لاحظ مارك كيرتس أنه في كل الوثائق الخاصة بالسياسة الحكومية، التي تعدّ بالمئات والتي راجعها فريقه، "كانت مصالح شعوب المنطقة غير ذات أهمية بالنسبة إلى واضعي الخطط البريطانية. بالكاد هناك أي إشارة إليهم (شعوب المنطقة)... تمّت التضحية بحقوق أهل الشرق الأوسط على مذبح الاهتمامات الجيوستراتيجية الصافية، وتلك المحافظة جداً في هذا المجال، والتي لم تتعافَ المنطقة من تداعياتها بعد".

بعد "نكسة" حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، لاحظ مخططو السياسة الأميركيون والبريطانيون بعين الرضا أن الوحدة العربية والشعور بالمصير المشترك بدأ يُعبّر عنه من خلال إحياء الأصولية الإسلامية والدعوات الواسعة الانتشار من أجل تطبيق الشريعة. وقد تواصلت هذه الصحوة الأصولية خلال حقبة السبعينيات، ومع نهاية ذلك العقد أنتجت "المجاهدين العرب" الذين قاتلوا ضد الجيش السوفييتي في أفغانستان على مدى السنوات العشر المقبلة.

وكما في سوريا والعراق، لم يكن الجهاديون السنّة وحدهم في الثورة الأفغانية. فقد كانت هناك سبع جماعات سنّية أساسية، مسلّحة وممولة (بنحو ستة بلايين دولار) من الولايات المتحدة والسعودية، وأيضاً من المملكة المتحدة وباكستان والصين. أما "مكتب الخدمات" التابع للشيخ عبد الله عزام، الذي ضمّ في عضويته أسامة بن لادن ومن رحمه خرج تنظيم القاعدة، فقد كان آنذاك مجرد مجموعة تعمل في إطار فصائل المجاهدين الأفغان، ومن ضمنهم فصيل قلب الدين حكمتيار.

وهناك أمر يغيب ذكره عندما تتم إعادة تلاوة قصة الحرب الأفغانية، وهو أن التمرد كان في الحقيقة إسلامي التوجّه منذ البداية (وهو مفهوم يجده الغرب خطيراً): فقد كانت هناك ثماني جماعات شيعية أفغانية مدرّبة وممولة من إيران، بالإضافة إلى الجماعات السنّية. وفي المراحل الأولى للتمرد العراقي حارب "جيش المهدي" التابع لمقتدى الصدر إلى جانب المقاومة السنية، ونجح هذا التحالف الإسلامي الموقت (الشيعي – السني) في هزيمة الأميركيين في الفلوجة. ولذا فلا عجب أن الغرب عمل جاهداً من أجل تشجيع النزاع المذهبي الدموي الذي يمزق الشرق الأوسط حالياً.

وفي الواقع، سبق هذا التدخل الغربي في أفغانستان الغزو السوفييتي ببضعة شهور، وهو أمر لا يتم الإقرار به سوى في النادر. ولكن في إطار هذا الكتاب ربما من المفيد متابعة خيط

الدوافع والأساليب التي وظّفتها القوى الأجنبية لتحقيق غاياتها في أفغانستان، لأن هذا تماماً ما يتكرر حالياً في العراق وسوريا.

فموقع أفغانستان وحدودها الطويلة مع الصين وباكستان يجعل منها ذات قيمة استراتيجية، وقد تقاتلت القوى المتنافسة للسيطرة عليها على مرّ القرون. وجلب انقلاب عام ١٩٧٨ (الثالث في خمس سنوات) إلى السلطة محمد طاراقي المؤيد للسوفييت، وهو أمر أطلق صفارات الإنذار في إسلام آباد وواشنطن ولندن والرياض. وقد حاول جهاز الاستخبارات الباكستاني (آي أس آي) في البداية إشعال ثورة إسلامية، لكن ذلك فشل نتيجة غياب التأييد الشعبي. بعد ذلك، وقبل خمسة أشهر من الغزو السوفييتي، أرسل الرئيس الأميركي جيمي كارتر عوناً سرياً إلى جماعات معارضة إسلامية، بمساعدة من باكستان والسعودية. وكتب مستشار كارتر لشؤون الأمن القومي زبغينو بريجنسكي مذكرة إلى رئيسه قال فيها إنه إذا ثار الإسلاميون فإنهم "سيحفزون حصول تدخل عسكري سوفييتي من المرجح أن يفشل، وسيعطي للاتحاد السوفييتي (مستنقعهم) فيتنامهم". وعندما وقع انقلاب عسكري جديد في كابول، في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٩، وجاء بنائب رئيس الوزراء حفيظ الله أمين إلى السلطة، اعتبرت موسكو أن موقعه لا يمكن الدفاع عنه، وغزت أفغانستان في كانون الأول، ديسمبر من ذلك العام، ما أدى إلى مقتل أمين وتعيين رجل السوفييت، بابراك كارمال، في مكانه. وهنا أرسل بريجنسكي بمذكرة إلى كارتر حدد فيها استراتيجيته المقترحة: "علينا أن ننسّق مع الدول الإسلامية حملة دعائية والقيام بعمل سري لمساعدة الثوار".

آنذاك كان الدور البريطاني بمثابة الشريك الأصغر، مقارنةً بالأميركيين، لكن رئيسة الوزراء مارغريت ثاتشر قامت بهذا الدور عن اقتناع شديد. وفي ١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٩ أعلنت ثاتشر بحماسة تأييدها للإسلام الراديكالي خلال لقاء مع رابطة السياسة الخارجية في نيويورك، وذهبت إلى حد مدح الثورة الإيرانية قائلةً: "الشرق الأوسط منطقة لدينا فيها رهان كبير... فمن مصلحتنا الخاصة أنهم ينون تقاليدهم الدينية العميقة الخاصة بهم. لا رغبة لنا في أن نراهم يخضعون للجاذبية المزورة للماركسية المستوردة".

أصرّت ثاتشر، أمام برلمان بلادها، على أن المجاهدين الأفغان لا يجب أن يتم وصفهم بأنهم "متمردون" بل هم "شعب يقاتل من أجل الدفاع عن بلدهم ضد غزاة أجانب". وعندما استقبلت وفداً من المجاهدين في مقر رئاسة الحكومة في داونينغ ستريت، قالت لهم: "لقد رفضتم أن تعيشوا في ظل نظام لا يؤمن بالله يحاول أن يدمّر دينكم". وكان أحد أعضاء الوفد الذي رحّبت به في ذلك الاجتماع قلب الدين حكمتيار الذي اشتهرت روايات عن مقاتليه

أنهم يسلخون جلود أعدائهم. لكن اللافت أنه عندما تعلق الأمر بمنظمة التحرير الفلسطينية التي تتصدى للاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية، أو بالمؤتمر الوطني الأفريقي الذي يكافح ضد التمييز العنصري الذي يقوم به الرجل الأبيض الغريب عن أفريقيا، فإن "السيدة الحديدية" لم تتردد في وصف هذه الحركات بـ"الإرهابية".

ومثلما أن "الدولة الإسلامية في العراق والشام" هي نتاج للتدخلات الغربية في سوريا والعراق، فإن أياً من القوى التي دعمت المجاهدين الأفغان لم يتوقّع ظهور "القاعدة" بأجندتها المعادية بقوة للغرب وطموحها لإعادة إنشاء الخلافة. وقد كتب الرئيس الباكستاني السابق برويز مشرف في مذكراته: "لا باكستان ولا الولايات المتحدة أدركت ما الذي سيفعله أسامة بن لادن بالمنظمة التي سمحنا كلنا له بإنشائها".

تعريف التطرف: معضلة الغرب

خلال حقبة التسعينيات أصبح الإسلام السياسي الراديكالي أكثر تشدداً – في تحوّل شجعته السعودية وموّلته. بدأ نجم جماعة "الإخوان المسلمين" في الخفوت حيث تم تعيير قادتها بأنهم "معتدلون" زيادة عن اللزوم، وأنهم يشاركون في العملية الديموقراطية في مصر حيث كانوا يترشحون بوصفهم "مستقلين"، وكانوا يحققون نتائج جيدة بحيث أنهم باتوا القوة المعارضة الأساسية ضد نظام حسني مبارك. كان هناك سبب آخر لفقدان "الإخوان المسلمين" رضا السعودية عنهم، فقد أيدت هذه الجماعة غزو صدام حسين للكويت عام ١٩٩٠. عندها بدأ آل سعود يربطون بقاءهم بصعود نجم العناصر السلفية الجهادية في الإسلام الراديكالي، وهي عناصر تعتمد على الأيديولوجية الوهابية ذاتها المعتمدة في السعودية.

نظر الغرب إلى هذا التغيير نحو التطرف الزائد بنوع من القلق حيث باتت معركة السلفيين عالمية: فقد سافر الجهاديون العرب عبر أوروبا الشرقية للقتال إلى جانب البوسنيين المسلمين عام ١٩٩٢، وكان تفجير برجي مركز التجارة العالمية في نيويورك عام ١٩٩٣ أول محاولة من الإسلاميين الراديكاليين لنقل معركتهم إلى داخل الولايات المتحدة، كما قام جهاديون من شمال أفريقيا من أعضاء "الجماعة الإسلامية المسلحة" المرتبطة بـ"القاعدة" بتفجير مترو الأنفاق في باريس ما أدى إلى مقتل ثمانية أشخاص وجرح مئة آخرين.

وربما نتيجة لعدم وجود رغبة في تحدي السعودية، التي كان مواطنوها أكبر ممول وداعم لـ"القاعدة" والجماعات المتشددة الأخرى، تبنّت الولايات المتحدة وبريطانيا

نهجاً "مسترخياً" في التعامل مع هذا النوع من الإسلام الراديكالي. فلم تعتبر الحكومة البريطانية وأجهزة الأمن أن المتطرفين يشكلون تهديداً حقيقياً، وسمحوا لهم بتأسيس ما تطلق عليه وسائل الإعلام اسم "لندنستان" خلال حقبة التسعينيات. يمكن أن يُجادل هنا أن هذه الصيغة كانت ناجحة بحيث أنها سمحت للمتشددين بالعيش في العاصمة البريطانية والقيام بأعمالهم دون مضايقات، وفي المقابل امتنع الجهاديون عن القيام بأعمال عنف في شوارع بريطانيا. وفي الحقيقة، أكّد لي أبو مصعب السوري، الذي كان يُعتبر من أوجه "لندنستان" البارزة - والتي تضمنت أيضاً "سفير" أسامة بن لادن في لندن خالد الفواز - أنه كان هناك بالفعل معاهدة ضمنية غير معلنة بين المتشددين والاستخبارات البريطانية.

ويقدّر أن الأموال التي رصدتها جهات سعودية لتمويل القاعدة وجماعات سلفية أخرى تصل إلى حدود ٣٠٠ مليون دولار منذ التسعينيات وحتى هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، وعلى رغم ذلك بقيت الولايات المتحدة وبريطانيا في صف السعودية. بعد سنة من مغادرة مارغريت ثاتشر البرلمان نهائياً، قالت في لقاء في تشاتام هاوس عام ١٩٩٣ إن "المملكة العربية السعودية قوة اعتدال قوية وقوة استقرار في الساحة العالمية". وعندما تمّت مواجهتها بسجّل الرياض المشين في مجال حقوق الإنسان ردّت قائلةً: "ليست لدي أي نية في التدخل في شؤونها الداخلية". ولاحقاً سيتحدث توني بلير عن "محور الاعتدال" الشرق أوسطي الذي يتألف، بنظره، من السعودية ودول الخليج وتركيا والسلطة الفلسطينية وإسرائيل.

جلبت حرب الخليج الأولى تغييرين جديدين إلى المسرح. الأول يكمن في أن السعودية باتت الآن معتمدة كلياً على الولايات المتحدة في بقائها - مثلها مثل دولة إسرائيل؛ والثاني أن الولايات المتحدة بدأت تكرر في الشرق الأوسط نهجها الدموي، المتلاعب، العنيف الذي عبّرت عنه في البداية في فيتنام. فمن أجل إضعاف صدام حسين شجّعت الـ"سي آي إيه" الجماعات الشيعية في جنوب العراق على التمرد، قبل أن تسمح عملياً لصدام بسحقها بقواته الجوية، مما أدى إلى مقتل آلاف الشيعة بنيران مروحيات النظام.

كان الأمر عبارة عن تدخل أميركي مفضوح من البداية إلى النهاية، وأنفقت إدارة الرئيس جورج بوش الأب ٤٠ مليون دولار على العمليات السرية في العراق، وتولى الأميركيون نقل قادة عراقيين شيعة وأكراد إلى السعودية لتلقي تدريبات، كما تولوا في الوقت ذاته إنشاء وتمويل كتلتي المعارضة الأساسيتين: الوفاق الوطني العراقي، بقيادة عدنان نورا الذي بنى علاقات وثيقة مع المخابرات البريطانية (أم آي ٦)، والذي سيتم إعدامه بعد محاولة انقلاب فاشلة عام ١٩٩٦، والمؤتمر الوطني العراقي بقيادة أحمد الجلبي الذي كان قريباً من وزارة

الدفاع الأميركية. وعلى رغم ذلك بقي صدام حسين في الحكم لـ ١٢ سنة جديدة، على رغم العقوبات القاسية التي تم فرضها على نظامه. وقد شكل ذلك فشلاً لمحور الولايات المتحدة – بريطانيا – السنّة "المعتدلين".

ميّزت السياسات القصيرة المدى حقبتي بوش (الأب والابن) وحكومتي ثاتشر وتوني بلير. إذ كانت الأهداف الآنية يُسعى إليها بأي وسيلة متاحة ودون أدنى تفكير بالنتائج البعيدة المدى أو التبعات غير المقصودة لما يتم القيام به. هذه النظرة القصيرة المدى، والمترافقة مع إخلاص وضيع لمتطلبات أسواق رأس المال، قد تشكّل الضربة القاضية لسياسات الغرب في الشرق الأوسط. ففي البدء سمحت هذه السياسة القصيرة المدى لـ"القاعدة" بالظهور بعد الحرب الأفغانية، ثم سمحت لهذا التنظيم بأن يزدهر في العراق في ظل الاحتلال، كما سمحت لخليفة "القاعدة" الأكثر دمويةً، تنظيم "الدولة الإسلامية"، بالظهور من بين أنقاض النزاعات المذهبية في العراق وسوريا.

ولا شك أن سيطرة الولايات المتحدة والمملكة المتحدة على مسرح الشرق الأوسط، ديبلوماسياً وعسكرياً، اعتمدت كلياً على الدعم الذي يتم الحصول عليه من الأنظمة الملكية السنّية في البلدان النفطية والتي تعتمد في بقائها، بدورها، على الهيمنة العسكرية الأميركية. لكن حرب الخليج الثانية، عام ٢٠٠٣، التي حضّرتها الولايات المتحدة وبريطانيا وتلاعبتا بها، كانت لها نتائج كارثية غير مقصودة تمثّلت بتقديم العراق على طبق من ذهب لعدوة الغرب، إيران، كما ساهمت مباشرةً في الفوضى الحالية التي تعمّ المنطقة. فهذه الفوضى هي التي سمحت بظهور تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين ثم "الدولة الإسلامية" المتحدرة من تنظيم "الدولة الإسلامية في العراق".

وعلى رغم كل ذلك واصلت واشنطن والمؤسسة البريطانية الحاكمة سياسة التحالف مع الإسلام "المعتدل" بوصفه المفتاح لهزيمة المتطرفين. وأعطت وثيقة حكومية تعود إلى العام ٢٠٠٤، أعدّها سفير بريطانيا في دمشق باسيل إيستوود وريتشارد مورفي الذي كان مساعد وزير الخارجية الأميركي في إدارة ريغان، صورة واضحة عن التغييرات الأساسية التي يشهدها الإسلام السياسي في الشرق الأوسط وأوصت بأن تأخذ السياسة الخارجية الغربية ذلك التغيير بعين الاعتبار. وقد لاحظ المسؤولان، في المقام الأول، "أن في الشرق الأوسط العربي الحقيقة الصعبة (أو المرة) أن معظم الحركات المؤثرة التي تتمتع بدعم شعبي هي تلك المرتبطة بالإسلام السياسي". وهذا الأمر سيظهر جلياً، بالطبع، في التطورات الدراماتيكية التي تلت الثورات العربية في مصر وتونس حيث هيمن الإسلاميون على أول انتخابات تُجرى بعد الثورات. وللمرة الأولى ميّز الغربيون هنا بين صنفين متباعدين من جماعات الإسلام السياسي: أولئك "الذين يسعون إلى التغيير لكنهم لا يدعون إلى العنف لقلب الأنظمة،

والجهاديون... الذين يدعون إلى ذلك".

اكتسب هذا النموذج قوة جاذبية أكبر لاحقاً. ففي العام ٢٠٠٦ قال توني بلير بوضوح إن القتال المقبل في الشرق الأوسط سيكون بين الإسلاميين "المعتدلين" وبين "المتشددين". الغرب، كما قال بلير أمام مجلس الشؤون العالمية في لوس أنجلس، سيسعى إلى "تفويض" المعتدلين وتعزيز وضعهم، موضحاً: "نريد أن ينتصر التيار الإسلامي المعتدل على الإسلام الرجعي". وكما في حال أسلافه في داونينغ ستريت، فإن هذه الرغبة لم تكن نابعة من اهتمام برفاهية مواطني الشرق الأوسط، ولكن من ضرورات مالية. فقد ركّز على الفوائد الاقتصادية التي يمكن أن تجنيها المؤسسات والمنظمات الكبيرة المتعددة الجنسيات، قائلاً إن "انتصار المعتدلين يعني إسلاماً مفتوحاً: المفتوح يعني العولمة".

نظرة إلى الماضي القريب ستظهر أنه عندما كان يتحدث صانعو السياسة الغربيون عن "المعتدلين" فإنهم كانوا يتحدثون إلى حد كبير عن السعودية ودول الخليج. لكنهم مع حلول القرن الواحد والعشرين لم يكونوا قد حسموا رأيهم في شكل تام في شأن جماعة "الإخوان المسلمين". بادرت المملكة المتحدة والولايات المتحدة إلى فتح قنوات اتصالات مع "الإخوان المسلمين" عندما حقق هؤلاء نتائج قوية في الانتخابات المصرية عام ٢٠٠٥ (ترشحوا "مستقلين" بما أنهم جماعة محظورة خلال حكم مبارك). والظاهر أن الأميركيين والبريطانيين كانوا مهتمين بإثارة القلاقل في هذه الدولة العربية القوية قبل سنوات من نشوء الثورات العربية. كما التقت بريطانيا والولايات المتحدة مع قادة جماعة "الإخوان المسلمين" السورية في المنفى عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨، علماً أنه قبيل غزو العراق عام ٢٠٠٣ قال توني بلير للبرلمان البريطاني في شباط/ فبراير في ذلك العام إن العراق يدعم الإرهاب من خلال "جماعات إسلامية راديكالية مثل جماعة الإخوان المسلمين السورية". وفي العامين ٢٠٠٨ و٢٠٠٩ طمأن المسؤولان البريطانيان جاك سترو وهيزيل بليرز البرلمان إلى أن جماعة الإخوان المسلمين "ليست جماعة إرهابية". وفي العام ٢٠١١ حضت هيلاري كلينتون على إقامة علاقات جيدة مع جماعة "الإخوان المسلمين"، التي كانت تقود آنذاك الحكومة المنتخبة في مصر، وقالت للكونغرس إنهم "مسالمون وملتزمون بعدم اللجوء إلى العنف". ولكن في العام ٢٠١٤ صنّفت المملكة المتحدة والولايات المتحدة والسعودية جماعة "الإخوان" بوصفها جماعة إرهابية. وفي الوقت ذاته كانت "القاعدة" ومنظمات تحمل فكراً شبيهاً تؤنّب "الإخوان" على رغبتهم في المشاركة في العملية الديموقراطية وعلى ابتعادهم عن العمل المسلح.

يواصل الغرب الاعتقاد أن السعودية "المعتدلة" ستخلّص العالم من آفة التطرف،

وهذا أمر يثير دهشة كثير من المعلقين الشرق أوسطيين بما أن المملكة العربية السعودية أنفقت ٥٠ بليون دولار على نشر الوهابية حول العالم، كما أن معظم التمويل لـ"القاعدة" ومنظمات شبيهة بها - يقدر ببلايين الدولارات - ما زال يأتي من أشخاص ومنظمات في السعودية نفسها. بالإضافة إلى ذلك يواصل مواطنون سعوديون ملء المواقع في تنظيم "الدولة الإسلامية" الحالية، كما أنهم شكلوا ٤٥ في المئة من المقاتلين الأجانب في العراق عام ٢٠٠٧ بحسب ما أظهرت وثائق "ملفات سنجار" التي تسجّل المتطوعين الأجانب الملتحقين بالقتال في العراق.

وجاءت الثورات العربية لتعكّر المياه أكثر - خصوصاً في ليبيا وسوريا - حيث جعلت من المستحيل تقريباً التمييز بين "المعتدلين" و"المتشددين". ونتيجة للخطأ الذي تم ارتكابه في ليبيا - حيث عزز التدخل الغربي الراديكاليين وحرّر ترسانات السلاح المتطور التي كانت تتبع نظام القذافي المنهار والتي سارع الجهاديون إلى شحنها إلى معاقلهم - تخلى الرئيس باراك أوباما عن سياسته السورية، مثيراً غضب حليفته السعودية، وسمح لأكثر الجماعات المتشددة بأن تصبح القوة المهيمنة، وحتى أنه ساعد في تسليحها بطريقة غير مقصودة.

ختاماً، لعبة "فرّق تسد" الاستعمارية تكون ممكنة فقط حينما تكون الخطوط مرسومة بوضوح على الطاولة، وهذا لم يعد الحال في الشرق الأوسط حيث هيكلية التحالفات تروح وتجيء وسط الاضطرابات التي تترافق مع الفوضى.

لقد حقق التواطؤ الأميركي - البريطاني مع الإسلام الراديكالي في نهاية الأمر عكس الهدف الذي حصل من أجله: فقد ساهم في تغذية وتقوية أكثر ما عرفه العالم من مظاهر الإسلام المتشدد - أي تنظيم "الدولة الإسلامية في العراق والشام" - وجعل من قيام حكومات علمانية، ليبرالية أو ديموقراطية - التي يقول الغرب إنه ينشدها - أمراً أشبه بالمستحيل. وكنتيجة لذلك غرقت المنطقة في صراع عنيف لا ينتهي على السلطة وفي دورة لا نهاية لها من الحروب المذهبية.

المصادر

- Mark Curtis, Serpents Tail, *Secret Affairs: Britain's Collusion with Radical Islam*, London, 2010.
- These were, *IRM, Gulbuddin faction, Ittehad-i-Islami, Jamiat-i-islami*, NLF and NIFA.
- These were, *Harakat-i-Islami, the Afghan branch of Hezbollah*, Nasr Party, COIRGA, Shura Party, IRM, UOIF and the Raad Party.

- MSNBC, 8/24/1998.
- *Guardian*, 20 September 2003.
- *Secret Affairs*.
- Pervez Musharraf, *In the Line of fire: A Memoir*, Simon & Schuster, New York, 2006.

الفصل الحادي عشر

مستقبل الدولة الإسلامية

في فترة قصيرة أسست "الدولة الإسلامية" دولة حسب تعريف القانون الدولي، وهذه الدولة تسعى للتمدد، ومن الصعب جداً تدميرها بالوسائل العسكرية لأنها منتشرة في أماكن كثيرة، في قرى وبلدات ومدن إلخ... وتحظى بدعم جماعات إسلامية مثلها في مختلف أنحاء العالم، ويمكن أن تعيد تركيز طاقاتها بحيث تتخلى عن المعارك التي لا يمكن كسبها وفتح معارك أخرى جديدة.

بعض الجماعات الإسلامية قاومت مبايعة "الدولة الإسلامية" ولكنها بدأت تدريجياً، بما في ذلك تنظيم "القاعدة الأم"، تتراجع وتؤيد، حركة طالبان الأفغانية أيّدت دون أن تبايع، لأن لها خليفة خاص بها (الملا عمر)، ولكن ستجد نفسها مجبرة في نهاية المطاف على أن تنحني وتقبل بمجريات التاريخ، أو تنخرط في حرب ضد "الدولة الإسلامية".

الخطر الأكبر إذا اتفق الطرفان (الدولة وطالبان) ووضعا خلافاتهما جانباً وقررا خوض الحروب سوياً، الأمر الذي قد يحدث تحولاً أساسياً في منطقة الشرق الأوسط وآسيا.

المنطقة منشغلة الآن في الصراع الطائفي بين المملكة العربية السعودية وايران، ولهذا لا تتحرك بفاعلية لمواجهة "الدولة الإسلامية"، وحتى لو تحركت الدولتان، منفردتين أو مجتمعتين، فقد تكون هذه الخطوة متأخرة جداً.

عوامل تاريخية مجتمعة: الطائفية، الربيع العربي ومحاربة الطواغيت، الفوضى، الدولة الفاشلة، والانترنت، تضافرت كلها، إلى جانب عقلية الغرب الصليبية، بحيث جعلت من أحوال المنطقة أكثر سوءاً.

مفهوم تدخل الغرب عسكرياً في إطار تحالف من ستين دولة بقيادة الولايات المتحدة،

ودون تحمل أي مسؤولية للنتائج التي قد تترتب على هذا التدخل لاحقاً، أدى إلى زعزعة استقرار المنطقة، ومن أجل السيطرة عليها، فالنظرة إلى الغرب باتت تتلخص في أنه يريد قلب القيم الدينية والثقافية.

ولمعرفتها بأهمية الحصول على الشرعية الدينية، وللردّ على اتهامات خصومها بأنها لا توجد لديها مرجعية شرعية، عيّنت "الدولة الإسلامية" الداعية السعودي بندر بن شعلان لكي يجنّد دعاة محترمين في الأوساط الإسلامية، ولكن النجاحات التي حققتها قوات الدولة في ميادين المعارك كانت أكثر جذباً للشباب من الدعاة التقليديين وخطبهم وأدبياتهم.

عدم وجود سلاح جوي أو دفاعات جوية فاعلة وصواريخ بعيدة المدى هي من نقاط ضعف "الدولة الإسلامية"، ولكن ما يمكن أن يعوض هذا النقص قدرات المقاتلين العالية واستعدادهم للإقدام على عمليات انتحارية والصمود حتى "الشهادة" في ميادين القتال.

موت الخليفة البغدادي قد يكون أحد الأخطار الكبرى التي تواجه الدولة، وأكثر خطراً من الاقتتال الداخلي أو حدوث انشقاقات، ولكنه فيما يبدو يحظى بحماية أمنية قوية، مضافاً إلى ذلك إقامته نظاماً إدارياً قوياً، وتعيينه مساعدين أكفاء، وإنشائه حكومة بنيت على أسس صلبة. وهذا البناء التنظيمي القوي يسمح بتعيين "خليفة" جديد، أو حتى عزل الخليفة الحالي، فالدولة ليست دولة الرجل الواحد مثل تنظيم "القاعدة" تضعف باغتيال زعيمها.

لم يسبق في تاريخ الجماعات الجهادية المسلحة أن سيطرت إحداها على مساحة شاسعة من الأرض، ورفعت علمها فوق مؤسساتها، وفرضت الضرائب، وأقامت المحاكم، وثبتت الأمن، واكتفت ذاتياً، مالياً وتسليحياً، وأنشأت نظاماً إدارياً متكاملاً، مثلما فعلت "الدولة الإسلامية"، ولهذا فإن فرص استمرارها وتمددها أكبر من أي تنظيم آخر عرفته المنطقة، ومن غير المتوقع أن تختفي من الخريطة السياسية والعسكرية بسهولة. وإذا كان تنظيم "القاعدة" الذي سبقها، وتأسس وترعرع في أفغانستان، بعيداً عن بيئته العربية الحاضنة بآلاف الأميال، استطاع أن يستمر، رغم الضربات الأميركية المكثفة والحروب التي شنت ضده، لأكثر من عشرين عاماً، ينفّذ خلالها العديد من العمليات والهجمات العسكرية على أهداف أميركية وأوروبية، إحداها هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠١، فإن فرص "الدولة الإسلامية" واستمرارها، بل وربما توسعها، ستكون أكبر، لأنها أكثر تنظيماً وتماسكاً، وتعيش وسط أهلها، ليست "ضيفة" على أحد، ولا تأتمر بإمرة أحد، ولا تعتمد على أحد في تمويلها وتسليحها، ولا تقدم البيعة لأحد غير زعيمها وخليفتها أبو بكر البغدادي.

الأسباب التي أدت إلى قيام هذه "الدولة"، وهي أعمال التهميش والإذلال التي تعرض لها أبناء الطائفة السنية في العراق، والصراع الطائفي بين الطرفين الأساسيين في المعادلة

الطائفية، أي السُنة والشيعة، ومحاولات صب الزيت على نار الفتنة الطائفية لتأجيج هذا الصراع الطائفي من قوى داخلية وأخرى خارجية، في طريقها كلها، مجتمعة أو متفرقة، إلى التصاعد لعدة سنوات وربما عقود قادمة. فاستبدال السيد حيدر العبادي بالسيد نوري المالكي لم يغير كثيراً في الطابع الطائفي للحكومة ولم ينل ثقة الطائفة السنية بالشكل المطلوب والدول العربية الأخرى قبل السعودية ودول الخليج الأخرى حتى كتابة هذه السطور، واختياره طهران لكي تكون العاصمة الأولى التي يزورها بعد اكتمال حقائب حكومته أحدث "صدمة" في أوساط بعض العراقيين.

المنطقة كلها، والعراق وسورية على وجه الخصوص، مقدمة على حرب أهلية طاحنة، أشد شراسةً من القائمة حالياً، ومن غير المستبعد أن يتم توريط معظم الدول المحيطة بالبلدين، مثل تركيا وإيران والمملكة العربية السعودية، فيها وبشكل مباشر، فالمسألة مسألة وقت وتوقيت.

حدود "الدولة الإسلامية" يمكن أن تنكمش أو تتمدد في السنوات المقبلة، حسب سير المعارك واتساع دائرتها، والدول المشاركة في الحرب لتصفيتها، ولكن فرص صمودها واستمرارها أكبر كثيراً من فرص زوالها، مهما تعاظمت الضربات الجوية التي تشنّها الطائرات الحربية الأميركية على مواقعها، لأن فرص حسم المعارك من الجو تتضاءل، ولأن "الدولة" بدأت تتأقلم مع هذه الضربات، بالطريقة نفسها التي تأقلمت فيها قوات حركة الطالبان في أفغانستان لأكثر من ١٣ عاماً.

العراق سيظل "العقدة" التي تشكّل مقتلاً للأميركيين وحلفائهم العرب، فمثلما خدم التدخل العسكري الأميركي الأول عام ٢٠٠٣ تنظيم "القاعدة" ووفر له الحاضنة وأعاده من منفاه في أفغانستان إلى قلب المنطقة العربية، فإن التدخل العسكري الأميركي الثاني، والحالي، سيفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى "الدولة الإسلامية"، إن لم يكن أكثر، لأن هذا التدخل زاد من شعبيتها في العالمين العربي والإسلامي، وسهّل عملية تجنيدها للآلاف من الشباب الإسلامي المحبط، ولا أستغرب شخصياً إذا ما قاد هذا التدخل إلى اندماج العديد من الجماعات السورية الإسلامية المقاتلة في صفوفها، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، ونقصد بغير المباشر حدوث انشقاقات في هذه الجماعات وانضمام المنشقين إلى "الدولة" والقتال تحت مظلتها.

"الدولة الإسلامية"، اتفقنا معها أم اختلفنا، تقدم نموذجاً أكثر جاذبية بالنسبة إلى الشباب الإسلامي المحبط اليائس في مختلف أنحاء العالم، نموذج يقوم على إعادة إحياء أمجاد الإسلام وفتوحاته، وحروبه ضد "الكفار" و"الصليبيين" والهيمنة الأميركية على المنطقة مثلما تقوم أدبياته. ولهذا سيستمر تدفق هؤلاء الشباب إلى أراضيه للانخراط في صفوفه،

خاصةً بعد الانتصارات الكبيرة التي حققها بسيطرتها على الموصل، ثاني أكبر مدن العراق، وتثبيت أقدامه في مدينتي الرقة ودير الزور في سورية، وإزالته للحدود ومراكز عبورها، وهو ما فشلت في تحقيقه كل الأنظمة العلمانية والقومية والماركسية على مدى ستين عاماً من الشعارات الحزبية حول وحدة الأمة، مثل حزبي البعث الحاكمين على جانبي الحدود بين العراق وسورية.

إن احتمالات هزيمة "الدولة الإسلامية" من خلال الجيوش النظامية تبدو ضعيفة إن لم تكن محدودة جداً. فالولايات المتحدة مترددة في إرسال قوات برية إلى العراق وسورية، وكذلك هو حال قوى أخرى مثل المملكة العربية السعودية وتركيا، لأنها تخشى من تعاظم الخسائر البشرية، وقواتها غير مؤهلة لخوض حرب عصابات.

المأزق التركي

تركيا التي تحكمها حكومة "إسلامية" بزعامة رجب طيب أردوغان وحزب العدالة والتنمية ربما تكون الخاسر الأكبر في السنوات المقبلة، سواء تدخلت في الحرب البرية ضد "الدولة الإسلامية" أو ظلت تناور لتجنب هذا التدخل، لأن هذه الحرب ستؤثر، إذا ما طالت، وهي ستطول حتماً، على نسيجها الاجتماعي والطائفي المعقّد والهشّ، وعلاقاتها الدولية، وعلى عضويتها في حلف الناتو وطموحاتها في الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي.

إن فشل المخططات التركية في إطاحة نظام الرئيس السوري بشار الأسد بالسهولة التي كان يتوقعها الرئيس رجب طيب أردوغان أربك حساباته خاصة بعد انهيار آماله في تحويل حركة "الإخوان المسلمين" إلى القوة الجديدة التي ستحكم العالم الإسلامي ومراكزه الرئيسية في مَصر وتونس والعراق وليبيا، وفتح الطريق على مصراعيه أمام "الإسلام الجهادي" كبديل لملء الفراغ الذي خلّفه انهيار حكم الإخوان المسلمين في مصر. ولذلك فإن حظوظ الدولة الإسلامية تبدو قوية لكي تكون رأس حربة في مشروع إسلامي سلفي متشدد يسيطر على المنطقة أو بعض أجزاء منها لفترة طويلة في المستقبل المنظور.

الخطة الأميركية للتدخل في المنطقة تعتمد طول النفس، مثلما تعتمد سياسة "المراحل"، ومن الواضح أن المرحلة التالية، التي ستبدأ بعد "الإنهاك المفترض" للدولة الإسلامية من خلال الضربات الجوية، ستركز على تأسيس جيش سوري جديد من خلال تدريب قوات معارضة على أيدي خبراء أميركان في قواعد عسكرية في المملكة العربية السعودية، وإعادة تأهيل الجيش العراقي، على أيدي خبراء أميركان أيضاً.

فرص نجاح الجيشين الجديدين في قتال "الدولة الإسلامية" في البلدين، أي العراق وسورية،

تبدو ضعيفة. فالجيش العراقي الحالي، الذي يبلغ تعداده ٣٥٠ ألف جندي، كلّفت عمليات تدريبه وتسليحه أكثر من ٤١ مليار دولار، وانهار في ساعات أمام زحف قوات "الدولة الإسلامية" إلى الموصل، لأن إرادة القتال لدى قادته وجنوده شبه معدومة، وعقيدته القتالية "مشوشة"، والحكومة التي كان يقاتل تحت لوائها (حكومة نوري المالكي) حكومة طائفية.

الصحوات السورية

خريطة المعارضة السورية المسلّحة ستشهد حتماً حالة فرز واضحة بين التيارات "الجهادية" السلفية (الدولة الإسلامية، النصرة، أحرار الشام)، من ناحية، والعلمانية أو الممولة من دول خليجية التي توصَف بالمعتدلة من ناحية أخرى، ولا نستبعد صدامات دموية بينهما، حيث سيحاولون تصفية بعضهما البعض. فمن الواضح أن الفصائل الجهادية ستقف في الخندق المقابل، وربما تتوحّد لمقاتلة قوات التحالف الأميركي الذي يطلق عليه شيوخها وصف العدوان "الصهيوأمريكي" والدول العربية المنخرطة فيه بـ"دول الردة".

القيادة العسكرية الأميركية التي تدير الحرب ضد "الدولة الإسلامية" أسست "قوات صحوات" في كل من العراق وسورية، على غرار تلك التي أسسها الجنرال ديفيد بترايوس قائد القوات الأميركية السابق في العراق لتصفية تنظيم القاعدة الذي توسّع نشاطه وعملياته الهجومية وتفجيراته الانتحارية أو عبر السيارات المفخخة بين عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٨، وبلغ تعداد هذه القوات حوالي مئة ألف شخص، وحققت نجاحاً كبيراً في الحد من أنشطة التنظيم في تلك الفترة وتشتيت قواته وإجبارها على مغادرة محافظة الأنبار معقله الرئيسي.

المعارضة السورية "المعتدلة"، وعلى رأسها "الجيش السوري الحر" و"جيش الإسلام" وحركة "حزم" وفصائل أخرى، ستشكّل قوات "الصحوات" السورية، وستقوم بدور نظيرتها العراقية في إعلان الحرب على الجماعات الجهادية المتشددة، وقد شاهدنا بدايات هذه الحرب في توجّه قوات منها في تشرين الأول/ أكتوبر الماضي للقتال إلى جانب وحدات الحماية الكردية، الذراع العسكري لحزب الاتحاد الكردستاني، الذي اتّهمته قيادة الجيش الحر بالخيانة وتأييد نظام الأسد، ضد قوات "الدولة الإسلامية" في مدينة عين العرب (كوباني) الكردية شمال سورية.

لا شك أن قوات "الصحوات" السورية الجديدة المسلّحة ستنهك "الدولة الإسلامية" على الأرض في الوقت الذي تقصفها ومواقعها طائرات التحالف من الجو، ولكن من الصعب علينا الجزم بأنها ستتمكن من القضاء عليها. فقد تعيد السيطرة على بعض المناطق التي استولت عليها "الدولة" أثناء زحفها إلى مدينة عين العرب (كوباني) الاستراتيجية. ولكن

الحرب كرّ وفرّ، وعندما تعرضت لهجمات مشتركة من قوات الجيش العراقي والميليشيات الموالية له، في ذروة المقاومة عام ٢٠٠٨-٢٠٠٩، انسحب إلى أطراف ما كان يسمّى حينها بالمثلث السني.

النظام السوري سيكون قطعاً المستفيد الأكبر من هذه الانقسامات والحرب الطاحنة التي يشنّها التحالف الأميركي و"صحواته" ضد "الدولة الإسلامية"، ولسان حاله يقول "فخّار يكسر بعضه"، ولكن لن يكون مستبعداً أن يكون هذا النظام هو الهدف الثاني والمباشر إذا ما نجحت المخططات الأميركية في إضعاف ومن ثم القضاء على "الدولة الإسلامية" وتحييد خطرها بشكل نهائي.

احتمالات تفكيك العراق وسورية، أكبر دولتين عربيتين ومسقط رأس ونشوء أهم إمبراطوريتين إسلاميتين (الأموية والعباسية)، تكبر يوماً بعد يوم على أسس طائفية واضحة المعالم، تماماً مثلما حدث في الهند عام ١٩٤٧ (انقسمت إلى ثلاث دول: الهند وباكستان وبنغلاديش)، أو يوغسلافيا (صربيا، البوسنة، كرواتيا، كوسوفو، الجبل الأسود، سلوفينيا). وهذا التفتيت المتعمد، الذي يأتي تطبيقاً لخريطة المفكر البريطاني برنارد لويس، سيخدم حتماً "الدولة الإسلامية" التي تطمح أن تكون البديل من خلال صعودها القوي، وتمكّنها في مساحة الأرض التي تسيطر عليها.

الميليشيات المسلحة بدأت تأخذ مكانة الجيوش التقليدية في المنطقة التي أصبح الانهيار هو القاسم المشترك فيها جميعاً، فقد انهارت ثلاثة جيوش دفعةً واحدة هي العراقي واليمني والليبي أمام الميليشيات المسلحة، شيعية كانت أو سنية. فميليشيات عصائب أهل الحق وقوات بدر وجيش السلام (المهدي سابقاً) أصبحت أقوى من الجيش العراقي الرسمي، وكذلك قوات "البيشمرغة" الكردية، وميليشيا "أنصار الله" الحوثية في اليمن، وحزب الله في لبنان. ثلاثة جيوش كسرت هذه القاعدة حتى الآن: الجيش السوري الذي صمد أربع سنوات تقريباً ولم يتعرض إلا لانشقاقات محدودة، والجيش المصري الذي يشكّل عماد الحكم في مصر، والجيش الجزائري الذي حافظ على بقاء الدولة الجزائرية أثناء "ثورة الإسلاميين" ضده بعد إلغاء نتائج الانتخابات البرلمانية في مطلع التسعينيات من القرن الماضي وما زال يمسك دفّة الحكم في البلاد.

تقسيم العراق إلى ثلاث دول على أساس فيدرالي طائفي عرقي فشل حتى الآن، والهوية العراقية الموحّدة ضعفت وذبلت، والأمر المؤكد أن البلد بات يقف أمام احتمالين أساسيين: الأول ظهور قائد جديد على طريقة بيسمارك الألماني يوحّد البلد بالقوة والقبضة الحديدية، والثاني رسم خريطة جديدة للعراق تكرّس تقسيماً جديداً يقود إلى إنشاء ثلاث دول مستقلة: شيعية وسنية وكردية.

الاحتمال الأول، أي ظهور "بيسمارك عراقي"، مستبعد في الوقت الراهن، والاحتمال الثاني غير مؤكد، خاصةً إذا ما زحفت قوات "الدولة الإسلامية" نحو بغداد واحتلتها، مثلما فعلت قوات "أنصار الله" الحوثية في اليمن عندما احتلت العاصمة صنعاء وبعدها ميناء الحديدة وأجزاء كثيرة من الجنوب وباتت تسيطر على باب المندب، مدخل البحر الأحمر. فهذه "الدولة" تريد تثبيت خريطة جديدة للعراق وسورية معاً، أي أن طموح قادتها أوسع من طموحات "بيسمارك" وعابر لكل حدود المنطقة، والعاصمة التي تريدها لدولة الخلافة التي تريد إقامتها هي "مكة المكرمة" وليس بغداد، وليس صدفة أن زعيمها أبو بكر البغدادي يضيف دائماً إلى نسبه لقبين آخرين "الحسني" لتأكيد انتمائه إلى "آل البيت" رضي الله عنهم، و"القرشي" لتأكيد انتمائه إلى قبيلة قريش.

احتمالات الفشل والنجاح

الحرب الأميركية على "الإرهاب" التي بدأت بعد هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠١ فشلت فشلاً ذريعاً، وكبّدت الخزانة الأميركية حوالي ترليوني دولار مرشّحة للارتفاع إلى خمسة تريليونات دولار، علاوةً على ستة آلاف جندي أميركي قتلوا في حروبها في العراق وأفغانستان، وأدّت إلى وضع تشريعات جديدة نسف بعضها تشريعات ليبرالية كانت مفخرة للنظام الغربي، مثلما قيّدت الحريات التعبيرية والشخصية، وفرضت إجراءات أمنية متشددة في المطارات ولتأمين سلامة السفارات الغربية والأميركية بالذات. ولا نعتقد أن المرحلة الثانية منها، التي بدأت بالعودة الأميركية إلى العراق، ستكون أفضل حظاً.

تنظيم "القاعدة" أصبح أكثر قوةً وانتشاراً رغم هذه الحرب الشرسة، فقبل هجمات سبتمبر كان هناك عنوان واحد للتنظيم في أفغانستان، أما الآن فلم يعد التنظيم مركزياً، وبات التنظيم الأم هو الأكثر ضعفاً بينما أصبحت الفروع في اليمن والعراق وباكستان والمغرب الإسلامي والصومال والساحل الأفريقي أكثر قوة.

"الدولة الإسلامية" ورثت تدريجياً تنظيم "القاعدة" الأم، ومن المتوقع أن ترث فروعه أو معظمها في مختلف أنحاء الشرق الأوسط والعالم، لأنها تستند إلى انتصارات عسكرية وأيديولوجية توحيدية تعيد بعث الإسلام في صورته النقية الأولى حسب أدبياتها، وتملك جيشاً قوياً من الجهاديين تعداده أكثر من مئة ألف مقاتل على الأقل، ويتوسّع بشكل مضطرد، ويجمع بين صفات الجيش النظامي والوحدات الفدائية المقاتلة الخبيرة في حرب العصابات، وهذه سابقة نادرة في الخريطة العسكرية في منطقة الشرق الأوسط وربما العالم بأسره.

ثورات "الربيع العربي" التي اجتاحت المنطقة مطلع عام ٢٠١١ أعطت الشعوب

العربية آمالاً عريضة بالتغيير الديموقراطي، والإطاحة بالأنظمة الفاسدة القمعية، وإحلال قيم المساواة والعدالة الاجتماعية والحريات وحقوق الإنسان مكانها، ولكن هذه الآمال تبددت بعد إجهاض هذه الثورات من قبل التدخلات الخارجية ومن دول عربية تقليدية ملكية غير ديموقراطية أرادت أن تحصّن نفسها من خلال هذا الاجهاض، فجاءت النتائج كارثية على هذه الدول التي انطلقت فيها الثورات على المدى القصير، وعلى الدول الملكية الخليجية بالذات على المدى البعيد. فتحول العراق وليبيا واليمن وسورية، أبرز الدول التي جرى إشعال فتيل الثورات فيها، إلى دول فاشلة تعمّها الفوضى الدموية، وانهيار الدول المركزية ومؤسساتها، صبّ في مصلحة البديل الإسلامي الجهادي وأعاد إحياءه مجدداً وبصورة أكثر قوةً، خاصةً في سورية والعراق واليمن.

إن فشل كل العمليات العسكرية التفاوضية في الوصول إلى تسوية للصراع العربي الإسرائيلي، وتغوّل أعمال الاستيطان في الضفة الغربية، وشنّ إسرائيل عدواناً كل عامين على قطاع غزة وقتل الآلاف من أبنائه المحاصرين حصاراً خانقاً، كلها عوامل تصبّ في مصلحة "الدولة الإسلامية" وتعزز جذورها وتزيد من احتمالات استمرارها وقوتها.

مصيدة اتفاقات أوسلو الخطيرة التي وقعت فيها منظمة التحرير الفلسطينية بزعامة حركة "فتح"، وعمليات الترويض الناجحة التي تتعرض لها حركة "حماس" الإسلامية حالياً من أكثر من جهة لدفعها للتخلي عن الكفاح المسلح، وإقامة حكومات عربية علاقات سرية مع إسرائيل والتواطؤ معها في حربها الأخيرة على قطاع غزة... كلها عوامل ستدفع بتهيئة مناخ ملائم للحركات الجهادية الإسلامية المتشددة للتغلغل في الساحة الفلسطينية وتقديم نفسها كبديل مقاوم إلى الشعب الفلسطيني أو إلى قطاع عريض منه. وهناك مؤشرات قوية تفيد بوصول "الدولة" إلى قطاع غزة والضفة الغربية وتشكيل خلايا لها في مدينة رفح في القطاع والخليل في الضفة الغربية.

ولا نستبعد أن هذه الخلايا ستنمو وتتوسّع في الأشهر والأعوام المقبلة إذا ما استمرت الاقتحامات اليهودية للمسجد الأقصى وباحته، وأقدمت السلطات الإسرائيلية على تقسيم المسجد زمنياً وجغرافياً بين العرب واليهود على غرار ما حدث في الحرم الإبراهيمي في الخليل.

المعضلة الفلسطينية

سيأتي من يجادل بأن الدولة الإسلامية "غير مهتمة" بالقضية الفلسطينية ولم تطلق رصاصة واحدة ضد إسرائيل. وهذا الجدل صحيح إذا أخذنا ظاهره، ولكن الباطن قد يكون مغايراً

لذلك، وقد حملتُ هذه الشكوك إلى أحد أبرز مفكري الدولة الإسلامية (رفض أن أذكر اسمه) فبرّر ذلك بالقول: "إن المسألة مسألة أولويات، وإن "الدولة" تركّز حالياً على أولوية "التمكين"، وبعد أن تتحقق وتكتمل سيتم الانتقال إلى أولوية "التحرير" ومحاربة اليهود والقضاء عليهم ودولتهم". وضرب مثلاً بالقول إن فتح فلسطين وبلاد الشام عامةً جاء في مرحلة متأخرة وفي زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وبعد فتح بلاد فارس وبلاد الرافدين.

إن استراتيجية "التوحّش" التي تتبنّاها الدولة الإسلامية، وتوظّف أذرعها الإعلامية الجبارة لنشرها على نطاق واسع عبر أجهزة التواصل الاجتماعي، استراتيجية متعمدة، ومقصودة، الهدف منها إرهاب الخصوم، ومن المؤكد أن هذه الاستراتيجية ستستمر وتتوسع. والشيء نفسه يقال أيضاً عن أعمال القتل والرجم والسبي التي لا تنكرها "الدولة" بل تتباهى بها.

وقتل الرهائن الأجانب بطريقة استفزازية تفتقد إلى الرحمة أمام الكاميرات، ووضعها على "يوتيوب" من خلال أشرطة عالية الجودة، مقصود ويأتي في إطار خطة لجرّ أميركا وحلفائها إلى العودة إلى المنطقة مجدداً ومحاربتها على أرض عربية إسلامية، ولذلك فإن علينا أن نتوقع المزيد من الإعدامات هذه، والمزيد من التوحّش في السنوات المقبلة.

"الدولة الإسلامية" ستعمل في السنوات المقبلة على تعميق الشرخ الطائفي وتنصيب نفسها زعيمة المعسكر السنّي، والتغول في الإرهاب بأشكاله كافة كأداة لبثّ الرعب على طريقة القائد المغولي جنكيزخان. فقد هددت السلطات التركية بنقل الحرب إلى داخل حدودها وتدمير صناعتها السياحية إذا ما قررت الانضمام إلى التحالف الأميركي، ولا نستبعد أن تجنّد خلايا جهادية داخل المملكة العربية السعودية ودول خليجية أخرى لزعزعة استقرارها، للانتقام من مشاركتها في ضربات التحالف الجوية لمناطقها ولآبار النفط ومصافيه التي تسيطر عليها.

من الصعب التنبؤ بالجبهة المقبلة التي ستفتحها "الدولة الإسلامية"، فبينما كان الكثيرون يتوقعون أن تكون بغداد هي الهدف بعد الاستيلاء على الموصل، فوجئ الجميع بتقدم قواتها نحو عين العرب (كوباني) في شمال سورية لإقامة حزام عازل على الحدود السورية التركية. وليس من المصادفة أن هذا الحزام العازل هو الذي تطالب بإقامته حكومة الرئيس رجب طيب أردوغان وترفضه أميركا وحلفاؤها. وستظل العاصمة العراقية بغداد على قمة أولويات هذه "الدولة" وهي تنتظر حالياً التوقيت الملائم.

سألتُ أحد المقربين من السيد البغدادي عن الهدف الأهم بالنسبة إلى الدولة، فقال لي دون تردد إنها أرض الحجاز والمقدسات فيها. وعلينا أن نأخذ هذه المسألة بالكثير من الجدية في المرحلة المقبلة، فالخلافة لا تكتمل إلا بالسيطرة على مكة المكرمة والمدينة المنورة.

السؤال الذي يطرح نفسه بقوة في الغرب والأوساط الأميركية حول إمكانية إقدام "الدولة الإسلامية" على شنّ هجمات إرهابية ضد أهداف في العواصم الغربية على غرار هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر وتفجيرات محطة قطارات مدريد ومترو أنفاق لندن على غرار ما فعلته خلايا تابعة لتنظيم "القاعدة" الأم؟

أسلوب "الدولة الإسلامية" وطريقة عملها وأجندتها السياسية والعسكرية والاستراتيجية تختلف كثيراً عن نظيراتها لدى تنظيم "القاعدة"، فالدولة الإسلامية تتصرف كدولة وليس كتنظيم "إرهابي"، وتريد الاستيلاء على الأرض كأولوية لتوسيع الرقعة التي تسيطر عليها. وإرسال خلايا إلى أوروبا وأميركا للقيام بأعمال انتقامية على غرار ما فعل تنظيم "القاعدة" أمر غير وارد الآن، وإن كان غير مستبعد لاحقاً. وسيتم غالباً ترك هذه المهمة لخلايا داخلية في الدول المنخرطة في التحالف الأميركي على غرار عملية كندا التي نفّذها الشاب مايكل زيهاف (أكتوبر ٢٠١٤) الذي حاول اقتحام البرلمان الكندي في أوتاوا العاصمة وحاول اغتيال رئيس الوزراء وقَتل جندياً كندياً، أو زميله الآخر مارتن روكو الذي صدم جنديين بسيارته في البلد نفسه، والقاسم المشترك بين الاثنين هو أنهما اعتنقا الإسلام حديثاً، ونفّذا هجومهما احتجاجاً على انضمام كندا للتحالف الأميركي وإرسال طائرات حربية لضرب مواقع الدولة الإسلامية.

هناك أكثر من سبعة آلاف مقاتل يحملون جنسيات أوروبية وأميركية يقاتلون في صفوف الدولة الإسلامية، أو يتولون مهام إعلامية وتقنية ودعائية، وربما تؤجّل مهمة هؤلاء في القيام بهجمات ضد بلدانهم الأصلية لمرحلة لاحقة، وبعد إكمال عملية التمكين للدولة.

من يعتقد أن "الدولة الإسلامية" هي مجموعة من الشباب الجهادي المغامر الذي يريد أن يقاتل من أجل الشهادة، ولا يملك إلا الخبرة في الذبح والقتل والرجم، فهو مخطئ. فهي غير ذلك، وتملك "بنوك عقول وأدمغة" متخصصة في علوم كثيرة، إدارية وعسكرية وسياسية وإعلامية وأمنية، تضع الخطط والدراسات وتنظم العمل في مؤسساتها، حسب المعلومات التي حصلنا عليها من مصادر داخلها، ونعتقد أنها دقيقة. فهناك شبان تعلموا في أعرق الجامعات الغربية والأكاديميات العسكرية والاستراتيجية، علاوةً على أبرز القادة العسكريين والإداريين من ضباط الجيش العراقي المنحلّ الذي تحولوا إلى العقيدة الإسلامية ويفضّلون العمل في الخفاء بصمت وبعيداً عن الاضواء، فلم يظهر واحد منهم أمام الكاميرات أو يدلي بتصريح للصحافة.

التحالف المقابل الذي يقاتل "الدولة الإسلامية" ويريد القضاء عليها وخطرها ضخم وقوي بكل المقاييس وتتزعّمه أميركا، الدولة الأعظم في التاريخ، ومن الخطأ تجاهله أو التقليل من قوته والأسلحة الحديثة التي يستخدمها لتحقيق مهمته، وعلينا أن نضع في اعتبارنا

أنه يقاتل بغطاء عربي إسلامي توفره دولة مثل المملكة العربية السعودية أحد أبرز المرجعيات الإسلامية ويتزعمها "خادم الحرمين الشريفين" حيث توجد الأماكن الإسلامية الأكثر قداسة. ولذلك لا يجب استبعاد تحقيق هذا التحالف بعض النجاحات المهمة في جبهات القتال، ولكن كلما طال أمد الحرب كلما اختلفت معادلات القوة على الأرض، وعلينا أن نذكر دائماً المقولة العسكرية التي تقول "إن الأرض تقاتل مع أصحابها".

مهمة التحالف الأميركي في المنطقة لن تكون سهلة، بل أكثر تعقيداً مما يتصوره الرئيس باراك أوباما الذي حاول التهرب منها طويلاً ولكنه استسلم في نهاية المطاف وقرر خوضها استجابةً لضغوط المعارضة الجمهورية وبعض الديموقراطيين في الكونغرس.

أميركا انهزمت في العراق وفي أفغانستان، ومشاريعها فشلت في ليبيا، وتعثرت في مصر، وانهارت في اليمن، وحربها على الإرهاب منيت بنكسة كبرى، فالهدف من هذه الحرب، أي تنظيم "القاعدة"، ما زال موجوداً، وتشهد الساحة حالياً ورثته الأكثر خطورةً منه.

الإدارة الأميركية تفاوضت مع الفيتناميين في باريس، واضطرت مكرهة للتفاوض مع تنظيم طالبان "الإرهابي" لتسليمه السلطة بعد انسحاب قواتها كلياً بعد عامين، فهل ستضطر لابتلاع كأس السم نفسه والتفاوض مع "الدولة الإسلامية" وممثليها في عاصمة عربية أو أوروبية في المستقبل القريب؟ شخصياً لا أستبعد ذلك. ألم تتفاوض إسرائيل مع منظمة التحرير ورئيسها "الإرهابي" ياسر عرفات؟ ألم تتفاوض بريطانيا العظمى مع الجيش الجمهوري الإيرلندي الإرهابي؟

منطقة الشرق الأوسط برمتها تتعرض لعملية تغيير جذرية، وهناك قوى ستختفي وأخرى ستصعد وتتصاعد، وحدود سيعاد رسمها من جديد، وحروب أهلية طائفية جديدة ستتفجر، وأخرى ستقوى وتتعمق، وكل المؤشرات تؤكد أن "الدولة الإسلامية" ستظل معنا لفترة طويلة، طالما أن هناك من يتوقع أن تستمر الحرب ضدها ثلاثين عاماً على الأقل، ونحن نتحدث هنا عن ليام بانيتا وزير الدفاع الأميركي ورئيس وكالة المخابرات المركزية الأميركية (سي آي إيه) الأسبق.

إن سيناريو الرعب الحقيقي يمكن أن يتجسد في امتلاك "الدولة الإسلامية" أسلحة كيماوية، فهذه الدولة لن تتردد مطلقاً في استخدامه ضد خصومها، فلا شيء يمنعها من فعل ذلك، على عكس النظام السوري الذي يخشى من قصف عسكري أميركي، فليس هناك شيء يمكن أن تخسره هذه الدولة، فهي تقتل الآلاف ذبحاً أو تفجيراً، والقصف الأميركي لم يتوقف على مواقعها، و"الصحوات" تشكلت لمحاربتها. بمعنى آخر، إن صورتها سيئة في نظر العالم الغربي وحلفائه العرب، وهي تفتخر بهذا السوء.

الأسلحة الكيماوية موجودة أو بعض بقاياها في سورية والعراق وليبيا، وهناك خبراء

عراقيون من النظام السابق موجودون في صفوف الدولة، ويكفي أن يتطوع بعضهم لإنتاج هذه الأسلحة. وعلينا أن نتذكر أن تنظيم "القاعدة" سعى سعياً حثيثاً لامتلاك أسلحة كيماوية، وأجرى تجارب فعلاً على كلاب في أفغانستان في إطار مساعيه هذه.

فهرس الأعلام

أ

ب

فهرس الأماكن

ت

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ظ

ع

غ

ق

ك

يكشف الكاتب الصحافي عبد الباري عطوان في هذا الكتاب عن أصول "الدولة الاسلامية" و"الخلافة" المعلنة، التي وصفها وزير الدفاع الأميركي تشاك هيغل بأنها "أكبر تهديد إرهابي يواجه الولايات المتحدة".

كما ويبحث عن جذور هذه الدولة ومرتكزاتها الإيديولوجية، وطبيعة القوى المكونة لها، وأسرار صعودها المفاجئ، ومصادر قوتها وضعفها، والعلاقة بينها وبين تنظيم "القاعدة" الأم، وعوامل الخلاف والاتفاق بينهما. وينقّب في أسباب ممارساتها الوحشية الدموية ضد خصومها، في التاريخين الإسلامي والغربي معاً، ويرصد البيئة الحاضنة لها وتركيبتها الدينية والفقهية.

ويقدّم الكاتب جوانب خفية من شخصية "الخليفة" أبي بكر البغدادي، ونشأته والعوامل التي أثّرت في شخصيته، وعلاقته بأسامة بن لادن وتنظيم "القاعدة"، وحقيقة تأثره بشخصية أبي مصعب الزرقاوي، وخلافه مع الدكتور أيمن الظواهري، من زاوية جديدة.

كما يتوقف عند مصادر تمويل "الدولة الإسلامية" وتسليحها، اعتماداً على مصادر عربية وغربية ومقابلات شخصية مع بعض رموزها، ويرصد إمبراطوريتها الإعلامية الجبارة وتمدّدها في العالم الإسلامي وسر اندفاع الشباب للانضمام إلى صفوفها. وأخيراً يحاول التنبؤ بمستقبل "الدولة الإسلامية" وبمدى قدرتها على البقاء وتحقيق طموحاتها في إقامة دولة الخلافة الإسلامية، ومدى شرعية هذه الطموحات وإمكانية تحقيقها على أرض الواقع.

عبد الباري عطوان كاتب وصحافي عربي، ورئيس التحرير المؤسّس لجريدة "القدس العربي "في لندن، ورئيس تحرير جريدة "رأي اليوم" العربية.

ISBN 978-6-14425-817-0

DAR AL SAQI
دار الساقي